

مخطوط

الطُّورُ
وَالْمَنَابِتُ
فِي حَيَاةِ الْبَشَرِيَّةِ



دار الشروق

التَّطَوُّرُ
وَالثَّبَاتُ
فِي حَيَاةِ الْبَشَرِ

الطبعة السادسة

١٩٨٦ م - ١٤٠٦ هـ

الطبعة السابعة

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م

الطبعة الثامنة

١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة ١٦ شارع حواد حسي - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤

ربقا شروق - تلکس 93091 SHROK UN

بيروت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

ربقا دالشروق - تلکس SHROK 20175 L.E

مجلد قطب

التَّطَوُّرُ

وَالثَّبَاتُ

فِي حَيَاةِ الْبَشَرِيَّةِ

دار الشروق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

هذا العصر هو عصر التطور . .

كل شيء فيه يتطور . .

الأفكار والعقائد . . القيم والمفاهيم . . الأخلاق والتقاليد . . الصور المادية
للحياة . . المسكن والملبس والمأكل . . وسائل المواصلات ووسائل الإعلام . .
الحرب والسلام . . الآلة . . الإنسان !

ولا يمر يوم ولا تمر ساعة . . بل لا تمر لحظة لا يذكر فيها لفظ التطور من
أقصى الأرض إلى أقصى الأرض . . في الغرب « المتحضر » والشرق « المتأخر » . .
في كل مكان !

ولا يوجد شيء واحد ولا عمل واحد ولا مفهوم واحد لا تدخل فيه فكرة
التطور . . ولا يتصور الناس شيئاً في الحياة كلها إلا من خلال فكرة التطور
التي تشمل كل شيء وكل كيان !

* * *

وحين تستولى فكرة التطور على أفهام الناس بهذه الصورة ، فلا بد أن
يصطدم تفكيرهم بالدين ! فالدين — في حس البشرية — يمثل الثبات . ثبات
الإله . وثبات العقيدة . وثبات العبادة . وثبات القيم . وثبات المفاهيم . وثبات
التقاليد . وثبات الحياة .

وما دام الدين في حس البشرية يمثل هذا الثبات كله ، فلا بد أن يصطدم

في حسبها بمفهوم التطور الشامل ، الذي لا يطبق تصور الثبات في أى شىء على الإطلاق ، ولو كان فكرة الله أو فكرة الدين .

* * *

وفي الغرب اصطدمت بالفعل فكرة التطور بمفهوم الدين . وقام بينهما صراع عنيف منذ « عصر النهضة » الذى قام على أساس لاديني . وانتهى الصراع بتنحية الدين عن الحياة العملية . وعن الاقتصاد والاجتماع والسياسة . وعن العلم والفن .. ولم يبق له إلا ركن ضئيل في حياة الأفراد .. يشبعون ميلهم الشخصى إليه بالذهاب إلى الكنيسة ، أو اتباع بعض تعاليم الدين في السلوك الشخصى ، بينما الحياة الواقعية كلها تحكمها المفاهيم المضادة لفكرة الدين .

وفتر الصراع الذى كان حادا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لأن الدين لم تعد له القدرة على الصراع ، والمتدينين ورجال الدين لم يعد في وسعهم إلا الرضى من الغنيمة بالسلامة الشخصية ، والانعزال عن الركب المتحرك .. أو محاولة اللحاق بذلك الركب عن طريق « تطوير » الدين (1) وجعله تابعا ذليلا للتطور ، بعد أن عجز عن قيادة الحياة !

* * *

أما في الشرق .. « الإسلامى » .. فزال الصراع قائما بين الدين والتطور ! لأن الدين — من ناحية — مازالت له قبضته على نفوس الجماهير ، كعقيدة وفكرة إن لم يكن كواقع وسلوك ، رغم الجهد الضخم الذى يبذل لتفتيت العقيدة وتحطيمها ، وتحويل الاهتمامات عنها إلى مفاهيم جديدة وأفكار جديدة .. ولأن « التطور » من ناحية أخرى لم يبلغ مداه بعد .. لا التطور الصناعى

ولا الاجتماعى ولا الاقتصادى المجلوب من الغرب ، والذي يحمل فى أطوائه المفهوم
« اللادينى » للحياة

ومن ثم فانزال هناك معركة !

والكتاب ورواد التطور يختلف موقفهم من المعركة باختلاف درجة
اصطباهم بالفكر الغربى ، ودرجة صراحتهم فى إدارة العراك !
فبعضهم يهاجم الدين صراحة ، ويقول إنه بقية من الماضى المظلم ينبغى أن
تزل . . وخرافة لا يصح أن تعيش فى عصر النور !

وبعضهم لا يجد فى نفسه الجرأة التى يهاجم بها الدين صراحة ، فيستتر وراء
مهاجمة « الأفكار الرجعية » أو « رجال الدين » . . ومن هناك يهاجم كل
المفاهيم الدينية وهو آمن من تهمة الإلحاد والمروق . فلا يستطيع - مثلاً - أن
يقول إن الله - سبحانه - رجعى لأنه يقصر زينة المرأة على رجلها أو محارمها .
فهذا القول الوقح يعرضه لاحالة لفضبة الجماهير ، فلا ينسب إلى الله هذا القول !
وينسبه إلى رجال الدين الرجعيين ! ولا يجرؤ - مثلاً - أن يقول إن الله
- سبحانه - مخطئ حين يحرم الفاحشة ، وقيام أى علاقة جنسية خارج الزواج
الشرعى . فلا ينسب هذا التحريم إلى الله سبحانه ويقول إن « المفاهيم الرجعية »
للأخلاق ، التى تحرم الصداقات والعلاقات بين الجنسين هى مفاهيم بالية ينبغى
أن تتطور . . وأن تزل !

وبعضهم يقول إن الدين أفكار سامية جميلة (١) ولكن مافيه من تشريعات
وتوجيهات قد نزل لعصر معين وظروف معينة . . والظروف قد تغيرت . .
فلا بد من إبقاء الدين « روحاً » صافية ، لا تتدخل فى التشريع ، ولا تحكم الحياة
الواقعية . . من أجل الإبقاء على معانيه السامية وأفكاره الرفيعة ، ومنعها من
الاصطدام بالواقع المتغير المتطور ، فتتسطح ، وتترك الناس بلا هداية من روح الدين !

وبعضهم لا يذكر اسم الدين على الإطلاق .. وإنما يهاجم المفاهيم الدينية « كمفاهيم » لعلها بالدين. مفاهيم اجتماعية أو فكرية أو سياسية أو اقتصادية . ويستخفها لعدم تمسحها مع روح العصر ، والتطور العلمى والحضارى .. ويترك هذا التسخيف يفعل فعله الخفى فى تحطيم القيم الدينية دون أن يتعرض إطلاقاً لذكر الدين !

وبعضهم — للتوريط — ينسب إلى الدين كل ما يريد بثه من أفكار « تطورية » بحجة مرونة الدين وصلاحيته للحياة فى كل عصر .. فهو يبيح الاختلاط ، ويبيح تزين المرأة ، ويبيح قيام علاقات بين الجنسين (دون الفاحشة من باب التأدب !) ويبيح نقد المفاهيم بل النصوص الدينية ذاتها وتمحيصها (للاقتناع بها عن تفكر وتدبر !) ويبيح ترك بعض المفاهيم الدينية واستبدال غيرها بها (لأن الناس أعلم بأمور دنياهم !) أو بعبارة أخرى يبيح نقض الدين كله بحجة التجديد والتطوير !

وبعضهم — المضللين الخدوعين ! — يكتبون — فى إخلاص ! — عن وجوب تطوير الدين حتى لا يفوته الركب ، وينعزل فى زوايا النسيان !

* * *

والجواهر تتشرب الإيحاءات المختلفة التى يصبها فى أذهانها « المثقفون » بمختلف وسائل الإعلام : الكتاب والقصة والمسرحية والمقال والخبر والتحقيق الصحفى والرسم الكاريكاتورى والنكتة المصورة .. والإذاعة والسينما والتلفزيون .. وتظل هذه المفاهيم تدور فى نفوسهم ، وتصطرع — فى وعى أو غير وعى — بمفهوم الدين . وتنتج عن ذلك نتائج متباينة .. فبعضهم ينتهى به الأمر إلى الخروج الصريح من دائرة الدين . وبعضهم ينعزل الدين فى وجدانه عن الحياة . « فيتدين » فى داخل قابله : يصلى ويصوم ، وقد

يزكى ويحجج ، ثم يمارس الحياة الواقعة بكل مفاهيم « التطور » ، فيترك بناته - مثلاً - يلبسن فساتين فوق الركبة ، ويخالطن الشبان ، لأن « العصر » يريد ذلك ، وهو يريد لبناته أن يكنّ على « موضة » العصر . وبعضهم يتجمد - في تحجر - على مفاهيم معينة يظنها هي الدين ، ويخاصم الحياة المتحركة كلها لأنها خروج على الدين . وبعضهم يظلون في حيرة ، لا يدرون ماذا يصنعون !

* * *

وهذا البحث يتناول قضية التطور ، في مواجهة قضية الدين . .
وقد تناولت هذا الموضوع من قبل في كتب سابقة ولكن دون تفصيل .
تناولته أول مرة - بصورة مباشرة - في فصل « أتم أعلم بأمور دنياكم »
في كتاب « قبسات من الرسول » فتحدثت حديثاً مريعا عن قضية التطور ،
وعن الثابت والمتطور في كيان الإنسان ، وطريقة الإسلام في معالجة هذا وذاك .
ثم تناولته في فصلين من كتاب « معركة التقاليد » تحدثت فيهما عن المفهوم
الأوربي للتطور ؛ وما يحمله في طياته من حقائق وأباطيل ، وكيف أثر في الحياة
الأوربية ثم انتقلت عدواه إلى الشرق عن طريق الاستعمار .
ثم أفردت له فصلاً في كتاب « دراسات في النفس الإنسانية » بعنوان
« الثابت والمتطور في كيان الإنسان »
ولكن الرغبة كانت تتزايد في نفسى كل مرة أن أتناول الموضوع في بحث
متخصص ، لا تناولا عرضيا في أثناء الطريق .
وأخيراً كان هذا الكتاب ، تناولت فيه الموضوع من جميع الزوايا التي
جالت في خاطري ، في الفكر الغربي والإسلامي سواء .

وهو يتناول أربع قضايا رئيسية :

المفهوم الغربى للتطور ، وأسبابه ونتائجه فى الحياة الغربية .
حقيقة الفطرة البشرية وما تشتمل عليه من جوانب ثابتة وجوانب متغيرة .
المفهوم الإسلامى « للإنسان » وطريقة الإسلام فى معالجة الثابت والمتطور
فى حياة البشرية .

والقضية الرابعة تتناول الموقف الراهن للحضارة الغربية وللإسلام ، وما يحمله
الموقف من دلالة لمستقبل البشرية .

والموضوع واسع مافى هذا شك ، والقضايا التى يتناولها شديدة الخطورة
بالنسبة لمفاهيم الحالية للحياة . وهو فى حاجة إلى دراسة واسعة مستفيضة جادة
فى كل مناحى التفكير البشرى والحياة البشرية .

وما يتسع بحث كهذا لىكل جوانب الموضوع بطبيعة الحال .
ولكن حسبى أن يتناول القضية فى جوهرها . بل حسبى أن يفتح الباب للتفكير .
فإن نجاح فى ذلك فما توفيقى إلا بالله .. وله الحمد وله الشكر فى جميع الأحوال .

محمد قطب

عَصْرُ التَّطَوُّرِ

في العصور الوسطى كان « الثبات » هو الطابع المسيطر على الحياة كلها في الغرب . وكان العالم الإسلامي قد أخذ دورة من النشاط الحى المتحرك الغلاب .. ثم أخذ يركن إلى الهدوء أو إلى الركود التدريجي البطيء . وكان مفهوم الثبات في أوروبا مستمداً من الدين ، كما هو مستمد من الوضع الاقتصادى والاجتماعى الثابت الأركان .

كان الدين — بمفهومه الكنسى الأوربى — « عقيدة » .. أى علاقة بين العبد والرب تحكم الوجدان ، ولا تحكم — إلا قليلا — واقع الحياة . أما هذا الواقع فتحكمه تشريعات مستمدة من القانون الرومانى ، ومستمدة من أهواء حكام الإقطاع ، أى مستمدة — فى النهاية — من أصول وثنية لاعلاقة لها بالدين . وما دام الدين « عقيدة » بهذا المفهوم ، أى اعتقادا فى الله ، وارتباطا وجدانياً به ، وتعبدًا روحياً إليه .. فهو « ثابت » بكل معنى الكلمة . فالله فى الوجدان ثابت ، وطريقة الوجدان فى التطلع إليه تمثل كذلك لوناً من الثبات . على أننا حتى لو فرضنا أن الدين — بمفهومه الكنسى الأوربى — كان ديناً كلياً شاملاً [كما هو منزل من عند الله فى الحقيقة] أى ديناً يحكم الوجدان والحياة الواقعة فى ذات الوقت ، ويشرع للناس أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية إلى جانب ما يشرع لهم عباداتهم وسلوكهم الفردى .. فلا ندرى على وجه التحقيق كيف كانت تصبح صورة المجتمع الأوربى ، مادامت الحكومات الأوربية لاتحكم بهذا الدين !

إنما نحن نعلم على وجه اليقين — من التاريخ — أن دور الإسلام لم يكن كذلك ..

فهو أولاً قد حافظ على مفهومه السماوى فترة طويلة من الوقت ، كان فيها
يشترع للوجدان وللحياة الراقعة على السواء . وعلى الرغم من الفساد الجزئى الذى
أصاب الحكومة الإسلامية ، وأصابها مبكراً منذ عهد الدولة الأموية ، فإن
« الدين » لم يعيش فى عزلة عن المجتمع قط ، إلا فى العصر الأخير . . فى القرن
الثامن عشر الميلادى وماتلاه ، بعد الحملة الصليبية التى قادها نابليون على مصر ،
وتبعتها حملات صليبية أوروبية متعددة على العالم الإسلامى : فرنسية وإنجليزية
وبلجيكية وهولندية وألمانية . . ثم أمريكية . . فى صورة « استثمار » حربى
واقتصادى وسياسى . . يعمل بادى ذى بدء على خلع الحكومة المسلسلة القائمة
بتنفيذ شريعة الله ، وإخضاع الحكم لتشريع غير ربانى ، وبصفة خاصة غير إسلامى .
كما أن الإسلام قد « حرك » الحياة و « طورها » فى كل مكان حل فيه . .
وكانت آيات التطوير شاملة لشتى الاتجاهات .

فى الجزيرة العربية وما شابهها فى البناء الاجتماعى والاقتصادى ، أحدث
حركة ضخمة حين حول المجتمع القبلى إلى « أمة » . أمة متماسكة ، تحكمها حكومة
مركزية واحدة ، وتطبق فيها قانوناً واحداً ، ويجمعها فى النهاية شعور الأمة
الموحدة ، لا المقاطعات المستقلة ولا الأقاليم المتفرقة المنعزلة . وفى البلاد ذات
الحضارات السابقة أحدث حركة مماثلة حين حرر الأمة من عبادة الوثن الحاكم
إلى عبادة الله . . فانطلقت المشاعر التى كانت حبيسة فى عبودية الحاكم ، تنشط
فى مجالها المتحرر مختلف ألوان النشاط .

وفى جميع الأحوال أحدث « حركة » اقتصادية ضخمة ، فانتقل بالمجتمع
الإسلامى الواسع من مرحلة الرق ، والرعى ، إلى الزراعة والتجارة والصناعة على
مستوى « دولى » . . فحال دون الركود الاقتصادى على وضع معين فترة طويلة
من الوقت . وأهم من ذلك أنه — بتشريعاته الخاصة ، الاقتصادية والاجتماعية —
حال دون « ثبات » الوضع الاقتصادى والاجتماعى للأفراد والأسرات . فلا نظام

فيه « للطبقات » كالذى عرفته أوروبا . ولا « أشراف » بالمولد يظنون بتراثون الأرض والمال والمركز الاجتماعى والسيادة . وإنما هو مجتمع « مفتوح » يستطيع كل فرد فيه بوسيلة أو بأخرى أن يرتفع إلى القمة وأن ينزل إلى الحضيض . ثم تنفتت الثروات بتشريع الإرث فلا تبقى فى يد شخص واحد أو أسرة معينة . ثم التجارة بتقلباتها تغنى هذا وتفقر ذاك ، وتحدث حركة دائمة فى أوضاع الناس ، فلا الغنى يبقى غنيا إلى الأبد ولا الفقر يظل على فقره ، وإنما يتبادلون المراكز كلما تقلبت الأحوال . ثم « الصناعة » فى المدن الصناعية تحدث ألوانا من الثروة وألوانا من العلاقات غير ثروة الإقطاع وعلاقاته . . وهكذا تتمر الحركة فى العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه .

وكذلك كانت الفتوح والغزوات التى صاحبت تاريخ الإسلام سببا فى حركة من نوع آخر . حركة الجيوش وحركة الأفكار وحركة الحضارات . فمع كل فتح جديد حركة . ومع كل حركة تبادل حى بين الغالبين والمغلوبين . تتولد عنه مفاهيم اجتماعية واقتصادية وسياسية جديدة ، يحكمها فى النهاية مفهوم الإسلام .

وفوق ذلك كله كانت الحركة العلمية . . وهى تعتبر فى ميزان التاريخ أكبر حركة فيه إلى ما قبل العصر الأخير . وهى ليست مجرد علم . وإنما هى على وجه التحديد « حركة علمية » . حركة تأخذ وتعطى ، وتنمو وتزداد . حركة تأليف وترجمة ونشر [عن طريق المدارس والمكتبات العامة] على نطاق واسع غير معهود من قبل فى التاريخ . حركة فى الفلسفة التجريدية والعلوم النظرية والتجريبية . . . ويكفى من دلالاتها أن يكون العلماء المسلمون هم الذين أنشأوا المذهب التجريبى الذى سارت عليه العلوم كلها فيما بعد ، وطبقوه على أوسع نطاق ، فى الجغرافيا والفلك . . وفى الطب والكيمياء والطبيعة . . وفى اتجاه الحياة عامة بلا استثناء .

في هذا الجو « المتحرك » النامي المتطور كان يعيش العالم الإسلامي ، حيث كانت تعيش أوروبا في جو من الركود و « الثبات » ...

وحتى حين استهلك العالم الإسلامي طاقته [لأسباب تاريخية ليس هنا مجال تفصيلها ، ولكن يمكن تلخيصها في كلمة واحدة : أنها البعد التدريجي عن « الإسلام » .. أي عن مصدر الحركة والإشعاع] .. حتى حينئذ كانت فيه من بقايا الرصيد الضخم ، رصيد الحركة والنماء والتطور ، في أيام الحروب الصليبية ، ما كان كافيا لأن يشعل الشرارة في أوروبا ، فيخرجها من الظلمات إلى النور .

في الحروب الصليبية التقت أوروبا « ببقايا » الحركة الإسلامية .. أكبر حركة مد في التاريخ .. فكانت هذه البقايا تحمل من الحيوية والحركة والاشتغال ، ما استطاع أن يوقظ أوروبا من سباتها ، وبعثها تطلب الحركة والحياة .

أولى ثمار الحروب الصليبية في أوروبا كانت حركة البعث العلمي . فقد تعرف الصليبيون على المعارف الإسلامية ، سواء ما كان منها من أصل إغريقي ، وما كان إضافة جديدة أضافها العلماء المسلمون في فترة الركود الأوربي الطويل . وكانت حركة البعث هذه أول شرارة انطلقت لتحرر الأرواح في أوروبا من ظلام الجهل والخرافات والأساطير .

ثم كان تحطيم النظام الإقطاعي والسعي لتكوين الدول والأمم في مكان الإقطاعيات والقبائل ، حين لمس الصليبيون في حربهم مع المسلمين مزايا الحكومة المركزية الموحدة ، والقانون الواحد الذي يسرى على الجميع ، القانون الذي لا ينبع من هوى حاكم الإقطاعية ، ولا تتداخل فيه السلطة القضائية والسلطة التشريعية والسلطة التنفيذية ، كما كانت كلها تتداخل في شخص الحاكم هناك . كما ساعد تكون المدن التجارية والصناعية التي نشأت في أثناء الحروب الصليبية — على غرار المدن الإسلامية الساحلية — على تفتيت الإقطاع وتحرير العبيد .

باختصار بدأت أوروبا « تتحرك » من سباتها الطويل .

* * *

وحين بدأت تتحرك .. أخذت الحركة تصطدم بمفهوم « الثبات » .
وقد كان هذا المفهوم بعيد الغور في التربة الأوربية .. فلفترة طويلة من الزمن كان كل شيء ثابتا في أوروبا لا يتحرك ولا يريم . العبيد في الأرض . والسادة في الإقطاعيات . كل منهما يرث عبوديته أو سيادته على مدار الأجيال ومدار القرون . ورجال الدين ذوو المنزلة والسطوة عنصر يكمل الصورة ويثبت الإطار . الحياة هي الحياة .. الرجل والمرأة والأطفال يتعاقبون على طور واحد . فرد يذهب وفرد يخلفه في مكانه ، يأخذ نفس السمث ويؤدى نفس الدور ، فكأنما لا يذهب الذاهب ولا يجيئ .. في حدود « الطبقة » بإطارها الجامد الذى لا يتحطم ، يعيش كل إنسان . الشريف في « شرفه » والشعب في شعبيته ، ورجل الدين في مسوحيته .. بلا تبديل .

الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية والروحية تسير على نفس الوتيرة منذ عهود لا يعيها وعى الفرد ، وإنما يتصورها امتدادا « أزليا » ثابتا في الماضى ، ويراه في الحاضر ثابتة ، فيتخيل لها كذلك ثباتا أبديا فيما يقبل من التاريخ ..

وفي ظل هذا المفهوم الثابت تثبت الأفكار والقيم والأخلاق والتقاليد .. ويشمل ذلك كله من الخارج إطار الدين ، فيُحكَم الصورة الثابتة ، ويزيد في تثبيت المفهوم .

* * *

والجهل والأساطير والخرافة تزيد من عنصر الثبات ..
فالعلم حركة .. حركة في الذهن تنبعث حركة في واقع الحياة . وما دام الذهن

يعمل ويتحرك ، ويعرف جديداً كل يوم ، فلا سبيل للركود الجامد ولا الثبات الجاثم .. وإنما السبيل للتغير والتطور ، والتحويل والتبديل .

ولقد كانت الكنيسة الأوروبية قيّمة على هذا الجهل حريصة عليه .. فأى شيء — كالجهل — يمكن أن يضمن لها استئانة الجماهير لسلطانها الطفاني ، وأى شيء يمكن أن تحذره أكثر من العلم الذي « يحرر » الأرواح والنفوس ؟! ومن هنا كان الدور « الطبيعي » للكنيسة — من موقفها الذي ترصد منه الحياة الأوروبية — أن تحافظ على الجهل أطول مدة تستطيعها ، وتمنحه سلطان الدين وعنوانه ، وأن تحارب العلم ما وسعتها الحاربة ، وتسمه بالعصيان والمروق ، وتطرده من رحمة الله .. كذلك فعلت مع كوبرنيكوس وجاليليو وجوردانو برونو .. ومع كل عالم تجرأ أن يناقض جهاتها المقدسة ، ويفتح الباب للعلم كي يغير الطريق .

* * *

من هذا « الثبات » الهائل الراسخ العميق الغور ، أخذت أوروبا تتحرك على صدى الحروب الصليبية ، وما أطلقتها هذه الحروب في كيائها من هزات . وكان أمراً طبيعياً أن تقوم « الحركة » في أوروبا على غير أساس الدين ..
أمراً طبيعياً من جميع الوجوه ..

فالدين كما تصورته الكنيسة الأوروبية وصورته للناس ، كان — كما قلنا — يمثل الثبات المطلق في جميع الأمور . فالحركة إذن لا بد أن تصطدم به ، كما تصطدم كل حركة بالسكون . ولا بد أن تقوم على غير أساس منه ، لأنه لا يسمح بمفهوم الحركة ، ولا يمكنه من الوجود .

والكنيسة فوق ذلك كانت قد أصبحت غولاً بشعاً يطارد الناس في يقظتهم ومنامهم ، يفرض عليهم الخضوع المذل لرجال الدين ، ويفرض عليهم العشور

والضرائب ، وأعمال السخرة فيما تملك من الأرض ، والتجنيد في الجيوش التابعة لها التي تحارب بها الملوك . فكان رد الفعل الطبيعي هو « التحرر » .. التحرر من سلطان الكنيسة الطفياني ، وإقامة البناء الجديد — بناء النهضة — على مبعدة من ذلك السلطان .

فإذا أضيف إلى ذلك أن الكنيسة قد بدأت بالفعل بتعذيب العلماء وتحريرهم وقتلهم لأنهم يعلنون ما تصل إليه أبحاثهم العلمية المخالفة لأساطيرها المقدسة .. فقد كان الطبيعي إذن أن تقوم الحركة « العالمية » مناهضة لسلطان الكنيسة ، بعيدة عن مفهوم الدين .

وذلك كله فوق الروح الإغريقية الرومانية الوثنية العميقة الغور في النفس الأوربية ، والتي كانت تختفي تحت قشرة رقيقة من المسيحية في العصور الوسطى ، فما إن واتها الفرصة في حركة العداء للكنيسة حتى برزت من تحت السطح ، وعادت تحكم الحياة وتحكم الأفكار والنفوس !

* * *

ولا شك أن هذا كله كان بطيئاً جداً وتدرجياً جداً .. فالحركات — مهما اشتد أوارها — بطيئة الحدوث في النفوس ، بطيئة التغافل ، لأن عليها أن تقاوم رواسب كثيرة واعية وغير واعية ، وتصطدم بكثير من العقبات ..

والأفكار التي تبدأ في نفوس أفراد متحمسين ، يقتحمون المخاطر ويرتادون الطريق ، لا تتحول إلى أفكار « جماهيرية » على نطاق واسع ، إلا بعد أجيال من دورتها الخفية في النفوس .

ومن ثم فقد استغرقت « النهضة » قروناً عدة وهي تقاتل سلطان الكنيسة ، وتقيم الحياة — جزءاً جزءاً — بعيداً عن سلطان الدين . ولكنها كانت (٢ م — التطور)

« لادينية » منذ مولدها ، و « هيلينية » في وجهتها ، وفي استمداداتها وإحياءاتها ،
أى .. بعيدة عن روح الدين .

* * *

وقام الصراع .. الخفى والعلنى فى نفوس الناس بين مفهوم النهضة
ومفهوم الدين .

صراع مرير بطيء طويل الأمد .

فقد كانت ثمار النهضة مغرية ولا شك .. ثمارها الفكرية والعلمية والفنية ..
كانت — بالنسبة لأوروبا — نورا ينفذ فى الظلمات ، وتفتح عليه العيون مبهورة
بعد طول الظلام . وكانت حركة من الركود الآسن المتعفن . والحركة فى ذاتها
محببة ، لأنها تلبى الفطرة التى تكره السكون . كما أنها كانت تعتمد — فى أغوار
النفس الأوروبية — على الميراث الإغريقى الرومانى الذى لم تكن المسيحية قد
أطفأته إطفاء كاملا ، إنما كان مكمورا فقط تحت غشاء الدين ..

كل ذلك يسر للنهضة أن تمضى قدما فى نشر رسالتها فى المعرفة والحضارة ،
والعلوم والفنون ..

ولكن — من جانب آخر — كانت « العقيدة » عزيزة على الجماهير .
فند صاحبها ألف سنة أو تزيد . وأيا تكن درجة تعمقها ، وأيا يكن تغلغلها
الحقيقى فى الحياة ، وحكمها لسلوك الناس .. فقد كانت « موجودة » ومؤثرة فى
وجدان الجماهير . ولم يكن من السهل اقتلاعها ولا محوها من الوجود .

ومن ثم عاشت أوروبا فترة من الوقت غير قصيرة بشخصية مزدوجة : مسيحية
من ناحية ، وهيلينية من ناحية . مسيحية فى داخل الكنيسة ، وهيلينية فى واقع
الحياة . مسيحية فى الوجدان وهيلينية فى التفكير .

واستمر هذا « الطور » عدة قرون .

ولكن المعركة الخفية كانت تدور في داخل النفوس .. وتدور - رويدا رويدا - في صالح الهيكلية المنبعثة في عصر النهضة لا في صالح الدين .. وإن كان الدين - بعد - صاحب سلطان في نفوس الجماهير .

* * *

وجاء اليوم الذي وقع فيه الصدام الحاد المدمر العنيف .
وقع على يد دارون ..

فقد أصدر دارون كتابه في « أصل الأنواع » سنة ١٨٥٩ ، وفي سنة ١٨٧١ نشر كتابه في « أصل الإنسان » .

ورسّم خط واضح من خطوط التاريخ .

فمن قبل وقع الصدام بين الكنيسة وبين كوبرنيكوس^(١) وجاليليو^(٢) وجوردانو برونو^(٣) ، وعذبهم وأحرقهم ونكلت بهم أبشع تنكيل حين عارضوا فكرتها في أن الأرض مركز الفلك والإنسان مركز الكون .. وقد تكون الجماهير قد استبشعت عمليات النكال والتعذيب ، ولكنها رغم ذلك وقفت في صف الكنيسة تصفق لانتصارها على « الملحدين » .

ثم جاء دارون بالطامة الكبرى حين قال إن الإنسان أصله حيوان .. وكفرت به الكنيسة بلا شك ..

ووقفت الجماهير في بادئ الأمر في جانب الكنيسة . فقد عز عليها بطبيعة الحال أن يصمها دارون بالحيوانية ، وينزع عنها « قداسها » وتميزها ورفعها ، حين ينزع عنها كرامة الإنسان ويردها إلى أصل الحيوان .

ولكنها رويدا رويدا في المعركة الحادة التي قامت بين دارون وبين الكنيسة ، غيرت موقفها ! فقد وجدت أن هذه فرصة سانحة للإجهاز على ذلك القول البشع الذي يضطهد الناس بسلطان الدين .

(١) سنة ١٤٧٣ - ١٥٤٣ (٢) سنة ١٥٦٤ - ١٦٤٢ (٣) سنة ١٥٤٨ - ١٦٠٠

ونسيت الجماهير بعد فترة كرامتها «الإنسانية» المموزة ، وفرحت بالانطلاق والتحرر .. ولو في إهاب الحيوان ! وحمدت لدارون وقفته « الجريئة » في وجه الطغيان . وحمدت له أكثر من ذلك أنه أعطاها السلاح الجبار الذي تحطم به ما بقي من سلطان السكنيسة الجائر : سلاح « العلم » .. سلاح العرفان .

* * *

ولكن شيئاً كبيراً كان قد حدث في هذه الأثناء ..
فكرة « التطور » حلت محل فكرة « الثبات » ..
لقد كانت « الحركة » من قبل قد اصطدمت بالثبات فعلا ، وبدأت تزلزله من مكانه . ولكن الصراع كان خفيا ، وكان هينا لينا داخل النفوس . فقد عاشت الهيلينية والمسيحية معاً جنباً إلى جنب في ظل ازدواج الشخصية الذي عاشت به أوروبا طوال عصر النهضة وما بعده .. وكان من الممكن أن تستمر في هذا الازدواج فترة طويلة أخرى لولا هذه الأحداث ..

وكان دارون هو الناقوس الذي دق معلنا مجيء الأحداث .
لقد صارت الحركة المضادة للثبات الآن نظرية « علمية » ، ولم تعد مجرد وجدان خفي في داخل النفوس . نظرية اسمها « التطور » .. اسم جديد ، مفرٍّ جذاب !

واندفعت الجماهير وراء اللعبة الجديدة ..

العلماء أولا .. ومن ورائهم الجماهير ..

« هيبة » ! .. كل شيء يتطور ..

إذا كانت الحياة تتطور .. من الخلية الواحدة إلى الإنسان المعقد الشديد التعقيد ؛ وإذا كان الإنسان ذاته قد تطور من حيوان سابق إلى حيوان يشبه الإنسان ، إلى إنسان يشبه الحيوان .. إلى إنسان .. فإذا يمكن أن يكون ثابتاً على وجه الأرض على الإطلاق ؟ !

لقد كانت صدمة عنيفة لفكرة الثبات . .
 صدمة لم تطفئها في مبدأ الأمر أعصاب العلماء ولا أعصاب الجماهير . .
 ولكن هؤلاء وهؤلاء حين أفاقوا من الصدمة أخذوا يشبثون في فرحة
 وهفة باللعبة الجديدة ، وأخذوا ينطلقون بها في كل مكان .
 إنه ليست الأحياء وحدها هي التي تطورت أو تتطور .
 إنه كل شيء . . كل شيء في هذه الحياة . .
 حتى الأفكار والمجتمعات تتطور . . إنها ليست « ثابتة » كما كانت
 تبدو من قبل .

والدين . . ؟ ! يا للعجب ! إنه هو الآخر يتطور ! من كان يتصور ؟ !
 إن فكرة الله « تطور » في تفكير البشرية ! إنها ليست فكرة أزلية
 ثابتة كما كان يصورها الدين وتصورها الكنيسة . لقد تطورت من قبل ، ويمكن
 اليوم أن تتطور . كانت عبادة للوالد . وعبادة للطوطم . وعبادة لقوى الطبيعة
 المختلفة . وعبادة للأوثان . ثم صارت عبادة لله . ولكنها يمكن أن تتطور . .
 يمكن أن تكون عبادة لأي شيء آخر . . ماذا لو أصبحت عبادة « للطبيعة » ؟ !
 الطبيعة جميلة . . الطبيعة خلقة . . الطبيعة هي الأم التي ولدتنا . .
 أو « خلقتنا » .. فلنعبدها ! إننا كاسبون بذلك مكاسب عظيمة . سنحطم الكنيسة
 ذات السلطان الطاغى الذي لا يرحم ، وذات الجهالات والخرافات والأساطير .
 وسنعبد إلهنا « جميلا » . . وفوق ذلك فإنه إله بلا كنيسة ! بلا التزامات !
 بلا ضرائب ولا عسور . بلا رهبانية . . بلا تزم . إله يفتحنا الحرية لأننا
 سنعيش في ظله أحراراً من كل قيد . . طلقاء .. نفعل ما يحلو لنا ، لأنه لا يحاسبنا
 ولا يزر أفعالنا . سنولد من جديد . لن نولد — هذه المرة — في المسيح .
 ولكن سنولد في أحضان الطبيعة . . فأى فرحة لنا في هذا الدين الجديد ؟ !

* * *

ولكن موجة الاندفاع وراء التطور ، والابتعاد عن مفهوم الدين ، لم تكن قائمة على دارون وحده ، وإن كان دارون بطلها المغوار . .

لقد كان هناك حدث اقتصادى واجتماعى ضخيم يهز أركان الحياة هزاً ، ولا يقل مفعوله عن مفعول نظرية التطور . . ذلك هو الانقلاب الصناعى فى أوروبا . بدأ الانقلاب الصناعى بظهور الآلة . . وأحدث انقلاباً كاملاً فى الحياة الأوروبية لا يقف عند حدود العلاقات الاقتصادية أو الاجتماعية وإنما يتعداها إلى كل نواحي الحياة .

بدأت المدن الصناعية تنشأ ، وتجذب إليها الشباب من الرجال يعملون فى المصانع الجديدة ويسكنون فى المدينة على نسق جديد لا يعرفونه من قبل .

لقد كانت الحياة من قبل هادئة رتيبة بطيئة آسنة . . تمر بمناخها وملاعها على وتيرة واحدة فى القرية أو الإقطاعية . . الفلاحون يعملون فى الأرض أرقاء أو طلقاء ، وزوجاتهم فى المنازل يدبرن شئونها ويقزلن الغزل لبيعنه فى السوق . . والأسرة — فى صورتها تلك — مكيئة الروابط ، لا يفكر أحد أو يجروء على تفتيت روابطها . والناس متعارفون على مفهوم معين للدين والأخلاق والتقاليد ، يرعونه حق رعايته أو لا يرعونه ، ولكنهم لا يفكرون فى مناقضته حتى ولو خالفوا تعاليمه فى سلوكهم الواقعى . ولكل شىء من ذلك قداسة . قداسة استمدتها من طول الممارسة وثباتها ، فوق استمدادها من رهبة الدين . . والجريمة الخلقية يرتكبها نفر من الشبان الطائشين لأنهم طائشون . . وقد يتغاضى عنها « المجتمع » ولكنها فى نظره جريمة . والفتيات لا يرتكبن هذه الجريمة لأن سمعتهن تذهب إذن إلى الأبد — كذلك تقضى مفاهيم المجتمع . . فهناك الفضيحة وهناك العار . . وهناك أيضاً — فى هذه الحالة — رهبة الدين . فلا تقدم الفتيات عليها إلا فلتة غابرة فى القرية فى كل جيل .

ونجاة أخذت الأمور تتغير ..

فالمصانع الجديدة تجسّع حولها الشبان الأقوياء المفتولي العضلات .. الذين يقدرّون على الجهد العضلي العنيف ، فقد كانت الآلات في منشئها تحتاج إلى مثل هذا الجهد لإدارتها . وقد جاء هؤلاء الشبان إلى المدينة أفرادا بلا أسر ، يرتادون الطريق ويمارسون هذه التجربة الجديدة ، لا يجرؤون على إحضار أسرهم معهم قبل أن يستقر لهم المقام .

وهم شبان مغامرون .. انفلتوا من « القيد » الإقطاعي .. الذي كان يكبلهم بالأرض ، والمذلة للسيد ، فجاءوا يمارسون « الحرية » في المجتمع الجديد . وهو مجتمع لا يعرفهم .. لا يعرف ذواتهم . إنهم فيه أغمار مجهولون ، لا يفهمهم أحد ، ولا يتقيد سلوكهم بمعرفة الناس لهم ، واستحيائهم هم من الناس الذين يعرفونهم ، ويعرفون أسرهم ويعتبرونهم بالسلوك المنحرف .. ثم هم شباب قوى في فترة الفتوة الفارحة .. بلا أزواج . إذن .. فالطريق هو الجريمة الخلقية ، والظروف كلها تمهد الطريق . وجاء دور المرأة لتعمل ..

ساءت العلاقة بين العمال وأصحاب المصانع . يشغلونهم فوق ما يطيقون ويمطونهم أبخس الأجور . ويضرب العمال أو يهددون بالإضراب ، فيبحث « السادة » الجدد عن سلاح مضاد .. هو إيجاد « جيش احتياطي » من العمال الذين يقبلون العمل بنفس الأجر بل بأجر أقل ..

وجاءت المرأة التي هجرها عائلها ، أو التي لا تجد عائلا بعد نزوح ألوف الشبان إلى المدينة وترك ما يقابلهن من الفتيات بلا رجال .. جاءت فوقع في المصيدة المنصوبة . جاءت تبحث عن عمل لتعيش . ورضيت بهذا الأجر الدون تحت وطأة الظروف .

ورُسم خط جديد من خطوط التاريخ ..

المرأة تعمل « بالجملة » ..

وتأخذ أجرا في يدها تملكه لنفسها دون شريك أو رقيب .

وصحيح أنها تقول به نفسها أو أسرتها . ولكنها صارت « تملك » بعد .
أن لم تكن تملك و « تنصرف » في ملكها بعد أن لم تكن تنصرف . فقد
كانت تقايد المجتمع الأوربي وتشيعاته تمنح المرأة عن التعامل الحر في المال
والمالك ، وتمنعها من حرية التصرف المباشرة في أى شأن من الشؤون .

وأحست المرأة رغم وطأة الظروف كلها أنها « تتحرر » .

والتقى شاب متحرر بفتاة متحررة !

لم لا يلبيان معاً -- في حرية -- داعى الجنس المحبوس ؟

ولم يكن هذا دفعة واحدة بطبيعة الحال ، وما كان من الممكن أن يكون .
فهناك الرواسب الواعية والخفية العميقة المترسبة في النفس تزجرها عن الانطلاق .
ولكن رويدا رويدا تتم جميع الأمور .

* * *

ونشأ مع الرأسمالية الصاعدة جيل يمارس لونا من الحرية السياسية لم يكن
موجودا من قبل . برلمان وانتخابات وتمثيل شعبي ومهني ونقابي .. وخطب
 واجتماعات . وحرية في القول والعمل . . شئ لم يكن موجوداً في داخل
الإقطاع . شئ دافع إلى النشاط والحركة . دافع إلى الأمام . وفي الوقت ذاته
« متحرر » . . يطلب مزيدا من الحقوق مزيدا من الحرية . ويقابل صعبا
في الطريق ، من « السادة » أصحاب النفوذ ، الحريصين على التفرد بالسلطان ،
فيحفظه ذلك إلى مزيد من الصراع في سبيل الحرية . ويعدى التحرر النفس
من شعور إلى شعور . ومن فكرة إلى فكرة . فتطلب الحرية في جميع المجالات

ومن بينها التحرر من قيود الأخلاق كما رسمها المجتمع الزراعى فى ظل الإقطاع
وثبتتها إطار الدين . . .

* * *

وتنفكك روابط الأسرة . .

الرجل يعمل والمرأة تعمل والأطفال يعملون . .

ولا يعود البيت فى حسمهم جميعاً هو ذلك الرباط المقدس الذى يربط بعضهم
ببعض ، والذى يلتزمون نحوه بأداب ومشاعر ونقايد و « طقوس » .. كانت
تنشأ فى المجتمع الريفى من وجود « امرأة » مستقرة تفظم هذه المشاعر وتمسكها
بيدها . . أو بقلبها . . فلا تفلت منها . كما تنشأ من سيطرة الزوج على الموقف
كله داخل الأسرة ، وصدور « التشريعات » فى داخل المنزل منه وحده ،
فيوجد رباطان متقابلان يربطان كل أفراد البيت : رباط عاطفى تملك قياده
الأم ، ورباط عملى يملك قياده الأب ، والأطفال بين هذا الرباط وذاك يروحن
ويحيثون فى « حصن » الأسرة لا يتعدونه .

كل ذلك تغير حين خرجت المرأة من مستقرها فانفلت الرباط العاطفى . .
فلا وجود له فى زحمة العمل والجهد الناصب الذى تبذله المرأة فيه . وتغير كذلك
حين « استقلت » المرأة اقتصاديا ، فصارت « سلطة » مع سلطة الأب . .
فانفلت الرباط العملى الذى كان يحكمه تفرد الأب . . ثم تغير مرة ثالثة حين
ذهب الأطفال يعملون ، فيصيرهم جو العمل مبكرا قبل أوانه ، ويفسد فيهم
مشاعر الطفولة ، ويستحث فيهم مشاعر النضوج فى كيان طفل ، فتختل مشاعرهم
وينفلقون من الرباط . . الرباط العاطفى والرباط العملى سواء .

* * *

ويحدث ذلك كله تغيرا ملحوظا فى صورة المجتمع .

كل العلاقات الممهودة تتغير .. أو .. « تتطور » !
العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والخلقية والفكرية .. لاشئ
على حانه ، بعد أن ظل على حاله مئآت السنين .
الصورة الثابتة ، التي كان الفرد مجرد لبننة فيها ، يذهب فيجي غير يخلقه
و نفس مكانه .. لم يعد لها وجود .
لا الرجل ولا الطفل ولا المرأة .
لا البيت ولا الشارع .
لا العبد ولا السيد .
لا العمل ولا نوع الثروة .
كل شئ قد تتغير ..

وتغير بسرعة مذهشة لاعيد بها من قبل فقد كانت من قبل تمر السنوات
العشر أو العشرون أو الخمسون أو المائة لاتكاد تحدث تغيرا يذكر في الصورة .
بحيث يغري الأمر بالظن أن كل شئ « ثابت » ، لبطء الحركة وضآلتها .
واليوم صارت السنوات المائة ، بل الخمسون ، بل العشرون ، بل العشر . تحدث
تغيرا ملموسا واضحا في كل شئ :

رجل من حيث هو « رجل » لم يعد له السلطان المطلق في بيته كما كان .
وامرأة لم تعد تعتبر نفسها قعيدة بيته ، ولا ملزمة بالطاعة الكاملة لذلك
الرجل الذي كان .

وطفل مشرد نفسيا وإن كان يحمل بين أصابعه شيئاً من النقود .
وبيت لارباط فيه .

وشوارع مزدحم بالناس . أصناف مختلفة من الناس . رجال ونساء وأطفال ،
كرحة المواسم والأعياد في القرية ، ولكن في غير موسم أو عيد . وعلى نحو

آخر غير ازدحام القرية . فهنا ناس لا يعرف بعضهم بعضا ، ولا يحفل بعضهم شئون بعض ولا يلتزمون إزاء بعضهم البعض بتقاليد التعارف والارتباط .

وعبد « تحرر » من ربقة الأرض . ووقع في عبودية جديدة ، هي عبودية المصنع ورأس المال . ولكنه مع ذلك مستبشر : دخله زاد . وأصبح يصارع . يملك حق الصراع . ويطالب بحقوق . ويملك حق المطالبة بالحقوق . ويتكامل في تكتلات ذات فاعلية ووزن ، ويصبح بالتدريج قوة سياسية متزايدة . ثم هو يعيش مع غيره من العبيد في جو سمته [الظاهرية على الأقل] هي الحرية لالعبودية . وخصوصاً في الجانب الخلقى . ثم هو يشعر بفرديته المتميزة [في سلوكه الشخصى] حيث كان مقيدا في كل خطوة من قبل بالسلوك الجمعى الذى يربط إطار القرية كله ؛ بينما يشعر بجماعيته المتكاملة [فى النقابات والأحزاب والهيئات والجماعات] حيث كان يحس بالضيق من قبل كفرد لا مجموع له ، لأن المجموع الذى يمثله ليس له حساب . وباختصار قد انقلب كيانه كله ، بجميع جزئياته ، وأصبح صورة مقابلة تمام التقابل لكل ما كان !

وسيد مازال يشعر بالسيادة ولكن من نوع آخر . فهى سيادة صارت تعتمد على المال السائل بعد أن كانت تعتمد على الأرض . صارت مركزة فى حيز أصغر ولكنه أفعل . ومع ذلك فهى سيادة تحتاج إلى صراع مع العمال والنقابات من جهة ، والمنافسات الشديدة من جهة أخرى ، بصورة لم تكن موجودة من قبل فى الإقطاع المستقر الثابت الأركان .

وعمل من نوع جديد . لا يتعامل مع « المجهول » لا يتعامل مع « الغيب » كما كان يصنع وهو يبذر البذرة فى الأرض وينتظر النتائج من السماء ، وإنما يتعامل مع القوى المنظورة التى تتدخل فى « المادة » فتشكلها وتصوغها كما

يريد " الإنسان " . يتعامل مع « الطبيعة » لا « ما وراء الطبيعة » ! يتعامل مع المادة لا مع الله .

كل شيء صورة مختلفة تمام الاختلاف عما كان قبل ذلك « الانقلاب » .

ثم يتدخل « العلم » فيكمل صورة التغير ..

التقدم العلمى يقفز قفزاً هائلاً كل يوم ، ويغير شكل الحياة البشرية .

الآلة .. المركبة البخارية .. السيارة .. الكهرباء .. الصناعة الآلية في مكان الصناعة اليدوية .. كل شيء قد تغير عن ذي قبل . ثم .. هو دائم التغير لا شيء يثبت على حاله أكثر من بضع سنين ، قد تختصر إلى بضعة شهور .. ثم يتغير . بدخل عليه تحويل جديد .

وصورة الحياة تتغير تبعاً لكل تغير جديد يحدثه العلم .

فالسفر بالقطار شيء يختلف تماماً عن السفر على الحصان أو العرببة التي تجرها الخيول .

والنسيج الآلى شيء آخر غير النسيج اليدوى ..

والكهرباء غير الفحم ..

والشارع الذى تصب فيه المخترعات الجديدة كل يوم ، شيء آخر غير الشارع الثابت فى طوله وعرضه ومعروضاته .

والبيت الذى يستحدث أدواته يختلف عن البيت الذى ظل قروناً يستخدم نفس الأدوات ..

بل نظريات العلم ذاتها تتغير .. فى الطبيعة والكيمياء والطب والفلك والرياضة والأحياء .. نتيجة للكشوف العلمية الجديدة والآلات العلمية المستحدثة . وهل هناك ما هو أضخم من القول بأن الكائنات الحية تطورت من الكائن

الوحيد الخلية ؟ أو القول بأن الهواء مملوء بملايين من الأحياء الدقيقة التي لا ترى ولا تُحس ، وهي مع ذلك شديدة الخطورة ، تحدث الأوبئة والأمراض ؟ أو القول بأن الكواكب ليست سبعة فقط ، أو أن هناك ملايين من النجوم لا تراها العين وهي مع ذلك أكبر وأشد اشتعالاً وإضاءة من الشمس ؟ !
وينشأ من ذلك كله شعور عميق بالتغير .. أو التطور . أو عدم الثبات .

* * *

وتتجمع « حصيلة » هذا كله في اتجاه معين ، أو اتجاهين متصاحبين ..
التطور من ناحية .. ومن ناحية أخرى الاعتماد التدريجي عن الدين :
التطور لم يعد « نظرية علمية » كالتي نادى بها دارون في داخل المعمل ، وفي حدود العلم الذي بحث فيه : علم الأحياء .. وإنما صار « لوثة » أصابت العلماء كما أصابت الجماهير .
لوثة تصيب كل شيء ، وتتصور كل شيء من خلال فكرة التطور .. لا شيء ثابت على الإطلاق .

لا الدين . ولا الأخلاق . ولا التقاليد . ولا القيم . ولا الأفكار . ولا « الحقائق » . ولا المعلومات . ولا شكل الحياة . ولا شكل المجتمع . ولا كيان الفرد . ولا علاقات الفرد بالمجتمع . ولا علاقاته مع الدولة .. ولا مشاعر الرجل ولا مشاعر المرأة . ولا أهداف الحياة ..

بل ينبغي العمل على محاربة « الثبات » بكل وسيلة من وسائل الحرب .
كل شيء « ينبغي » أن يُطوّر بالقوة ، إذا لم يتطور من تلقاء نفسه . لا شيء ينبغي أن يكون ثابتاً على الإطلاق . فالثبات ضد ناموس الحياة . والناموس هو التطور . وكل شيء ثابتٍ فهو إذن مخالف للناموس !
ومن ثم أصبح التغير أو التطوير هدفاً في ذاته وليس وسيلة إلى غاية فحسب .

وأصبح الناس يكرهون أن يروا شيئاً ثابتاً على وضعه في كل الأرض !
فإذا كانت العقيدة في الله تمثل لونا من الثبات .. فلتتغير .. إما أن نغير
المعبود أو نغير العبادة ! فلنكف عن عبادة الله . ولنعبد الطبيعة . أو نعبد أنفسنا ..
المهم هو التغير ! ولنكف عن الطريقة التقليدية للعبادة . فلنتعبد بطريقة أخرى ،
ولتكن العريضة والانفلات .. المهم هو التغير !

وإذا كانت الأخلاق تمثل لونا من الثبات .. فلتتغير .. فلنستحدث أخلاقا
جديدة . ولو لجرد التغير ! فلتكن الاتهامية فضيلة ، والأنانية فضيلة ، وتقطع
الروابط العائلية فضيلة ..

وإذا كانت التقاليد تمثل لونا من الثبات .. فلتتغير .. فلتسبق المرأة الرجل .
وليتجرأ الصغار على الكبار . ولتتغير الملابس : ملابس الرجل وملابس المرأة .
ولتكثر « الموضات » ، فذلك أدعى للتغير السريع والتبديل .

ذلك من جانب لومة التطور ..

أما من الجانب الآخر فلم يعد للدين وزن حقيقي في هذه الأمور !
لقد جاءت الزلزلة الأولى للدين من أنه يمثل مفهوم الثبات في عصر يتمثل
كله بمفهوم التطور والتغير ، أو مفهوم الحركة على وجه العموم . الحركة التي
تصطدم بالسكون .

ولكن الأمر زاد اتساعاً في هذا الاتجاه .

إن كل علاقات المجتمع تقوم على غير أساس من الدين ..

ليست النهضة « الفكرية » فقط ، هي التي قامت على أساس لاديني
« secular » ، وإنما الواقع العملي كذلك الذي انبثق من النهضة الفكرية ..
فالنظام الرأسمالي الصاعد قام على أساس ربوي صريح . والدين يحرم الربا
ويمنع التعامل على أساسه . وعلى الرغم من احتجاج الكنيسة وصراخها ضد

نظام الربا ، فقد مضت الرأسمالية الطاغية في طريقها لاتصيخ سمها لصراخ الكنيسة ، مدفوعة بشهوة المال الجنونة التي لاتترى ولا تتأثم . . ولا تهمها قيود الأخلاق أو قواعد الدين .

والعلاقات الجنسية « الحرة » التي قامت بين الرجل والمرأة في ظل العمل المشترك ، والاختلاط في المجتمع ، والاشتراك في النوادي ، والسعى المشترك إلى « الترفيه » . . وفي ظل الاستقلال الاقتصادي للمرأة وظنها — من ثم — أنها لم تعد ملزمة بالحفاظ على عفتها ، لأنها تستطيع أن تعول نفسها إن رفض الرجل إعالتها بسبب أخلاقها . . وفي ظل صعوبات الحياة المتزايدة التي تشغل الشباب فترة من الوقت عن تكوين الأسرة والاستقرار الوجداني والجسدي في إطارها . . الخ . هذه العلاقات قامت كلها على أساس مخالف للدين . ورغم المواعظ التي ألقاها « رجال الدين » بالمئات والألوف ، فإن الصياغة الواقعية للمجتمع ظلت تسير في اتجاهها المنفلت من رباط الأخلاق . لأن الأخلاق كانت قد أصبحت مثلاً معلقاً في الفضاء لارصيد له من الواقع . ولأن الدين — وهو في عزلة عن المجتمع منذ مولده في أوروبا ، لا يحكم الحياة الواقعة ولا يشرع لها في كل شيء — لم يكن يملك أن يوجه سفينة المجتمع في خضمها الهائج المضطرب الذي صنمه الانقلاب . .

والعلم سار منذ البدء في طريق غير طريق الدين ، لأن الدين — كما تمثله الكنيسة يومئذ — لم يكن في طوقه أن يمد العلم بشيء ؛ لا بمذهب — كالْمذهب التجريبي الذي أمد به الإسلام التفكير العلمي — ولا بمعلومات صحيحة تفيده ، ولا بتشجيع من أي نوع . بل كان العكس هو الحاصل . فالكنيسة تشجع الجهل وتحارب العلم وتنكل بالعلماء .

ومنتجات العلم — بعضها على الأقل — تتجه نحو الكسب قبل أن تتجه

نحو الفائدة ، مدفوعة بشهوة رأس المال ، وذلك مخالف لروح الدين . ولكن الدين هناك ليست له قوة التوجيه ولا الخبرة بالتوجيه في ذلك المجال . .
ورويدا رويدا أحس الفرد العادى أن حياته تصوغها الأشياء « المتطورة » ولايصوغها الدين .

العالم يصوغ حياته المادية ويشكلها . .
والسياسة تصوغ علاقاته السياسية وتشكلها
والرأسمالية تصوغ حياته الاقتصادية
والانقلاب الصناعى ومعقباته تصوغ حياته الاجتماعية
والهيلية تصوغ حياته الفكرية . . .

وينعزل الدين انعزالا شديداً فى داخل الوجدان . . فكل يوم تنزع الحياة الواقعية جزءاً من مساحته ، وتزحزحه عن مكانه فى النفس ، فيسلك الفرد سلوكه الاجتماعى والفردى ، والعملى والعلمى ، والسياسى والاقتصادى دون أن يحس بمكان للدين فى هذا كله . . أو يحس بمكان لفكرة الله .
وإن لم يكن ينفر من الدين . . فهو على الأقل يهمله وهو متوجه إلى واقع الحياة . . .

* * *

ولكن الأمر لم يظل فى داخل هذه الحدود . . حدود « إهمال » الدين وعدم تحكيمه فى أمور الحياة . .

لقد مضى الأمر خطوة أبعد . خطوة « التخطيم » المتعمد لقواعد الدين .
وتلك كانت مهمة اليهودية العالمية !! وقد قامت بها بنجاح منقطع النظير .

* * *

لا ينسى اليهود قط حقدهم على « الأميين » أو « الأميين » كما يعبر القرآن

الكريم: « ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل . » ذلك أنهم هم شعب الله المختار ، وغيرهم من « كلاب » البشرية لاجزاء لهم سوى الإضعاف والإفناء والتدمير ..

وثأرهم مع المسيحية في أوروبا ثار قديم .. ثار الاضطهاد الفظيع الذي نالوه تحت الحكم الروماني المسيحي ، والإذلال الذي أصابهم في كل مجتمع مسيحي .
إذلال تمثله رواية « تاجر البندقية » لشكسبير ، كما تمثله رواية « الزبقة الحمراء »
Scarlet Pimpernel « تأليف البارونة أوركزي Orczy

كان المسيحي يحتاج إلى المال فيقتضيه من اليهودي ، ومع ذلك يأبى إلا أن يحقر مقرضه ، فلا يسلم عليه بيده ، ولا يلمسه ، إنما يوقفه بعيداً عنه كالمنبوذ ، ويقول له آمراً موبخاً : ضع المال بعيداً واغرب عن وجهي يا خنزير . فإذا ابتعد خطوات في ذلة ذليلة ، اقترب « السيد » المسيحي ليأخذ المال الذي اقترضه من اليهودي !
إذلال لا تنساه ذاكرة يهود ..

وقد فرحت اليهودية العالمية أيما فرحة بقيام النهضة الأوروبية الحديثة على أساس لاديني (secular) . فذلك نصف الطريق نحو تحطيم المسيحية ، خصمها القديم .. وقامت تنفتح في هذا الاتجاه من وراء الستار .
وكانت فرحتها أعظم وأشد يوم ظهر دارون - المسيحي - بنظريته في أصل الأنواع وأصل الإنسان ، فقد أحست بذكائها ، بما وراء ذلك الحدث الضخم من صدام عنيف مع الكنيسة .

يقول كتاب بروتوكولات حكماء صهيون في ذلك : « إن دارون ليس يهودياً ، ولكننا عرفنا كيف نشر آراءه على نطاق واسع ، ونستغلها في تحطيم الدين [المسيحي] »

وكان ذلك حقاً ..

بذل اليهود جهود الجبابة لتوسيع الهوة التي قامت بين الدين وبين الداروينية،
على أمل تحطيم الدين في النهاية ، تحقيقاً لحقدهم القديم ضد غير اليهود عامة ،
وحقدهم — في أوروبا — على المسيحيين بصفة خاصة ، من أجل مالاقوه منهم
من اضطهاد .

واستغلت اليهودية العالمية نظرية دارون أبشع استغلال ..

استغلته على يد ثلاثة من أكبر علمائها .. قاموا بصياغة الفكر الأوربي كله
في ميدان الاقتصاد وعلم النفس والاجتماع .. أخطر ميادين ثلاثة في عالم الفكر ..
على أساس معاد للدين ، بل محط لكل مفاهيمه .
أولئك هم : ماركس — وفرويد — ودُر كايم .

اليهود الثلاثة

ماركس - وفرويد - وذكرايم

من الحق أن نقول إن اليهود ليسوا هم الذين أنشأوا الفُرقة بين أوروبا وبين المسيحية . فقد قامت الفرقة بالفعل منذ قيام النهضة دون تدخل من اليهود [وإن كان ذلك قد جاء على هوام بلا شك] وقام الخصام والصراع على يدى دارون دون تدخل منهم كذلك [وإن كانوا قد فرحوا لذلك فرحاً شديداً كما تقول بروتوكولات حكماء صهيون] .

ولكن الدور الذى قاموا به مع ذلك كان شديد الخطورة ..

قامت الفرقة بين الدين والعلماء ، وبين الدين والمفكرين ، وبين الدين ودعاة الحرية ، وبين الدين والمرأة الراغبة فى اقتحام المجتمع و « الاستمتاع » بالحياة .. ولكن الابتعاد عن الدين ، أو النفور منه ، أو الاكتفاء بإهماله والانصراف عنه كان حتى ذلك الحين مزاجاً شخصياً لأصحابه ، يصنعونه لحسابهم الخاص كأفراد ..

وقامت الفرقة بين الناس وقواعد الأخلاق — فى ميدان الجنس بصفة خاصة — كمزاج شخصى كذلك ، أو « كضرورة » يتلمس الناس إليها الأعذار .. ولكن « العلماء » اليهود الثلاثة تدخلوا فى الأمر ليجمعوا من كل ذلك نظرية يسندها العلم ، ويعطيها سند « الحقيقة العلمية » فى أنظار الجماهير ! فلا يعود الأمر بعد مزاجاً شخصياً يحتاج الإنسان إلى الاعتذار عنه ، وتلمس المبررات له ، وإنما يعود واجباً يقتضيه التقدم العلمى ، لا يحتاج إلى مبرر آخر ، فهو يبرر نفسه بنفسه .. ولا يُعتذر عنه فهو فى غير حاجة إلى اعتذار .. بل الذى يحتاج إلى التبرير والاعتذار هو التمسك بالدين والأخلاق والتقاليد .. فهى تهمة ينبغى التبرؤ منها أو تقديم المبرر المعقول !

وذلك هو الدور الخطير الذى قام به ماركس وفرويد ودركايم .. كل فى اختصاصه .. وأثر تأثيراً بالغاً فى الفكر الغربى كله فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ..

لأنهم لم يقولوا إن المفهوم الكنسى للدين هو المنحرف ، وهو الذى يحتاج إلى تقويم .. وإنما قالوا إن الدين ذاته هو الانحراف الذى يحتاج إلى تقويم ! ولم يقولوا إن المفهوم السائد للأخلاق هو المنحرف ، المحتاج إلى تعديل .. وإنما قالوا إن الأخلاق ذاتها ليست قيمة حقيقية من قيم الحياة ! ثم قالوا هذه القولة وتلك لا كاعتقاد شخصى يراه المؤلف ، ويدعو إليه كمذهب فردى ! وإنما كدراسات علمية ونظريات علمية وحقائق علمية .. تابس مسوح البحث والدراسة والتحقيق !

ومن هنا كانت الفتنة التى تعرض لها المجتمع الغربى كأعنف ماتكون الفتنة ..
والتي يعيش فى نتائجها منذ ذلك الحين !

* * *

لقد كانت العوامل كلها موجودة بالفعل لتؤدى لذلك الانحراف الخطير .. وكانت — فى ذاتها — عوامل عنيفة ، اجتماعية واقتصادية وفكرية .. متمثلة فى نظرية دارون من ناحية ، والانتقال الصناعى من ناحية أخرى .. ومع ذلك فلم يكن من الحتم أن تصل هذه العوامل إلى تحطيم الدين وتحطيم الأخلاق . لقد ابتعد الناس عن الدين مرات كثيرة فى حياة البشرية لأسباب اجتماعية واقتصادية وفكرية . وانحرفوا مرات كثيرة عن الأخلاق وانغمسوا فى الشهوات .. وكانوا فى كل مرة يعودون .

ولكنهم فى هذه المرة أبعدوا فى الضلال جداً ، وكأنما قرروا بينهم وبين أنفسهم ألا يعودوا بعد ذلك أبداً مهما فعل الفاعلون !

ذلك أنهم — فى كل مرة سابقة — كانوا ينحرفون كمزاج شخصى، لا يجد
سندا فى النهاية حين يشتد ويعم المجتمع كله أكثر من سند « الأمر الواقع » .
ولكنه انحراف . وانحراف مردول .

أما فى هذه المرة فقد قدم لهم « العلماء » السند العلمى للضلال المنحرف ،
فزين لهم فرأوا أنه الحق ، وأنه الصواب ، وأنه الأمر الذى ينبغى اتباعه، لا تمشياً
مع الأمر الواقع ، وإنما سعياً إلى الأفضل والأقوم والأصح !

قدموا لهم الفرملة التى تمنع العودة ، وتسمح فقط بالمضى المجنون فى
طريق الشيطان .

* * *

أخذ اليهود الثلاثة نواحى مختلفة من الفكر . فكتب ماركس فى الاقتصاد
وفرويد فى علم النفس ، ودركايم فى علم الاجتماع . . . ولكنهم فى النهاية
يلتقون فى عدة أمور .

لقد أخذوا كلهم ، بادية ذى بدء ، من النظرية الداروينية فكرة حيوانية
الإنسان وماديته ، فدوها ووسعوا نطاقها ، وعمموا إحياءاتها المسمومة فى كل اتجاه .

وليس هنا المجال — ولا هو من ههنا فى أى بحث — أن أناقش نظرية
دارون .. وإنما أنا دائماً أناقش إحياءاتها ، وليست هذه الإحياءات نظرية علمية !
ثم إنى أكتفى فى مناقشتها دائماً بإيراد رأى الداروينية الحديثة Neo Darwinism
التي تؤمن بالتطور كدارون ، ولكنها مع ذلك لا تؤمن بحيوانية الإنسان
ولا ماديته الكاملة ، إنما تؤمن بتفرد الإنسان ، تفردة بيولوجيا وسيكولوجيا ،
وتفردة كذلك فى طريقة تطوره ، فهو يتطور على قاعدته الإنسانية الخاصة ،
لا على قاعدة الحيوان .

وسنورد هذه المناقشة في مكان آخر ، حين نحتاج إلى مناقشة الآراء . . .
ولإنما نحن هنا نثبت وقائع التاريخ .

كانت نظرية دارون ذات إيحاء قوى بحيوانية الإنسان لاشك فيه . يقول جوليان هكسلي في كتابه « الإنسان في العالم الحديث » Man in the Modern World — وهو من علماء الداروينية الحديثة — : « وبعد نظرية دارون لم يعد الإنسان يستطيع تجنب اعتبار نفسه حيواناً » ^(١) .

وهذا الإيحاء هو الذي مده العلماء الثلاثة ووسعوه على أوسع نطاق . . .
وهنا يخطر — من أجل الحقيقة التاريخية — سؤال : هل كان في الإمكان حبس نظرية دارون في العمل الذي نشأت فيه ، وحجزها عن التأثير في المجتمع الغربي والفكر البشري كله ؟

ربما كان هذا مستحيلاً في نظرية من هذا النوع ، وفي ظروف كالتى ولدت فيها تلك النظرية الخطيرة . .

ومع ذلك فلم يكن حتماً أن تتجه هذا الاتجاه في التأثير ، لو تلقفتها أيدي أخرى ، مخلصه للحقيقة ، مؤمنة بالله ، أو في القليل مقدرة « للإنسان » والخير الإنساني .
إن الفكر الغربي الذي كان يعيش في ظل فكرة الثبات المطلق ، قد فوجئ مفاجأة عنيفة بفكرة التطور ، فأفقدته الهزة صوابه ، وصار عرضه للانحراف . . . ولكن لم يكن حتماً أن ينحرف . . . كان يمكن أن يترد إلى الصواب حين يجد الهداة الذين يردونه إلى الصواب .

ولقد عرف المسلمون التطور معرفة وثيقة ، وصاحبوه مصاحبة عميقة في تاريخهم الحى كله ، فلم ينحرفوا به عن سواء السبيل .

(١) ترجمة حسن خطاب ومراجعة عبد الحليم منتصر .

عرفوه في فقههم ، حين قال عمر بن عبد العزيز : « يجدد للناس من الأقضية (أى الأحكام) بقدر ما يجد لهم من القضايا » . وحين أخذ الفقهاء هذا الاتجاه فتمسوا الفقه بالاجتهاد حتى شملوا به كل ما جد في حياة الناس من أحداث ووقائع واتجاهات .

وعرفوه في علمهم : يقول « دريبر » الأمريكي في كتابه « النزاع بين العلم والدين » : « وإننا لندهش حين نرى في مؤلفاتهم من الآراء العلمية ما كنا نظنه من نتائج العلم في هذا العصر . ومن ذلك أن مذهب النشوء والارتقاء للكائنات العضوية الذي يعتبر مذهباً حديثاً ، كان يدرس في مدارسهم . وقد كانوا ذهبوا منه إلى مدى أبعد مما وصلنا إليه ، وذلك بتطبيقه على الجامدات والمعادن أيضاً » (١) .

وظلوا مع ذلك مؤمنين بإنسانية الإنسان ، ومؤمنين بالأخلاق . ذلك أنهم كانوا يؤمنون بالله .

أما اليهود الثلاثة فلم يأخذوا على عاتقهم رد أوربا إلى صوابها بعد هزلة التطور ، وإنما أخذوا على عاتقهم أن ينفخوا في انحرافاتهما بقوة وغنف ، وإصرار وتمسكن ، حتى تزيد الهوة اتساعاً وتشتد سرعة الانزلاق .

كانت نظرية دارون قد أعطت إيماءين متصاحبين : الإيماء بالتطور الدائم

(١) عن كتاب « الإسلام دين علم خالد » للأستاذ محمد فريد وجدي ص ٢٣٣ من الطبعة الثانية . وينبغي الاحتراس هنا من مثل هذا القول وإن كان يقال في معرض إنصاف الإسلام والفكر الإسلامي . فالذي اهتدى إليه المسلمون في تفكيرهم شئ آخر غير مذهب النشوء والارتقاء كما قرره دارون وولاس . لقد لاحظوا التدرج في مراتب الخلوقات من الجوامد إلى الإنسان . ولكنهم لم يقولوا — كما قال دارون — لأن الإنسان من أصل حيواني ، ولم يخسوه قدره ولا نفوا عنه مزاياه التي تفرد بها ، وردوا تميزه — ابتداءً — إلى إرادة الله الصريحة من خلقه هكذا متميزاً متفرداً ليصبح خليفة الله في الأرض . ومن ثم عرفوا فكرة التطور ولكنها لم تتحول في تفكيرهم إلى لومة مدمرة كما حدث في الفكر الغربي .

الذى يلقى فكرة الثبات ، والإيحاء بحيوانية الإنسان وماديته ، بإرجاعه إلى الأصل الحيوانى من ناحية ، وحصر القوى التى تؤثر فيه من ناحية أخرى بالقوى المادية الممثلة فى « البيئة » أو على الأكثر فى « الطبيعة » ، وإغفال الجانب الروحى إغفالاً تاماً ، وإغفال تدخل الله فى عملية الخلق أو عملية التطور سواء (١) .
ومن هذين الإيحاءين — أحدهما أو كليهما ، ومتصلين أو منفصلين — أخذ العلماء الثلاثة : ماركس وفرويد ودراكيم .

فأما ماركس فقد كان ميدان بحثه علم الاقتصاد ، ولكنه لم يقصر بحثه على دراسات أكاديمية فى علم الاقتصاد ، وإنما وضع مذهباً كاملاً ، يتناول تصوراً كاملاً للحياة من زاوية معينة ، يتمثل فيها الإيحاءان الداووينيان متصلين متصاحبين .

فهو قد وطد أركان التفسير المادى للتاريخ ، وهو تفسير يجعل للقوى المادية السلطان الأكبر على نشاط الإنسان كله ، كما يجعل هذا النشاط مادياً بصفة أساسية ، ومنبعثاً عن الكيان الحيوانى للإنسان .

القوى المادية — والاقتصادية — هى العنصر الفعال فى تاريخ البشرية :

« فى الإنتاج الاجتماعى الذى يزاوله الناس تراهم يقيمون علاقات محدودة لا غنى لهم عنها ، وهى مستقلة عن إرادتهم .. فأسلوب الإنتاج فى الحياة المادية هو الذى يحدد صورة العمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية فى الحياة ، ليس شعور الناس هو الذى يعين وجودهم ، بل إن وجودهم هو الذى يعين مشاعرهم [كارل ماركس] .

« تبدأ النظرية المادية من المبدأ الآتى : وهو أن الإنتاج وما يصاحبه من

(١) قال دارون : « إن تفسير النشوء والارتقاء بتدخل الله ، هو بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة فى وضع ميكانيكى بحت » .

تبادل المنتجات هو الأساس الذى يقوم عليه كل نظام اجتماعى . فحسب هذه النظرية نجد أن الأسباب النهائية لكافة التغيرات أو التحولات الأساسية لا يجوز البحث عنها فى عقول الناس ، أو فى سمعهم وراء الحق والعدل الأزليين ، وإنما فى التغيرات التى تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل » [فردريك إنجلز] .

كلام صريح لا يدارى هدفه الصريح !

فأسلوب الإنتاج فى الحياة المادية ، وأسلوب الإنتاج والتبادل — وليس الحق والعدل الأزليان — هو الذى يحدد صورة العمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية فى الحياة ، وإليه ترجع الأسباب النهائية لكافة التغيرات أو التحولات الأساسية ..

وتاريخ البشرية كله هو هذا التاريخ المادى .. اختراع آلة جديدة أو تغير أساليب الإنتاج هو الذى يصنع التاريخ . و « الأطوار » التى مرت فيها البشرية من أول الشيوعية الأولى ، إلى الرق ، إلى الإقطاع ، إلى الرأسمالية ، إلى الشيوعية الثانية [والأخيرة !] ترجع كلها إلى اختراع الآلات وتغير أساليب الإنتاج . والعمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية ليست قىما قائمة بذاتها ، أصيلة فى الكيان البشرى .

إنما هى انعكاس لأسلوب الإنتاج فى الحياة المادية .. أى نتيجة للكيان المادى .. فى الحياة والإنسان .

والحق والعدل الأزليان ليسا قيمة حقيقية من قيم الإنسانية ..

إنما القيمة الحقيقية هى التغيرات التى تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل .. وحين نرسم دستوراً للحياة البشرية ، فهو محصور فى نطاق « المطالب الرئيسية للإنسان » المأكل والمسكن والإشباع الجنسي [الميفستو أو الإعلان الشيوعى] .

أما الدين والأخلاق والتقاليد فهي السخرية العظمى في نظر ماركس . .
الرسالات السماوية بادية ذى بدء وهم من أكبر أوهام البشرية . .
« حقيقة العالم تنحصر في ماديته » (١) وفي ظل التفسير المادى للتاريخ لا يوجد
الله . ولا الوحي . ولا الرسالات .

والدين ثانياً — أفيون الشعوب — شيء ابتدعه الإقطاعيون لتخدير العبيد
والطبقة السكادحة عن المطالبة بحقوقهم المسلوقة ، وإغرائهم بالصبر على سوء
أحوالهم والرضى بها طمعاً في الجنة في الآخرة ، مما ييسر لهؤلاء الإقطاعيين أن
يستمتعوا بالثروات المغتصبة وهم آمنون .

والقيم ثالثاً — ومن بينها القيم الخلقية — إنما هي مجرد انعكاس للوضع الاقتصادى،
ومن ثم ليس لها وجود أصيل في الحياة البشرية ، فضلاً عن كونها غير ثابتة .
فهي متطورة بحسب الطور الاقتصادى الذى تمر به البشرية . ولما كانت الأطوار
الاقتصادية للبشرية حتمية ومتعاقبة ، فالقيم الخلقية تأخذ أوضاعاً محددة ومتطورة . .
وهي حتمية التطور مع تطور أوضاع البشرية .

وإلى هنا يتضح المقصود من النظرية في أوضح صورة وأصرحها . .
أولاً . . لا دين .

فالدين أسطورة ابتدعها أصحاب المصالح هنا في الأرض ولعلاقة له
بالسما ، ولا رصيده من الحقيقة .
وثانياً . . لا قيم ولا أخلاق .

فالقيم ليس لها وجود ذاتى ، إنما هي انعكاس للأوضاع الاقتصادية . وليس
لها ثبات لأن مصدرها — وهو الأوضاع الاقتصادية — دائم التغير . ثم هي

(١) كارل ماركس في كتاب « Anti - Dhring »

حتمية التطور فلا يمكن الإمساك بها على وضع معين مهما حاول المحاولون من المفكرين أو رجال الدين .

.. ولم يقل دارون كل ذلك ولا شيئاً من ذلك !

ولا كان من همه أن يقول !

ولكن العالم اليهودي الذي أخذ لإحياء نظريته المسموم ، قدمه مدّة واسعة فشملت الحياة كلها ، تحت ستار البحث « العلمى » فى علم الاقتصاد . وانتشر الإحياء المسموم — على يد ماركس — فدخل كل الحياة الغربية على الاتساع .

حقيقة إن روسيا وحدها — فى مبدأ الأمر — هى التى اعتنقت المذهب الشيوعى كاملاً وأعطته قوة التطبيق . وروسيا وحدها — فى مبدأ الأمر — هى التى قاومت الدين مقاومة « رسمية » على نطاق واسع ، واضطهدته كل أنواع الاضطهاد ، من أول القتل والاعتقال والمصادرة والنفى ، إلى تدريس الإلحاد رسمياً فى المدارس والجامعات . .

ولكن الغرب كله — الذى لم يصبح شيوعياً من حيث المذهب — قد أخذ مع ذلك بالتفسير المادى للتاريخ .

أخذ به فى إعطاء الجانب الاقتصادى الاهتمام الأكبر ، والميل إلى تفسير الحياة الإنسانية كلها من خلال التفسير الاقتصادى والمادى ، وإغفال « القيم » وأثرها فى الحياة ، وفى توجيه سلوك الناس . .

وأخذ به فى اعتبار القيم الأخلاقية « متطورة » لاثبات لها ، ولا سبيل إلى ثباتها . . ومتطورة على أساس التطور الاقتصادى بصفة خاصة .

وأخذ به فى اعتبار الدين آخر ما يمكن أن يؤثر فى الحياة !

وصارت الحياة الغربية القائمة فى ظل النظام الرأسمالى — المضاد للنظام

الشيوعى — لا تفترق كثيراً فى الأساس الفكرى والحضارى و « الإنسانى »
عن مثيلتها فى العالم الشيوعى .

صحيح أن الدين فى الغرب لم يصادر . .

وصحيح أن الأفراد هناك « متدينون » بمعنى الذهاب للكنيسة يوم الأحد ،
ورسم علامة الصليب فى الصلاة ، والإيمان بأن هناك رباً خلق الحياة والإنسان ،
ويقدر على كثير من الأمور (١) .

ولكن هذا « الدين » لا يكيف شيئاً من حياة الناس الواقعية ولا مشاعرهم . .
فالتنظيم الاقتصادى والاجتماعى والسياسى والفكرى قائم على أساس أن الحياة
المادية هى الأصل . وهى الحقيقة بالعناية . وهى المسعى الذى يستغرق نشاط
الإنسان . وهى « حقيقة » الحياة .

نم إنه لا وجود — فى واقع المجتمع — للأخلاق المستمدة من مفهوم الدين .
فالنشاط الجفسى « الحر » للأولاد والبنات والرجال والنساء لاصلة له البتة بمفهوم
الدين . والصراع المتكالب على الحياة لاصلة له البتة بمفهوم الدين . والمتاع الحسى
الزائد عن الحد لاصلة له البتة بالمفهوم المسيحى على وجه الخصوص .

والإيمان السارى عند الجماهير كلها فى الغرب — أوروبا وأمريكا سواء —
هو أن مقاييس الأخلاق قد تغيرت . وأن « تطورها » كان حتمياً فى ظل
المجتمع الصناعى . وأنه لا مجال مطلقاً للمقاييس القديمة للأخلاق [التى كانت
مستمدة من الدين] لأن المرأة قد تحررت [اقتصادياً] ولأن النظرة [الزراعية]
للعفة لم يعد لها مجال . .

أى . . أنه التفسير المادى للتاريخ هو الذى يحكم الحياة فى الغرب . ويحكمها
فى ذات النقطة أو النقطتين اللتين أراد ماركس تخطيطهما — تحت ستار البحث
العلمى فى علم الاقتصاد — وهما الدين والأخلاق .

ومعناه مرة أخرى أن الإيحاء المسموم للداروينية قد وُصل على يد العالم اليهودي الأكبر إلى مناطق من الحياة البشرية لم يكن حتماً أن يصل إليها ، فحُطِّمَ به في واقع الحياة الدين والأخلاق والتقاليد في صورة علمية منظمّة لا تقوم على مذهب شخصي [في ظاهر الأمر] ، وإنما تقوم على أساس البحث «العلمي» والدراسة والتحقيق . ومن ثم يجد فيها المنحرفون الضالون سنداً يسند ضلالهم وانحرافهم ، ولا يحوجهم إلى الاعتذار عن إهمال الدين وتحطيم الأخلاق والتقاليد ، بل يجعلهم يسمعون إليه سعياً ليكونوا مواكبين لموكب العلم ، مستمسكين بوحى المعرفة الصحيح !

* * *

أما فرويد فلم يأخذ من دارون جانب التطور ، وإنما أخذ عنه حيوانية الإنسان . إنه — ككل باحث نفسي — يرسم صورة ثابتة لكيان الإنسان ، وإن كان في كتابه Totem & Taboo [وربما كان في هذا الكتاب وحده] يأخذ جانب التطور أيضاً ، وهو يتحدث — إلى جانب سيكولوجية الفرد — عن سيكولوجية الجماعات ، وعن تطور الدين وتطور المحرمات .. ولكنه يرسم هذه الصورة من جانب الحيوان لا من جانب «الإنسان» .

ولئن كان ماركس قد تحدث عن الدين والأخلاق ، وسخاقتهما وبعدهما عن أن يكونا قيا أصيلة ، في ظل البحث «العلمي» في الاقتصاد ، فإن فرويد قد تحدث عن الموضوع ذاته والاتجاه ذاته في ظل البحث «العلمي» في علم النفس .

إن ميدان بحثه هو النفس الإنسانية .. هو المشاعر والانفعالات .. هو العالم «الداخلي» في مواجهة العالم «الخارجي» الذي تحدث عنه ماركس . النفس في نظره هي الميدان الأصيل للحياة ؛ عن تركيبها الذاتي تنبثق الأفعال والأفكار والمشاعر ، وتتحول إلى وقائع عملية في واقع الحياة .. أي أنه

— من جهة البحث — يأخذ بالضبط الجانب المقابل لماركس ، ومع ذلك
— ومن عجب — يصل معه إلى النتيجة ذاتها في موضوع الدين والأخلاق ،
ويتخذ في بحثه نفس التفسير الحيواني للحياة الإنسانية وللإنسان !

مصادفة ..!!

ولكن الحق أن الصورة التي يرسمها فرويد للنفس الإنسانية — وإن التقت
مع ماركس في النهاية عند نقطة تسخيف الدين والأخلاق ، واعتبارهما قوماً غير
أصيلة في الحياة البشرية ، وإنما انعكاساً لشيء آخر ، مادي في أصله وحيواني —
فإن فرويد كان أفحش وأخطر في تلويثه لتلك النفس ، والانحطاط بها إلى
الحضيض .

إن الحياة النفسية للإنسانية ليست حيوانية فحسب ، ولكنها — كلها —
تنبع من جانب واحد من جوانب الحيوان ، هو الجنس المسيطر على كل
أفعال الإنسان .

إن حياة الإنسان بادية ذي بدء حياة حيوانية بمحنة . « فغرائزه » هي
التي تحكمه . هي التي تسيطر على كل نشاطه . والجانب المسمى « الروح » لا وجود
له على الإطلاق [وإلى هنا يلتقي مع ماركس التقاء كاملاً في تصور النفس
الإنسانية] . أما الجانب الذي اسمه « العقل » فهو موجود بكل تأكيد . وهو
« طبقة » من طبقات النفس . هو الوعي . وهو الضابط لتصرفات الإنسان .
وهو الذي يواجه الحياة الواقعية ، ويقرر موقف الإنسان إزاءها . ولكن أي
نتيجة يا ترى لوجود العقل — أو الذات الواعية Ego — في كيان الإنسان ؟
النتيجة : « أن موقع الذات بين الطاقة الشهوانية [التي هي الحقيقة الباطنية للنفس
في نظر فرويد] وبين الحقيقة الخارجية ، كثيراً ما يغريها بأن تكون منافقة
مخادعة نهارة للفرص ، كالسياسي الذي يرى الحقائق ، ولكنه يجب أن يحافظ

على مكانة بين الجماهير! (١) ومن ثم « فالقيم » في كلمة واحدة هي خرافة و « ضحك على الذقون » ! عملة زائفة يتبادلها الناس وهم في حقيقتهم عالمون بأنها خداع ! [وهنا يلتقي — من بعيد — بفكرة ماركس عن القيم ، وإن كانت الأسانيد مختلفة في الحالين] .

ولكن فرويد بعد ذلك « يتخصص » فيأتي بالأعاجيب :

إن حقيقة الإنسان الباطنية العميقة [id] ليست هي الطاقة الشهوانية فحسب . وإنما هي على وجه التحديد الطاقة الجنسية . الجنسية بالذات دون أى طاقة أخرى من طاقات الإنسان [أو الحيوان] .

وليس هنا مجال مناقشة فرويد ، فقد ناقشته كثيراً وطويلاً في كل الكتب السابقة . (٢) ولكننا نلاحظ فقط شيئاً بارزاً في نظريته النفسية .. فقد كان الجنس — في أوربا المسيحية المتزمتة [رغم بدء الانحلال الخلقى فيها] — طاقة مستقدرة ، ينفر الناس من الحديث عنها وكشفها للنور . فيجئ فرويد ، فيصر إصراراً محموماً على أن يفسر النفس كلها ، بجميع ألوان نشاطها ، من خلال هذه الطاقة المستقدرة بالذات ! ويصر — أكثر من ذلك [وهذا هو المهم] — على أن يفسر الدين والأخلاق بصفة خاصة بأنها انبثاق جنسى .. وجنسى على وجه التحديد !!

مصادفة .. !!

الحياة كلها جنس ، ومنبثقة من خلال الجنس ..

والجنس يبدأ مبكراً جداً .. لا في مرحلة البلوغ أو المراهقة كما يحسب الجهلاء من الناس .. وإنما .. من لحظة الميلاد . بل يولد الإنسان جنساً خالصاً مركزاً في إهاب طفل حيوانى صغير !!

(١) كتاب « The Ego and the Id » ص ٨٣ من الطبعة الثالثة سنة ١٩٤٢ .

(٢) بصفة خاصة فصل « فرويد » من كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » .

كل أعمال الطفل تعبير عن طاقة الجنس .

الرضاعة جنس . ومص الإبهام جنس . وتحريك العضلات جنس . والتبول والتبرز جنس . والاتصاق بالأم جنس .. وهذا الأخير بصفة خاصة هو الذى يشكل الحياة النفسية للبشرية كلها أفراداً وجماعات !

فالطفل يعشق أمه بدافع الجنس . ثم يجد الأب حائلاً بينها وبينه فيكبت هذا العشق . فتنشأ فى نفسه عقدة أوديب . [والطفلة تعشق أباهها بدافع الجنس كذلك ثم تكبت العشق فتنشأ فى نفسها عقدة إليكترا] . ومن هذه العقدة اللامينة ينشأ الضمير والدين والأخلاق والتقاليد ، وكل « القيم العليا » فى حياة البشرية !! والأمركله مستمد من تلك الحادثة التى « رآها ! » فرويد فى منشأ تاريخ البشرية !

ذلك أن الأبناء — فى مطلع البشرية — اتجهوا نحو أمهم بدافع الجنس ، ثم وجدوا أباهم عائقاً فى الطريق فقتلوه . ثم أحسوا بالندم على قتل أبيهم فأقسموا ليقدرسن ذكراه . فعبدوه . ومن ذلك نشأت عبادة الأب . ثم تحولت إلى عبادة الطوطم لأنه فى النفس البشرية هكذا يرتبط الأب برمز الحيوان ! [لماذا ؟] . وفى الوقت ذاته وجد الأبناء أنهم سيتقاتلون بينهم للحصول على الأم . وهذا أمر لا يجوز ! [لماذا ؟] فقرروا تحريمها على أنفسهم ، فنشأ بذلك أول تحريم [جنسى] وانصب على الأم . كما قرروا التعاون فيما بينهم بدل الخصام والعراك [لماذا ؟] فنشأت « القيم » .

وهذه القصة التى « رآها ! » فرويد تحدث فى البشرية الأولى ، ليست حادثة تاريخية مفردة ، فقد تركت طابعها فى الحياة البشرية كلها منذ ذلك الحين .

فكل طفل يعشق أمه بدافع الجنس : وكل طفل يكبت ذلك العشق . ثم ينمو الدين والأخلاق والتقاليد .. والقيم العليا والحضارة ، من ذلك الكبت الجنسي لعشق الأم . ومع ذلك فالكبت لم ينته . وإنما هو يتحول إلى قلق نفسى دائم لا يترك الناس فى راحة [« وكل الديانات التى جاءت بعد ذلك هى محاولات لحل المشكلة ذاتها (إحساس الأبناء بالجريمة) وهى تختلف بحسب مستوى الحضارة التى ظهرت فيها ، والوسائل التى تطبقها ، ولكنها جميعاً تهدف إلى شىء واحد ، وهى رد فعل لنفس الحدث العظيم (قتل الأب) الذى نشأت عنه الحضارة ، والذى لم يدع للإنسانية منذ حدوثه لحظة واحدة للراحة » ! فرويد - كتاب Totem and Taboo ص ١٤٥]

وإضح أن هذا التفسير للإنسان تفسير حيوانى بحث ..

فالقصة كلها التى « رآها ! » فرويد ، مستمدة من ملاحظات دارون فى عالم الحيوان . فقد لاحظ أنه فى عالم البقر تتجه الثيران الفتية للحصول على البقرة الأم ، فتجد أباه عائقاً فى الطريق ، فتتجه كلها نحوه لتقتله . فإذا فرغت من ذلك عادت فاضطرت فيما بينها حتى يتغلب أحدها - وهو أقواها - فيفوز وحده بالأم ويصبح هو السيد الجديد .

وإضح كذلك مدى تلويث فكرة الدين والأخلاق والتقاليد ، وتقديرها فى نفوس الناس ، بغمسها فى مستنقع الجنس المستقذر فى أوروبا المسيحية ، وإخراجها منه يتقاطر منها نقيع الجنس المكبوت !

وحقيقة إنه سعى إلى إزالة « القدرة » عن الجنس ! ولكن هذه مسألة أخرى !

جاء في كتاب بروتوكولات حكماء صهيون : « يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا . . إن فرويد منا . وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس ، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية ، وعندئذ تنهار أخلاقه »

إن هناك هدفا مزدوجا يتم في نفس الوقت : فالجنس يُنظف ليستباح . لتنتلق الغرائز « المكبوتة » . لينطلق الشباب كالبهائم ، دون أن يحسوا في ضميرهم لذنا ولا في نفوسهم ندامة ولكن في ذات الوقت يُقذر الدين والأخلاق والتقاليد بتصويرها نابعة في الأصل من الجنس — المستقذر حينئذ في النفوس !

أى أنه تتم عملية إبدال دقيقة خبيثة بشعة . . فينزل الدين والأخلاق إلى مكان الجنس المستقذر ، ويرتفع الجنس إلى مكان الدين والأخلاق في النظافة والتقديس !

وليس هنا — كما أسلفت — مجال المناقشة مع فرويد ، فقد ناقشته في الكتب السابقة ، وبينت فساد هذه الأساطير والأضاليل التي يقيم عليها تفسيره للحياة البشرية ، بلا سند علمي ولا منطق سليم .

إنما ثبت هنا فقط مجموعة من الحقائق حول هذا التفسير الجنسي للسلوك البشري :

أولا : أنه استمد من إحياءات نظرية دارون ذلك التفسير الحيواني للإنسان . ولم يقل دارون بطبيعة الحال شيئا من ذلك كله ، ولا كان من همه أن يقول . ولكن العالم اليهودي الذي أخذ إحياء نظريته المسموم ، قدمه مدّة واسعة فشملت الحياة كلها ، تحت ستار البحث « العلمى » في علم النفس .

ثانياً : أنه وجّه الإيحاء المسموم كله الذى استمدّه من دارون إلى نقطتين مركزيتين ، فى أثناء هذه الجولة الواسعة فى باطن النفس ، وفى التاريخ ، هما الدين والأخلاق . فسعى إلى تلوينهما بصورة لم يسبق لها مثيل فى التاريخ كله . ووضعهما فى صورة منفرة مقرزة ينفر منها كل إنسان ! ولم يكتف فى ذلك بالتلميح ، بل كان صريحاً جداً وهو يقول : إن التسامى نوع من الشذوذ ! [Three Contributions to the Sexual Theory ص ٨٢] وإن الأخلاق تتسم بطابع القسوة حتى فى درجتها الطبيعية العادية ! [The Ego and the Id ص ٨٠] وإن أساطير المسيحية تصور فى حقيقتها رغبة الابن (المسيح) فى قتل والده (الرب الإله) وإن كان قد كبت هذ الرغبة فقتل نفسه بدلاً من أبيه ، ولكنه أصبح إلهاً مكان أبيه ! [Totem and Taboo ص ١٥٤] وإن الحضارة تتعارض مع النمو الحر للطاقة الجنسية ! [Three Contributions ص ٨٥] وإن الدين والأخلاق والحضارة تنشأ من الكبت الجنسي ، والكبت الجنسي خطر على الكيان النفسى والعصبى ، لأنه يصيب النفس بالعقد والاضطرابات [كل كتب فرويد بلا استثناء !]

* * *

أما دركايم فله قصة ثالثة . . .

إنه — مرة أخرى — يقف من فرويد موقف التقابل الكامل .

إنه لا يعترف أن الكيان النفسى للفرد هو أساس الحياة الاجتماعية . بل العكس فى نظره أقرب إلى الصواب . إن الحياة الاجتماعية هى التى تشكل مشاعر الفرد . وعليه فلا يجوز أن نفسر الحياة من نفسية الفرد كما يصنع علم النفس كله ، وإنما ينبغى أن نفرق بين الظاهرة النفسية والظاهرة الاجتماعية تفريقاً كاملاً ، حتى وإن قام بينهما — أحياناً — نوع من الاتصال :

« ولكن الحالات النفسية التى تمر بشعور الجماعة تختلف فى طبيعتها عن

الحالات التي تمر بشعور الفرد ، وهي تصورات من جنس آخر ، وتختلف عقلية الجماعات عن عقلية الأفراد ، ولها قوانينها الخاصة بها» (١)

« . . إن ضروب السلوك والتفكير الاجتماعيين أشياء حقيقية توجد خارج ضمائر الأفراد ، الذين يجبرون على الخضوع لها في كل لحظة من لحظات حياتهم» (٢)

« ولكن لما كان هذا العمل المشترك [الذي تنشأ عنه الظواهر الاجتماعية] يتم خارج شعور كل فرد منا ، وذلك لأنه نتيجة لعدد كبير من الضمائر الفردية ، فإنه يؤدي بالضرورة إلى تثبيت وتقرير بعض الضروب الخاصة من السلوك والتفكير ، وهي تلك الضروب التي توجد خارجة عنا ، والتي لا تخضع لإرادة أي فرد منا» (٣)

« ولكن ليس من الممكن تطبيق هذه الطريقة [التي تفسر الظواهر الاجتماعية من داخل نفوس الأفراد] على الظواهر الاجتماعية اللهم إلا إذا أردنا تشويه طبيعتها ، ويكفي في البرهنة على ذلك أن نعود إلى التعريف الذي سبق أن حددنا به الظواهر الاجتماعية . فلما كانت الخاصة الجوهرية التي تمتاز بها هذه الظواهر تنحصر في القيام بضبط خارجي على ضمائر الأفراد ، كان ذلك دليلاً على أنها ليست وليدة هذه الضمائر» (٤)

« وبهذا المعنى وهذه الأسباب يمكننا ، بل يجب علينا أن نتحدث عن شعور اجتماعي يختلف عن شعور الأفراد . وإذا أردنا تبرير هذه التفرقة بين الشعور الاجتماعي والشعور الفردي ، فلسنا في حاجة إلى تجسيد الشعور الاجتماعي .

(١) قواعد المنهج في علم الاجتماع تأليف لميل دركايم ، ترجمة الدكتور محمود قاسم ومراجعة الدكتور السيد محمد بدوي — مقدمة الطبعة الثانية ، ص ١٥ .

(٢) ص ٢٢ من المصدر السابق . (٣) ص ٢٥ . (٤) ص ١٦٦ .

فإن لهذا الشعور وجوداً من جنس خاص . ومن الواجب أن نعبر عنه بمصطلح خاص ، لمجرد السبب الآتى ، وهو : أن الحالات التى تدخل فى تركيبه تختلف عن الحالات النفسية التى يتركب منها شعور الفرد اختلافاً نوعياً
ومن جهة أخرى فما كان يرمى تعريفنا للظاهرة الاجتماعية إلا إلى تحديد الفرق بين كل من الشعور الاجتماعى والشعور الفردى ، (١)

هكذا لا يعترف دركايم بأن الحياة البشرية — ذات الصفة الاجتماعية — يمكن أن تفسر عن طريق نفسية الفرد وطبيعته وكيانه الفردى . إنما يفسرها وجود « العقل الجمعى » خارج نطاق الأفراد !

ومرة ثانية يقف دركايم من فرويد موقف التقابل الكامل . فى كتاب « قواعد المنهج فى علم الاجتماع » يتحدث عن « تطور » الجماعات شأن كل باحث فى علم الاجتماع — ولكنه يأبى أن ينسب هذا التطور إلى عنصر من عناصر النفس المفردة :

« ولن نستطيع معرفة المصدر الذى تنبع منه هذه التيارات الاجتماعية إلا إذا صعدنا فى مجراها حتى منابعها الأولى ، حينئذ يجب علينا أن نلاحظ الظواهر الاجتماعية فى ذاتها ويجب أن ندرس هذه الظواهر من الخارج على أنها أشياء خارجية ولئن خيل إلينا أن وجود هذه الظواهر خارج شعور الأفراد ليس إلا وجوداً بحسب الظاهر فسوف يتبدد هذا الشك كلما تقدم علم الاجتماع . وسيرى المرء حينئذ كيف تقتحم الظاهرة الاجتماعية الخارجية الشعور الداخلى للأفراد » (٢)

ومع ذلك . . .

أهي مصادقة تلك الطريقة التي يتحدث بها عن الدين والأخلاق ؟!

« فن هذا القبيل أن الناس يفسرون عادة نشأة النظام الأسرى بوجود العواطف التي يكنها الآباء للأبناء ، ويشعر بها الأبناء تجاه الآباء ؛ كما يفسرون نشأة الزواج بالمزاي التي يحققها لكل من الزوجين وفروعها ، والألم بما يحدث من غضب الفرد إذا أصيبت مصالحه بضرر جسيم . وترجع الحياة الاقتصادية في نهاية الأمر — كما يفهمها ويفسرها الاقتصاديون ، وبخاصة أصحاب المذهب المحافظ — إلى هذا العامل الفردي البحت ، وهو الرغبة في تحصيل الثروة . وليس الأمر على خلاف ذلك فيما يتعلق بالظواهر الخلقية . فإن الأخلاقيين يتخذون واجبات المرء نحو نفسه أساساً للأخلاق . وكذا الأمر فيما يتعلق بالدين ، فإن الناس يرون أنه وليد الخواطر التي تثيرها القوى الطبيعية الكبرى أو بعض الشخصيات الفذة لدى الإنسان . . الخ . ولكن ليس من الممكن تطبيق هذه الطريقة على الظواهر الاجتماعية اللهم إلا إذا أردنا تشويه طبيعتها ! » (١)

« ومن هذا القبيل أن بعض هؤلاء العلماء يقول بوجود عاطفة دينية فطرية لدى الإنسان ، وبأن هذا الأخير مزود بمجد أدنى من الغيرة الجنسية والبر بالوالدين ومحبة الأبناء ، وغير ذلك من العواطف وقد أراد بعضهم تفسير نشأة كل من الدين والزواج والأسرة على هذا النحو . ولكن التاريخ يوقفنا على أن هذه النزعات ليست فطرية في الإنسان » (٢)

« وحينئذ فإنه يمكن القول بناء على الرأي السالف بأنه لا وجود لتفاصيل القواعد القانونية والخلقية في ذاتها ، إذا صح هذا التعبير . . . ومن ثم فليس

من الممكن ، تبعاً لهذا الرأي ، أن تصبح مجموعة القواعد الخلقية التي لا وجود لها
في ذاتها موضوعاً لعلم الأخلاق . . . » (١)

واضح !؟

إن الدين ليس شيئاً فطرياً . وكذلك الزواج والأسرة . والقواعد الخلقية
لا وجود لها في ذاتها !

ولن نناقش هنا دركايم النناقش أسطورة « العقل الجمعي » القائم خارج
نطاق الأفراد ، والمخالف لكيان الأفراد ، والذي يقهرهم من الخارج على غير
رغبة منهم ولا استعداد فطري !

ولكننا نثبت فقط ما حول هذه الأسطورة من الحقائق :

لقد أخذ دركايم كثيراً عن دارون :

أخذ عنه باديء ذي بدء فكرة التطور الدائم الذي يلغى فكرة الثبات .
وأخذ عنه فكرة « القهر الخارجي » الذي يقهر الفرد على غير رغبة ذاتية
منه ، فيطوره .

وأخذ عنه التفسير الحيواني للإنسان ، فهو لا يقتل يستشهد في كل حالة بما
يحدث في عالم الحيوان :

« أضف إلى ذلك أنه لم يقدّم قط برهان على أن الميل إلى الاجتماع كان
غريزة وراثية وجدت لدى الجنس البشري منذ نشأته . وإنه لمن الطبيعي جداً
أن ننظر إلى هذا الميل على أنه نتيجة للحياة الاجتماعية التي تشربت بها نفوسنا
على مر العصور والأحقاب . وذلك لأننا نلاحظ ، في الواقع ، أن الحيوانات
تعيش جماعات أو أفراداً تبعاً لطبيعة مساكنها التي توجب عليها الحياة في جماعة
أو تصرفها عن هذه الحياة » (٢)

(١) ص ٥٩ — ٦٠ . (٢) ص ١٧٣ .

« ولكن أليس معنى ذلك أن « كونت » يفسر الماء بالماء ، وأنه يشرح التقدم بوجود ميل فطري يدفع الإنسان إلى التقدم الذى لا يعدو أن يكون سوى فكرة ميتافيزيقية ليس ثمة ما يدل على وجودها بحسب الواقع ؟ وذلك لأن الفصائل الحيوانية — بما فى ذلك الفصائل الراقية منها كل الرق — لا تشعر قط بهذه الحاجة التى تدفعها إلى التقدم ، (١) . . الخ .

ولم يقل دارون بطبيعة الحال شيئاً مما قاله دركايم ، ولا كان من شأنه أن يقول . ولكن العالم اليهودى أخذ الإيماء الحيوانى لنظريته ، ومدّه مدّة واسعة فشملت الحياة كلها ، تحت ستار من البحث « العلمى » فى علم الاجتماع . ثم إنه — فى جولاته الواسعة فى علم الاجتماع — قد عنى عناية خاصة بأن يقول إن الدين ليس فطرة والزواج ليس فطرة ، والأخلاق ليست قيمة ذاتية ، ولا هى ثابتة على وضع معين ، فإنما تأخذ صورتها من المجتمع الذى توجد فيه ، فإن « المجتمع » هو الأصل فى كل الظواهر الاجتماعية ، وليس « الإنسان » !

* * *

ومن حصيلة هذا كله حدثت حركات ضخمة فى المجتمع الغربى فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

لقد التقت « توجيهات » العلماء الثلاثة — وغيرهم بطبيعة الحال ، ولكنهم هم فى المقدمة — التقت عند نقط رئيسية ، متصلة ومتصاحبة :

الجملة على الدين والأخلاق والتقاليد ، ونفى القداسة عنها ، وتشويه سمعتها أو التشكيك فى قيمتها .

والقيام بهذه الجملة باسم « العلم » والبحث العلمى .

والربط بين هذا التحلل الدينى والانحلال الخلقى وبين « التطور » .

(١) ص ١٧٦ .

والإيحاء بأن هذا التحلل والانحلال أمر « حتمى » لأن التطور حتمى لا قبل لأحد بوقفه عن طريقه المحتوم .

تقول بروتوكولات حكماء صهيون : « لقد رتبنا نجاح دارون وماركس ونيقشه^(١) بالترويج لآرائهم . وإن الأثر الهدام للأخلاق الذى تنشئه علومهم فى الفكر غير اليهودى واضح لنا بكل تأكيد » .

* * *

ولقد حدث بالفعل ذلك الأثر الهدام للأخلاق ! وسرت فى الجماهير لوثتان معاً فى ذات الوقت : لوثة التطور .. ولوثة العداء للدين والأخلاق .

وربما برز اسم فرويد فى هذا الأثر المدمر أكثر من زميليه الآخرين ، لأن آرائه أخذت « شعبية » واسعة النطاق ، بينما بقى الآخرون — وخاصة دركايم — فوق مستوى الجماهير . ولكن الحصيلة النهائية للوثة التطور ولوثة العداء للدين والأخلاق ينبغى أن ترد لهم جميعاً ، وإن تفاوتت النسب و « حقوق التأليف » بين أعضاء الثلاث !

لقد صارت « الموضة » هى التطور . وما لا يتطور بذاته ينبغى أن يتطور بالقوة ! إنه لا ينبغى أن يظل شيء على الإطلاق ثابتاً فى كل الأرض . لا الدين . ولا فكرة الله . ولا الأخلاق . ولا التقاليد . ولا القيم . ولا الروابط الاجتماعية . لا شيء .. لا شيء على الإطلاق .

ينبغى أن نتطور . وأن نتحرر من السكون الميت والثبات المعيب .

(١) فيلسوف ألمانى نادى فى تشنح هستيرى بفكرة الإنسان الأعلى Superman و « موت الإله » ! وهو يعنى هذا الإنسان من التقيد بالأخلاق المسيحية لأنها أخلاق الأذلاء ! ومن ثم تجدد فيه « بروتوكولات حكماء صهيون » بغيتها المنشودة .

ينبغي أن نحطم قيود الأخلاق . فهي قيد يعوق التطور . وقد تقيدنا بها في الماضي في المجتمع الزراعى فينبغى أن نطرحها اليوم في المجتمع الصناعى المتطور [ماركس] أو تقيدنا بها نتيجة الجهل الخطير بحقيقة النفس الباطنية وبأن الأخلاق «كبت» ضار بكيان الإنسان [فرويد] أو تقيدنا بها جهلا منا بأنه لا توجد حقيقة ثابتة للقيم الخلقية ، إنما هي تتطور بتطور وسائل الإنتاج [ماركس] أو بتطور حالة المجتمع [دراكيم] .

وينبغى أن نحطم الدين . فهو قيد آخر يعوق التطور . وقد ورثناه من أسلافنا في عمية وجهالة وجود وتأخر ، وقد كان هذا كله يناسب المجتمع الزراعى المتأخر ، ونحن اليوم في المجتمع الصناعى المتطور الذى لا يطبق هذه الخزعبلات [ماركس] أو قد كان هذا يناسب عصر الجهالة السابق ، يوم كنا نظن الدين شيئاً له قداسة ، منزلاً من السماء ، قبل أن نعرف أنه كبت جنسى ضار مؤذ منفرد [فرويد] أو يوم ظننا — خطأ منا وجهالة — أنه فطرة إنسانية [دراكيم] .

ينبغى أن ننشىء أنفسنا لإنشاء في المجتمع الجديد .. المتطور .. المتحرك .. الوثاب . ينبغى أن نطلق مع وثباته الظافرة بلادين . بلا أخلاق . بلا تقاليد . فهذا هو السبيل الوحيد للتقدم الصحيح ! [« العلماء » الثلاثة]

* * *

وتركزت الفتنة كلها في « تحرير المرأة » . . .

حقاً لقد كان هذا العصر هو عصر تحرير المرأة !

فقد كانت القوى الشريرة كلها التى تعمل في الأرض تعلم أنه لا وسيلة لإفساد الأم كلها خير من « تحرير » المرأة ، أى إخراجها إلى الطريق فتنة الرجل لكي تفسد أخلاقه وتنهار .

ينبغى بأى ثمن أن تخرج المرأة إلى الطريق . . .

تخرج بحجة الاستقلال الاقتصادي ..
تخرج بحجة ممارسة حقها في الحياة ..
تخرج بحجة التعليم أو بحجة العمل ..
تخرج « للاستمتاع » ..

المهم أن تخرج .. ولكن أهم من ذلك أن تخرج في صورة إغراء .
لأنها إن خرجت تتعلم أو تعمل أو تمارس حقها في الحياة ، وهي محتشمة
متحفظة ، محافظة على أخلاقها ، وعلى طبيعتها « المنزلية » بمعنى الرغبة في
« الاستقرار » في أسرة حين تسنح الظروف .. فلا فائدة إذن من كل « التعب »
الذي تعبناه في إفساد البشرية !

يفتني أن تخرج المرأة في صورة تفنن الرجل وتغريه .. وإلا فما الفائدة ؟
ولكن كيف السبيل ؟ !

السبيل هو الدعوة .. !

يكتب الكتاب . ويكتب الصحفيون . ويكتب القصاصون ..

السبيل هو السينما .. !

تمثل الأفلام الداعرة العارية الداعية إلى الفساد ..

السبيل هو الإذاعة والتلفزيون [على التوالي]

السبيل هو بيوت الأزياء .. !

السبيل هو صناعة أدوات الزينة .. !

السبيل — بكل سبيل — هو إيجاد صورة من « الحياة الاجتماعية » لا تستغنى
عن المرأة الفاتنة المغرية — بهجة المجتمع — وإيجاد تصور للحياة لا يستغنى
عن المرأة الفاتنة المغرية « لتشارك » الرجل في حمل الأعباء ؛ وإيجاد « واقع
عملي » لا يستغنى عن المرأة الفاتنة المغرية كجزء واقعي من الحياة !
ووجد كل ذلك بالفعل ..

واستراحت القوى التي تعمل لإفساد البشرية . . وطلبت المزيد !
 وجاء المزيد — [قصداً أم عَرَضاً ؟] — بالحربين العالميتين !
 قتل في الحرب الأولى عشرة ملايين من الشباب، وفي الثانية حوالى أربعين .
 وَوُجِدَتْ — بعددهم — أسر بلا عائل ، ونساء بلا رجال . .
 وخرجت المرأة — راضية أو مكروهة — تعمل . . وتبحث عن الجنس . .
 وحدث مزيد من « التحرر » . . من انحلال الأخلاق !
 وصار الروتين العادى فى الحياة الغربية أن تعمل كل فتاة . . وأن يكون لها
 صديق — أى عشيق — تمارس معه نشاط الجنس ، كاملاً فى أغلب الأحيان .
 روتين عادى لا يستنكر . لا يفكر أحد فى استنكاره على الإطلاق . إلا المجانين !
 الذين يظنون أنه يوجد دين ! أو أخلاق ! أو تقاليد !
 المجانين الجُهلاء الرجعيون المتزمتون المتحجرون المتعنفون ... الذين يعيشون
 بعقلية القرون الوسطى . الذين يحبون عن أعينهم النور . الذين يريدون
 إرجاع الساعة إلى الوراء . الذين لا يعرفون أنه التطور . . التطور الحتمى الذى
 لا قبل لأحد بوقفه . . التطور الذى أحدثه القرن العشرون !
 التطور . . !
 هل هو التطور حقاً ، الذى صنع هذه الصورة الاجتماعية فى القرن
 العشرين . . ؟
 بصرف النظر عن رأينا الشخصى فى هذه الصورة : إن كانت تقدماً مشرفاً
 أو انحلالاً مزريراً . إن كانت رفعة للبشرية أو نكسة بشعة إلى عالم الحيوان .
 هل التطور هو الذى أحدثها ؟
 هل هى شىء « جديد » حقاً ، أنشأه « التقدم » العلمى والحضارى فى
 القرن العشرين ؟
 إذن فلنسمع . . شهادة التاريخ !

شهادة التاريخ

حين يعيش الإنسان فترة من الحياة فإنه يراها مجسمة مضخمة ، لأنه يعيش دقائقها وتفصيلاتها وجميع لحظاتها ، لحظة إثر لحظة ، فيراها — من ثم — أضخم من أى فترة أخرى من التاريخ !

وهذا أمر « بشرى » من جميع جوانبه !
فالعين ترى المنظر القريب كبيراً مفصلاً مجسماً . . ثم يتضاءل في نظرها — هو ذاته — حين تبعد عنه بضع خطوات أو بضعة أميال . .
والإنسان يحس بأموره هو كبيرة مفصلة مجسمة ، لأنها أقرب شيء إليه . .
ثم يرى مثيلاتها عند شخص آخر — أمامه — فلا يحسها بهذا الكبر والتفصيل والتجسم ، وإن عطف عليها أو شارك فيها بوجدانه . . ولا يخيل إليه أبداً أنها تشابه تجربته الشخصية .

بل الإنسان الواحد يحس لحظته الراهنة كبيرة مفصلة مجسمة ، لأنه يعيشها الآن ، فهي قريبة من حسه وشعوره وتفكيره ، فإذا مرت ودخل في غيرها ، تضاءلت في حسه — وهى جزء منه هو ذاته — وصارت — بكل آلامها أو آمالها — أصغر من لحظته الجديدة الراهنة الداخلة في بؤرة الإحساس والتفكير و « المعاشة » . .

ومن ثم يرى أهل القرن العشرين أن هذا القرن فريد تفرداً كاملاً في كل شيء ، وأنه لا مثيل له في شيء قط على مدار التاريخ . .

ذلك لأنهم يعيشونه . . أما الآخر فتاريخ !
وحقيقة إن القرن العشرين متفرد في كثير من الأمور . فهذه « الصورة »

من الحياة ، بكل تفصيلاتها ودقائقها ، لم تعيشها البشرية قط من قبل . . لم يكن لديها صواريخ ولا طائرات ولا سفن سريعة ولا قطر ماردة ، ولا إذاعة ولا سينما ولا تليفزيون . . ولا إنتاج آلى ضخم يشمل كل مرافق الحياة . .
ذلك كله صحيح . .

ولكن دلالة غير صحيحة !

دلالة التي يريد الناس أن يستخرجوها منه أنه لا شيء على الإطلاق مما يعيشونه اليوم قد عاشه أى جيل من قبل . وأنه لا شيء مما يحدث اليوم قد حدث فى أى يوم من التاريخ !

والناس لا يقرأون التاريخ !

لا يقرأونه لأنهم مشغولون بأحداث الحاضر الجسيمة ، التي يزيدها جسامه أنهم يعيشون فيها بالفعل ، فتبدو لهم دقائقها مجسمة مضخمة . ولا يقرأونه كذلك غرورا منهم ! غرورا يخيّل إليهم أنهم مقطوعو الصلة بالماضى كله ، لأنهم خلق جديد لا شأن له بماضى الإنسانية السالف ، ولا شبه بينهم وبينه ، فلا « عبرة » إذن ترتبى من وراء قراءة التاريخ !

وقد يتواضعون قليلا فيدرسون تاريخ أوربا الحديث ! تاريخ النهضة . لأنهم — وقد تثقفوا — يعرفون أن التغيرات لا تحدث بين يوم وليلة . وإنما هي تمر فى « تطور » بطيء جداً . فالقرن العشرون ، بما يحمله من آيات ضخمة ، قد ولد — مثلا — فى عصر النهضة ، أى فى القرن الرابع عشر أو الخامس عشر ، « فيحسن » من باب الاستثناس أن يقرأ الإنسان التاريخ الحديث والمعاصر ، ليرى فيه مولد القرن العشرين !

ولكنهم لا يصلون فى التواضع — إلا نادراً — إلى حد قراءة ما سلف قبل ذلك من التاريخ !

واستأنثت بطبيعة الحال عن « العلماء » و « العقلاء » .. إنما أنثت
عن « الجماهير » . بما فى ذلك « جماهير المثقفين » !

* * *

لذلك فنحن محتاجون إلى قراءة التاريخ !
محتاجون إليه لئلا نرى صورة البشرية على حقيقتها ، ولنفحص شيئاً من الأثران
فى رموسنا التى أدارها الدوى الطنان الذى نعيشه فى القرن العشرين : دوى
آلات الضخمة ، والسباق المجنون . ودوى الفتنه المأجبة فى الطريق .

* * *

أغمض عينيك لحظة .. أغمض عينيك عن شاشة التليفزيون التى أمامك !
أو عن الصاروخ الجبار الذى انطلق منذ لحظة . أو عن السيارة الفاخرة التى
تهب بك الأرض . وأغمض عينيك لحظة كذلك عن تلك الفتاة التى
لبست أحدث ما أخرجته بيوت الأزياء فى باريس .. فستاناً يحاذى الركبة ،
وينحسر عنها حين تجلس فيكشف عما فوقها ، ثم تزيت أعظم زينة ، وخرجت
« تبتخر » فى رشاقة فائنة تلهب المشاعر وتجذب العيون .

أغمض عينيك لحظة . . وانس أنك تعيش الآن فى النصف الثانى من
القرن العشرين . واستمع لهذه الكلمات !

« أرقى الأمم القديمة حضارة وأزهرها تمدناً فى التاريخ ، هم اليونان . وفى
عصرهم البدائى كانت المرأة فى غاية من الانحطاط وسوء الحال من حيث
نظرية الأخلاق والحقوق القانونية والسلوك الاجتماعى جميعاً . فلم تكن لها فى
مجتمعهم منزلة أو مقام كريم . وكانت الأساطير (Mythology) اليونانية قد
اتخذت من امرأة خيالية تسمى « پاندورا » (Pandora) ينبوع جميع آلام
الإنسان ومصائبه ، كما جعلت الأساطير اليهودية حواء : العين التى تنشق منها
جداول الآلام والشدائد . وغير خاف على أحد ما كان لهذه الأسطورة اليهودية

الشيعة عن حواء من تأثير عظيم في سلوك الأمم اليهودية والمسيحية قبل المرأة ، وما كان لها من منقول قوى في حقول القانون والأخلاق والاجتماع عند هؤلاء الشعوب . وكذلك أو دونه بقليل كان تأثير الأسطورة اليونانية عن (پاندورا) في عقولهم وأذهانهم . فلم تكن المرأة عندهم إلا خلقاً من الدرك الأسفل ، في غاية من المهانة والذل في كل جانب من جوانب الحياة الاجتماعية . وأما منازل العز والكرامة في المجتمع فكانت كلها مختصة بالرجل .

« وبقي هذا السلوك قبل المرأة في أول عهدهم بالهضة المدنية ثابتاً على حاله ، ربما تخللته تعديلات قليلة . فإنه كان من تأثير ذبوع العلم وانتشار أنوار الحضارة أن ارتفعت مكانة المرأة في المجتمع وأصبحت أحسن حالا وأرفع منزلة من ذي قبل ، وإن بقيت منزلتها القانونية على حالها لم تتبدل . فهي أصبحت ربة البيت ، منحصرة واجباتها في حدوده ، وأصبح لها في داخله سلطة ونفوذ تام . وكان عفاها وتصونها من أغلى وأنفس ما يملك ، ومما ينظر إليه بعين التقدير والتعظيم . وأيضاً كان الحجاب شائعاً في البيوتات العالية . فكانوا يبنون بيوتهم على قسمين : قسم للنساء وآخر للرجال . وما كان نسوتهم يشاركن في المجالس والأندية المختلطة ولا يبرزن في الأماكن العامة . وكان يعد زواج المرأة وملازمتها لزوجها دون غيره من أمارات النجابة والشرف . ولأمثالها كانت الحرمة والمنزلة في المجتمع . وبالعكس من ذلك كانوا ينظرون إلى حياة العهر والدعارة نظرة كره وازدراء . . هذا في عصر كانت الأمة اليونانية فيه في إبان مجدها وعنفوان شبابها وقوتها ، وكانت تنمو صعداً إلى الرقي والكمال . ولا ريب أنه كانت توجد عندهم مفايد خلقية في ذلك العصر ، إلا أنها كانت منحصرة في نطاق محدود . وذلك أن الرجال لم يكونوا يطلّون بمثل من العفاف وطهارة الأخلاق وزكاء السجية كانت تطالب بها المرأة وتؤاخذ عليها ، بل كانوا يستثنون من التخلق بتلك الأخلاق الحسنة ، ولم يكن من المتوقع منهم أن يعيشوا عيشة ذوى

العفاف والحشمة . ومن أجل ذلك كانت المومسات جزءاً من صميم المجتمع اليونانى لا ينفك عنه أبداً ، ولا يعاب المرء إذا عاشرهن وخادنهن .

« ثم جعلت الشهوات النفسية تتغلب على أهل اليونان ويجرف بهم تيار الغرائز البهيمية والأهواء الجاححة ، فتبوأ العاهرات والمومسات مكانة عالية في المجتمع لانظير لها في تاريخ البشرية كله ، وأصبحت بيوت العاهرات مركزاً يؤمه سائر طبقات المجتمع ، ومرجعاً يلجأ إليه الأدباء والشعراء والفلاسفة . فكانت شموساً في سماء العلم والأدب يدور حولها كواكب الفلسفة والأدب والشعر والتاريخ وما عداها من الفنون . بل أصبحن القطب الذى تدور حوله رعى الأمة اليونانية . فما كنّ يرأسن أندية العلم ومجالس الأدب فحسب ، بل كانت المشاكل السياسية أيضاً تحل عقدها وتفك معضلاتها بحضرتهم وتحت إشرافهم . وقد بلغ بهم التعسف في هذا الشأن أن كانوا يرجعون في المسائل الرئيسية التى تعلو بها أمة وتسفل ، وتحيا لها وتموت ، إلى المرأة التى ربما لا ترضى أن تعاشر رجلاً بيمينه أكثر من ليلة أو ليلتين . ثم زاد أهل اليونان حبهم للجمال وتذوقهم المفرط تماذيا في النى وارتطاما في حماة الرذائل ، وأضرم في قلوبهم ناراً للشهوات لا تخمد . فالتمثيل — نماذج الفن العارية — التى كانوا يُظهرون بها وبالاقتنان في صنعها وإتقانها ذوقهم هذا ، كانت هى التى تحرك فيهم الشهوات دوماً وتمد في غرائزهم البهيمية . ولا يخطر لهم ببال أن الاستسلام للشهوات شئ ذميم في قانون الأخلاق ، والاندفاع وراء تيار الأهواء عار وهجنة . وتبدلت مقاييس الأخلاق عندهم إلى حد جعل كبار فلاسفتهم وعلماء الأخلاق عندهم لا يرون في الزنا وارتكاب الفحشاء غضاضة يلام عليها المرء ويعاب . وأصبح عامتهم ينظرون إلى عقد الزواج نظر من لا يهتم به ، ولا يرى إليه من حاجة .

وقلما يرون بأساً بأن يعاشر الرجل المرأة ويخاذهما علناً من غير عقد ولا نكاح .

.....»

.....»

«والذين تسلموا ذروة المجد والرقى في العالم بعد اليونانيين هم الرومان . وفي هذه الأمة أيضاً نرى تلك السلسلة من الصعود والهبوط التي قد شاهدناها في اليونان . فحينما خرج الرومان من عصر الوحشية وظلمة الجهل ، وظهروا على مسرح التاريخ لأول مرة ، كان الرجل رب الأسرة في مجتمعهم ، له حقوق الملك كاملة على أهله وأولاده ، بل بلغ من سلطته في هذا الشأن أن كان يجوز له حتى قتل زوجه في بعض الأحيان .

«ولما تخففت فيهم سورة الوحشية وتقدموا خطوات في سبيل المدنية والحضارة ، تخففت القسوة في تلك السلطة وجعلت الكفة تميل إلى الاستواء والاعتدال شيئاً فشيئاً ، وإن بقي نظام الأسرة القديم ثابتاً على حاله . وهؤلاء لم يكن الحجاب عندهم معمولاً به - كالليونان - في إبان مجد الجمهورية الرومانية وريقها . لكنهم كانوا قيدوا النساء والشباب عامة بقيود مثقلة من نظام الأسرة . فالعفاف كان شيئاً ينظر إليه بعين الإجلال ولا سيما في شأن النساء ، وكان يعد مقياساً للشرف وكرم المحتد . وكذلك كان مستوى الأخلاق عندهم عالياً . ومن أمثال ذلك أن اتفق ذات مرة أن عضو مجلس الشيوخ قبل زوجه أمام ابنته ، فغضب عليه القوم وحكموا على صنيعه بأنه غرض من كرامة الخلق القومي وإهانة له، وأمضوا إقرار النكير (Vote of Censure) عليه في مجلس الشيوخ . هذا وما كان مباحاً عندهم ولا مرضياً في أخلاقهم أن يتعاشر الرجل والمرأة بدون عقد مشروع . وما كانت المرأة تقبوا مكانة العز والكرامة في المجتمع إلا بأن

تكون أمًا لأسرة (Matron) وللمومسات ، وإن كانت طبقتهن موجودة ، وكان للرجال نوع من الحرية في مخادتهن ، إلا أن عامة الرومان وجمهورهم كانوا يزدرونهن وينظرون إليهن نظرة احتقار وتعيير . وكذلك ما كانوا ينظرون بعين الاستحسان إلى الرجال المخادنين لهم .

ثم أخذت نظرية الرومان في النساء تتبدل برقيهم وتقلبهم في منازل المدنية والحضارة . وما زال هذا التبدل يطرأ على نظمهم وقوانينهم المتعلقة بالأسرة وعقد الزواج والطلاق ، إلى أن انقلب الأمر ظهراً لبطن ، وانعكست الحال رأساً على عقب ، فلم يبق لعقد الزواج عندهم معنى سوى أنه عقد مدني (Civil Contract) فحسب ، ينحصر بقاءه ومضيه على رضا المتعاقدين ، وأصبحوا لا يهتمون بتبعات العلاقة الزوجية إلا قليلاً . ومنحت المرأة جميع حقوق الإرث والملك ، وجعلها القانون حرة طليقة لا سلطة عليها للأب ولا للزوج ، ولم تصبح الرومانيات مستقلات بشئون معاشهن فحسب ، بل دخل في جوزة ملكهن وسلطانهن جزء عظيم من الثراء القومي على مسير الأيام . فكان يقرضن أزواجهن بأسعار الربا الفاحشة ، مما يعود به أزواج المثرىات من النساء عبيداً لهم في ميادين العمل والواقع . ثم سهلوا من أمر الطلاق تسهيلاً جعله شيئاً عادياً يلجأ إليه لأنفة الأسباب . فهذا « سنيكا » الفيلسوف الروماني الشهير (٤ ق . م — ٥٦ م) يندب كثرة الطلاق ويشكو تفاقم خطبه بين بني جلدته فيقول : « إنه لم يعد الطلاق اليوم شيئاً يندم عليه أو يستحي منه في بلاد الرومان . وقد بلغ من كثرته وذوبوع أسرهم أن جعلت النساء يعدون أعمارهن بأعداد أزواجهن . وكانت المرأة الواحدة تزوج رجالاً بعد آخر وتمضى على ذلك من غير حياء . وقد ذكر مارشل (٤٣ — ١٠٤ م) امرأة تزوجت عشرة رجال ، وكذلك كتب جوبنيل

(٦٠ - ١٤٠ م) عن امرأة تقلبت في أحضان ثمانية أزواج في خمس سنوات ، وأعجب من كل ذلك وأغرب ما ذكره القديس جيروم (٣٤٠ - ٤٢٠ م) عن امرأة تزوجت في المرة الأخيرة الثالث والعشرين من أزواجها ، وكانت هي أيضاً الزوجة الحادية والعشرين لبعليها .

ثم بدأت تتغير نظرتهم إلى العلاقات والروابط القائمة بين الرجل والمرأة من غير عقد مشروع . وقد بلغ بهم التطرف في آخر الأمر أن جعل كبار علماء الأخلاق منهم يعدون الزنا شيئاً عادياً . فهذا كاتو (Cato) الذي أسندت إليه الحسبة الخلقية سنة ١٨٤ قبل الميلاد ، يجهر بجواز اقتراف الفحشاء في عصر الشباب . وذاك شيشيرون (Cicerone) المصلح الشهير يرى عدم تقييد الشباب بأغلال الأخلاق المثقلة ويشير بإطلاق العنان لهم في هذا الشأن . ولا يقتصر الأمر عليهما بل يأتي إبيكتيوس (Epictetus) الذي يعد من المتصلبين في باب الأخلاق من فلاسفة الرواقيين (Stoics) فيقول لتلاميذه مرشداً ومعلماً : « تجنبوا معاشره النساء قبل الزواج ما استطعتم . ولكنه لا ينبغي أن تلوموا أحداً أو تؤنبوه إذا لم يتمكن من كبح جماح شهواته » .

« ولما تراخت عرى الأخلاق وصيانة الآداب في المجتمع الروماني إلى هذا الحد ، اندفع تيار من العرى والفواحش وجوح الشهوات فأصبحت المسارح مظاهر للخلاعة والتبرج المقوت والعرى المشين . وزينت البيوت بصور ورسوم كلها دعوة سافرة إلى الفجور والدعارة والفحشاء . ومن جراء هذا كله راجت مهنة المومسات والداعرات وانجذبت إليهن نساء البيوتات . وتمادى الأمر في ذلك إلى أن اضطر القوم إلى وضع قانون خاص في عصر القيصر تائي ييريس (١٤ - ٣٧ م) لمنع نساء البيوت من احتراف مهنة المومسات وصناعتهن .

الناققة . ونالت مسرحية فلورا (Flora) حظوة عظيمة لدى الروم لكونها تحتوى على سباق النساء العاريات . وكذلك انتشر استحمام الرجال والنساء فى مكان واحد بمرأى من الناس ومشهد . أما سرد المقالات الخليعة والقصص الماجنة العارية فكان شغلا مرضيا مقبولا لا يتحرج منه أحد ، بل الأدب الذى كان يتلقاه الناس بالقبول والرضى هو الذى يعبر عنه اليوم بالأدب المكشوف ، وهو الذى تبين فيه أحوال الحب والعناق والتقبيل سافرة غير مقنعة بحجب من المجاز والكنايات . » (١)

* * *

الآن تستطيع أن تفتح عينيك !
 ما رأيك فى هذا « الشريط » من الأخبار ؟ !
 لكأنك تراه أمامك اللحظة فى السينما أو التليفزيون !
 هل هناك كبير فرق ؟ ما أشبه الليلة بالبارحة !
 إن بعض أجزاء الصورة توشك أن تكون بمذاخيرها وصفا لما هو كائن اليوم فى القرن العشرين ، لاما كان موجودا قبل عشرين قرنا ، أو أكثر من عشرين !
 المرأة المتبرجة المتزينة التى تفتن الرجل بتبرجها وزينتها . .
 المرأة التى تقضى فى شئون الأدب والفن والسياسة . .
 المرأة التى تملك الرجل وتسيره حسب هواها . .
 المرأة « المستقلة اقتصاديا » التى تفهم من استقلالها الاقتصادى أن لها حق « التحرر » أو التحلل الخلقى . .

(١) كتاب الحجاب للسيد أبى الأعلى المودودى ، ص ١٤ — ص ٢٤ .

الرجل الباحث عن متاع الجسد ، الساعى خلف المرأة المتبرجة . .
الرجل المشغول بمتاع الجسد عن جديات الأمور .
الرجل الباحث عن « بهجة المجتمع » وعن المرأة التى « تشارك فى حمل
أعباء الحياة » .
الرجل الذى ينظر إلى المرأة المتحللة على أنها « ضرورة اجتماعية » ويرحب
بها على هذا الأساس .
و . . الأدب المكشوف ، والمسارح العارية ، والتفنن فى الفحشاء .
أكثر هو الذى تغير ؟ !
بل . . هل تغير شئ فى الحقيقة ؟ !

* * *

إن الإنسان ليذهل من قراءة التاريخ .
يذهل أن تكون صورة الحياة اليوم - فى جوهرها - هى إلى هذا الحد
تكرار لما كان قبل ألفين من السنين !
ويذهل من جهالة الجاهلين ، ودعاوى المزيّفين !
المزيّفين الذين يزعمون أن الحياة الاجتماعية الحديثة صورة فريدة لم تتكرر
فى التاريخ ، ونتيجة « للتطور » الذى جاء به « العلم » . . والجاهلين الذين
يصدقون هؤلاء المزيّفين !
أين هو « التطور » فى صورة الحياة الاجتماعية ؟ !

لقد تغيرت الأدوات حقاً . . ما فى ذلك شك ! ولكن « العمل » ذاته
هل تغير ؟ !

وأية سذاجة أو جهالة أو تزيف تلك التي تجعلنا نحسب الأمر جديداً
لأن « كرستيان ديور » هو الذى يصدر أزياء النساء ولم يكن موجودا من قبل،
وأن السينما هي التي تعرض العرى والدعارة والفجور ولم تكن موجودة من قبل،
وأن التلفزيون هو الذى ينقل صور الفساد إلى داخل البيوت ولم يكن موجودا
من قبل ، وأن الشارع الذى تستعرض فيه المرأة قدرتها على الفتنة والإغراء
شارع واسع « مسفلت » نظيف مزدحم بالسيارات الخاصة والعامة ولم يكن
موجودا من قبل ؟!

أية سذاجة أو جهالة أو تزيف تلك التي تنسب ذلك « التقدم الاجتماعى »
« الضخم » الذى نعيشه اليوم ، والذى أخرج المرأة إلى الطريق عارية تبتغى الفتنة
وشغل الرجل بفتنتها . . إلى اقتصاديات القرن العشرين الفريدة فى التاريخ ،
وظروف القرن العشرين الفريدة فى التاريخ ، وعلم القرن العشرين الفريد فى
التاريخ ، واختراعات القرن العشرين الفريدة فى التاريخ و « أيديولوجيات »
القرن العشرين الفريدة فى التاريخ ؟ !

أية سذاجة أو جهالة أو تزيف تلك التي تنسى وقائع التاريخ الماضى وتزعم
أن البشرية « ولدت » اليوم مولداً لم تولده من قبل قط ، وأن هذا الجيل من البشرية
جيل منقطع الصلة عن كل شئ قبله . « جيل الصواريخ » . . الذى لا يتقيد
بدلالات الماضى ، ولا يتأثر بها ، ولا تعنيه فى شئ ، لأنه ينشئ نفسه لإنشاء على
نحو غير مسبوق . . ١٩٠٠

بل أية سذاجة أو جهالة أو تزيف تلك التي تزعم أن الكيان البشرى
الداخلى قد « تطور » أو تغير خلال كل هذه القرون ؟ !

تلك شهادة التاريخ . . فلنتدبرها . . إنها تقول أشياء كثيرة . .

تقول أولاً : إن « القرن العشرين » . . أو « الحياة الاجتماعية في القرن العشرين » . . أو « دور المرأة في الحياة الاجتماعية في القرن العشرين » أو « علاقة الرجل والمرأة في القرن العشرين » ليست صورة فريدة ولا جديدة في حياة البشرية . . فقد مرت صور من قبل فيها مشابه عجيبة منها ، حتى لينسى الإنسان إذا أغض عيذه وهو يسمعها أنه يعيش في القرن العشرين ، أو أن تلك الصور كانت قبل ألفين من السنين !

وتقول ثانياً : إن الأسباب المزعومة التي تفسر لها الحياة الاجتماعية في القرن العشرين ، ودور المرأة فيها ، وعلاقتها بالرجل فيها ، ليست هي الأسباب الحقيقية . . أو ليست كلها على الأقل . فإنها إن عزيت إلى أى سبب متعلق بالقرن العشرين وحده وما حدث فيه من « تطور » وتقدم ، فكيف يمكن تفسير الصورة المشابهة الشديدة الشبه منها ، التي حدثت في القرن الأول للميلاد ، أو قبله بعدة قرون ؟ !

وتقول ثالثاً : إن الكيان البشرى ليس كما تصوره نظريات القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، على يد ماركس ودركايم ، ومن شابههم ومن أخذ منهم . . ليس « متطوراً » من داخله بالصورة التي تلغى كل ثبات فيه أو فيما حوله . . وليس « الجنس » اكتشافاً جديداً يكتشفه فرويد . . فقد اكتشفته قبله حضارات عديدة في التاريخ !

* * *

وليس معنى هذا أننا نلغى عمل التطور ، أو نسقط فترة الألفين من السنين !

كلا ! فما يصنع ذلك عاقل !

إنما نريد فقط أن نصحو من غفلتنا التي تتصور الحاضر منقطعاً عن كل دلالة الماضي ، نابتاً نباتاً شيطانياً على نسق غير مسبوق .

لقد حدثت أحداث ضخمة في القرنين التاسع عشر والعشرين : في عالم المادة وعالم البشر على السواء .

الانقلاب الصناعي كان حدثاً تاريخياً ضخماً ولا ريب .

الرأسمالية والشيوعية حدثان ولا شك من أحداث التاريخ . .

النظرة إلى « الإنسان » قد تقلبت مرات عدة من أقصى الشمال إلى أقصى اليمين بصورة لم يسبق لها مثيل : من تقديس فرديته إلى الحد الذي يكاد يلغى المجتمع إلى جواره ، إلى تقديسه في صورة الجماعة إلى الحد الذي يكاد يلغى شخصيته الفردية ويعتبره مجرد فرد في القطيع . من « إنسان » رفيع المنزلة يعتبر مركز الكون ، إلى حيوان أو ناجم من حيوان . . لا مزية له على غيره من الأحياء إلا أنه في طور السيادة في الوقت الحاضر ، وقبله كانت أنواع من الحيوان هي السيدة على ظهر الأرض ! ثم من إنسان عابد لغيره : لله أو الطبيعة أو أى شيء آخر ، إلى إنسان مثاله لا يريد أن يعبد إلا ذاته في القرن العشرين !

والعلم قد خطا خطوات جبارة لا مثيل لها في التاريخ كله . . فحجر الذرة وأطلق الصاروخ . . وسخر للإنسان كثيراً من قوى الأرض والكون . . ويسر الحياة المادية أيما تيسير . . وحمل عن الناس الجهد البدني الذي كان يشقيهم من قبل ويعنتهم ، فحمله للآلة ، وانطلق الإنسان خفيفاً مذكور الطاقات !

« صورة » الحياة كلها قد تغيرت من الألف إلى الياء . .

ولكن . . « الإنسان » هل تغير ؟ !

ألوان نشاطه . . ودلالة مناشطه وأعماله ؟ هل تغيرت ؟ !

هل صار - فى انحرافاتہ واعتدالاتہ - شيئاً آخر غير « الإنسان » ؟
الإنسان الذى عاش - مثلاً - قبل ألفين من السنين ؟ !

هل صارت دلالات أعماله بالنسبة إليه - فى انحرافاتہ واعتدالاتہ - شيئاً
آخر غير ما كان من الدلالات ؟ !

* * *

تلك شهادة التاريخ . .

فلتدبرها . .

إنها تروى لنا أشياء خطيرة . . عن الثابت والمتطور فى كيان الإنسان .

النَّابَتُ وَالْمَطْوَرُ فِي كَيَانِ الْإِنْسَانِ

هل وعينا شهادة التاريخ؟

هل استخرجنا منها كل دلائلها؟

إن دلائلها لا تقف عند حد هذا التشابه العجيب بين فترتين من فترات التاريخ يفصل بينهما عشرون قرناً من الزمان .

إنها تلفتنا إلى ما هو أعمق من ذلك وأخطر . . إلى الطبيعة البشرية ذاتها . . إلى ذلك « الإنسان » المتضمن في أحداث التاريخ ، متأثراً بها ومؤثراً فيها على مدار الأجيال . .

هذا « الإنسان » هو الذي نريد أن نصل إليه من خلال الأحداث والظروف . . ومن وراء الملابس والتقلبات . . نريد أن نفحصه من الداخل . . أن نتعمق كيانه . . أن نتعرف إليه . . فن المؤكد — من تخطيطاتنا في النظر إليه — أنه هو « المجهول » الأكبر في هذا القرن العشرين . . قرن « العلم » والكشف والعرفان !

* * *

يقول ألكسس كاريل في كتابه « الإنسان . . ذلك المجهول » — وهو « عالم » من علماء الطب والحياة ، وليس فيلسوفاً صاحب نظريات :

« إننا لانفهم الإنسان ككل . . إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة . وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسألنا . فكل واحد منا مكون من موكب من الأشباح تسير في وسطها حقيقة مجهولة ! »

« وواقع الأمر أن جهلنا مطبق . فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشرى تظل بلا جواب ، لأن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنية ، مازالت غير معروفة وهناك أسئلة أخرى لأعداد لها ، يمكن أن تلقى في موضوعات تعتبر في غاية الأهمية بالنسبة لنا . . ولكنها ستظل جميعاً بلا جواب . . فن الواضح أن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان غير كاف ، وأن معرفتنا بأنفسنا مازالت بدائية في الغالب . . . » (١)

هذا تقرير عالم في العلوم ، أتاحت له فرص نادرة — كما يقول في مقدمة كتابه — لأن يقضى معظم وقته يبحث في العمل ، ويفيد من تجارب العلماء الآخرين في الطبيعة والكيمياء وعلم الحياة وعلم وظائف الأعضاء إلى جانب تخصصه في الطب . ومع ذلك « فالجواهر » ، بما في ذلك « جواهر المثقفين » يأخذها غرور العلم الأجوف ، فيظنون أنهم عرفوا كل شيء — في عالم الإنسان خاصة — وأنهم مؤهلون لأن يفتوا في قضايا الإنسان في تأكيد وتمسك . . فتكون فتواهم هي هذه الأقوال الزائفة ، التي توحى بأن لإنسان القرن العشرين كائن متفرد ، مقطوع الصلة — أويكاد — بكل الأجيال قبله ، وأن تجربته التي يعيشها في هذا القرن تجربة متفردة لأنها تصدر عن كيان « متطور » لامتثال له من قبل ، وأن دلالات الأفعال بالنسبة لهذا الإنسان دلالات غير مسبوقة ، ولاشبه بينها وبين دلالات البشرية فيما مضى من القرون . . وتتغذى هذه النظرة الزائفة على « علوم » كثيرة ود نظريات . .

فالتفسير المادى للتاريخ يقول إنه « ليس شعور الناس هو الذى يعين وجودهم ، ولكن وجودهم هو الذى يعين مشاعرهم » [كارل ماركس]
ووجودهم متغير على الدوام بحكم التطور في أدوات الإنتاج ، تبعاً لما يجد من
 (١) ترجمة شفيق أسعد فريد . منشورات مكتبة المعارف ببيروت . ص ١٦ — ١٨

كشوف واختراعات على الدوام « فأسلوب الإنتاج في الحياة المادية هو الذى يعين الصفة العامة للعمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية في الحياة » [ماركس] « الإنتاج وما يصحبه من تبادل المنتجات هو الأساس الذى يقوم عليه كل نظام اجتماعى . فحسب هذه النظرية نجد أن الأسباب النهائية لكافة التغييرات والتحولات الأساسية يجب البحث عنها لا في عقول الناس أو في سمعهم وراء الحق والعدل الأزليين ، وإنما في التغييرات التى تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل » [فردريك إنجلز]

ومن ثم فلا يوجد كيان ثابت للإنسان !
الإنسان هو حصيلة الظروف المادية والاقتصادية . وهو انعكاس الطور الاقتصادي الذى يعيش فيه . وما دامت هذه الأطوار دائمة التغير ، فالإنسان — حصيلتها وانعكاسها — ليس له كيان ثابت ، وإنما هو في تطور مستمر تبعاً لهذه التغيرات . والتطور يشمل كيانه كله : أخلاقه وعقائده وأفكاره وسلوكه الفردي والجماعي . . وكل شيء فيه .

كان الإنسان في المجتمع الزراعى يعبد الله . . لأنه . . يضع البذرة في الأرض ويطلب الحب من الرب ! لأنه عاجز بنفسه عن التأثير في عملية الإنتاج ، لاهو يستطيع أن يسرعها أو يببطها عن مدتها « الغيبية » ولا هو يستطيع — إلا بقدر ضئيل — أن يتحكم في النتائج [بالجهد المبذول من جانبه] فالأعاصير والآفات ، وتقلبات البرد والحر لاسلطان له عليها البتة . . ولا بد أن ينتظر فيها كلمة السماء . وكان الرجل هو المنتج الرئيسي ، وهو الذى يعول المرأة . ومن ثم كان هو المسيطر صاحب السلطان . وكانت الأسرة تمثل سلطان الزوج ، وهو حريص عليها شديد الحرص لأنها تهين له ذلك السلطان ، ومن ثم يفرض على المرأة قيوداً خلقية شديدة ، فالعفة شرط رئيسي لحياتها وعنصر لاغناء لها عنه . والعفة معناها [في هذا التفسير] أن يتأكد الرجل — صاحب السلطان — أن هذه

المرأة أو تلك له وحده لم يمسسها أحد غيره . ثم يحىء الدين [الذى يمثل هذا «الطور»] فيقول إن العفة مطلب إلهى من البشر ، عليهم أن يلتزموا به من أجل الله .

وكانت الحياة الزراعية بما فيها من تكاليف شاقة تستلزم نوعاً من التعاون الفردى ، فصار هذا التعاون خُلُقاً . . وصار جزءاً كذلك من مفهوم الدين .

وكانت الأسرة متعارفة ، بحكم قرابتها وتضامنها في محيطها المحدود ، وبحكم التعاون بينها في جمع المحاصيل وبيعها وتبادلها ، فكان هذا التعارف خُلُقاً . . وكان جزءاً من مفهوم الدين . . الخ . . الخ . .

ومن هنا كانت أخلاق المجتمع الزراعى ومشاعره ومفاهيمه ومبادئه وسلوكه العملى . . كلها نابعة من حقيقة الأرض ، ومرتبدة إليها . . فالأرض - بمفهومها الزراعى - هى التى تشكل حياة الإنسان .

ثم انتقل الناس إلى الطور الصناعى . . فتبدلت الأحوال . .

عملية الإنتاج لم تعد « غيبية » . فهى عملية منظورة . الآلة المنتجة منظورة ، والمادة المنتجة منظورة كذلك . و« الإنسان » هو الذى يديرها وليس « الله » [١] ومن ثم فلا ضرورة شعورية لعبادة الله !

والمرأة قد استقلت اقتصادياً بحكم سلسلة من الظروف الاقتصادية المتوالية . . فلم يعد الرجل هو الذى يعولها . ومن ثم لم يعد الرجل هو المسيطر . أو على الأقل لم تعد سيطرته مطلقة . فلم يعد فى وسعه - تدريجياً - أن يفرض العفة على المرأة . أى يفرض عليها أن تكون له وحده . فصار من حقها - تدريجياً - ألا تكون عفيفة . لأنها تستطيع حين يرفضها الرجل - إذا رفضها ! - لعدم عفتها ، أن تعول نفسها بنفسها . . ولأنها استقلت اقتصادياً اضطُر الرجل أن يحترمها ، وينزل لها عن سلطانه ، ويعطيها حق الإباحية الجنسية . . ثم انتهى الأمر أن يجذب هو تلك الإباحية بحكم « التطور » . .

وعاش الناس في المدينة - لا في القرية - بأعداد متزايدة ، ومن أصول غير متعارفة . فلم يعد التعارف شرطاً للحياة الإنسانية . وصار الخلق الجديد للمدينة - الخلق المتطور - أن يعيش كل إنسان حياته الخاصة في عزلة عن الآخرين . . عزلة شعورية وواقعية . .

وبطل التعاون الفردي ، لأن عملية الإنتاج صارت متخصصة ، كل عامل يلق مسامراً أو يخط خطاً أو يدفع شريطاً معدنياً أمامه . . إلخ . بلا تعاون ملموس بين واحد وواحد في المصنع الكبير . . فصار « عدم التعاون الفردي » هو الخلق الجديد المتطور . .

وهكذا استمد المجتمع الصناعي أخلاقه ومشاعره ومفاهيمه ومبادئه وسلوكه العملي من الآلة ، والإنتاج المادي . . فصارت الآلة هي التي تشكل حياة الإنسان . . وهكذا . . لا يكون شعور الناس هو الذي يعين وجودهم . ولكن وجودهم هو الذي يعين مشاعرهم ، على حد قول العالم الكبير كارل ماركس !

* * *

هكذا تحسب الحسبة في التفسير المادي للتاريخ !

ثم يجيء « علم » الاجتماع على هدى دركايم فيقول إن الدين والزواج والأسرة ليست فطرة لدى الإنسان ! وإنما هي من عمل « العقل الجمعي » ، وهو شيء [ما هو ؟] دائم التطور والتغير والتشكل ، لأن المجتمعات لا تثبت على حال واحد . ومن ثم فشكل مجتمع يصنع دينه [أولادينه] ونظم زواجه [أولاد زواجه] ونظم أسرته [أولاد أسرته] فإذا قال العقل الجمعي في طور من أطواره : ليكن دين . . فليكن دين ! وإذا قال : ليكن زواج . . فليكن زواج . وإذا قال : لتكن أسرة . . فلتكن أسرة . أما إذا قال - حسب هواه ، أو حسب « حتمية الظواهر الاجتماعية » التي لا تنشأ من ضمير

الفرد ولا فطرته ، ولا علاقة لها بمشاعره الفردية ، ولا برضاه أو عدم رضاه عنها —
إذا قال : ليكن لا دين . وليكن لازواج . وليكن لا أسرة . فسرعان
ما يرضخ الأفراد « لقهر الظاهرة الاجتماعية » فينسلخون من دينهم وأخلاقهم
ويتبرأون منها . ويحلون روابط الزواج والأسرة ، ويصبحون أى شىء يريد .
العقل الجمعى — سبحانه — لا قاهر سواه .

* * *

ثم تجيء بهرة العلم . .
الكهرباء بأعاجيبها . .
والآلة بضخامتها . .
والتغير الدائم . . كل يوم جديد . .

ما تكاد البشرية تفتح فاهها عجباً للتليفون — مثلاً — وقدرته السحرية
على نقل الصوت — فى أسلاك — عبر السهول والوديان والجبال ، حتى يكون
اللاسلكى قد لجأها بما هو أعجب وأشد فتحة للأفواه . وحتى يكون التليفزيون . .
وما تكاد البشرية تفيق من دهشة السيارة التى تسير بلا حصان . . بقوة
الاحتراق الداخلى ، كأنما يدفعها جن أو ساحر يسخر الجن ، حتى تفجأها
الطائرة . . ثم الصاروخ . .

وما تكاد تفيق من عملية النسج الآلية ، التى تقوم الآلة فيها بعمل ستة
من العمال دفعة واحدة ، حتى تفجأها الآلة التى تصنع كل شىء ! التى تقوم بعمل
ألف العمال ، على دقة وتمكن لا تطيقه طاقات الإنسان .

ثم تتوالى العجائب كل يوم وكل لحظة . . فتعطى الحياة شكلاً مختلفاً
فى كل لحظة ، وتغير مشاعر الناس وأفكارهم ومفاهيمهم ومبادئهم وسلوكهم
الواقعى كل لحظة . . سلوك ركب الجمل ومفاهيمه غير سلوك ركب السيارة

غير سلوك راكب الطائرة ، غير سلوك راكب الصاروخ المسافر بين الكواكب
في عصر الفضاء . .

فأنتي « للإنسان » أن يكون هو الإنسان . . بل أين هو الإنسان ذاته
في هذا السباق الجبار ؟ !

* * *

و حين نصل من القضية إلى هذا الحد . . حين تأخذ رموسنا تدور من
طين الآلات وانفجار الطاقات . . حين تبهر أعيننا شدة التغير ومداه . . فنظن
أن « الإنسان » قد تغير . . أو أنه لا يوجد وجود حقيقي للإنسان (١) . .
عند ذلك ينبغي أن نعود سريعا إلى شهادة التاريخ . . فهي العاصم لنا من
الدوار !

شهادة التاريخ .. هي الرد على هذه « التهيؤات » !
صورتان من الحياة يفصل بينهما ألف عام . . وتفصل بينهما أدوات مختلفة
من أدوات الإنتاج وأطوار مختلفة من العلوم والكشوف والاختراعات . .
ومع ذلك ينشلهان إلى هذا الحد الذي يثير الدهشة . . كادان في بعض
الجزئيات يتماثلان !
إذن . . ؟ !

لا بد أن هناك تفسيراً آخر « للإنسان » . .
ولا بد أن هناك عوامل أخرى غير هذه العوامل المنظورة ، هي التي تحكم
تصرفات الإنسان !

* * *

التفسير المادي للتاريخ يحاول أن يفسر الإنسان من الخارج . . يحاول
أن يفسره على أنه هو في ذاته عجيبة لينة قابلة للتشكل الدائم ، ومهمتها هي

التشكل الدائم .. لا قوام لها في ذاتها .. وإنما تستجيب دائماً للمؤثرات ..
ومن ثم تأخذ صورة القلب — الاقتصادي والمادى — الذى توضع فيه ،
ولا تضغط هى على الحوادث أبداً ، ولا يكون لها هى التأثير على هذا القلب ،
لأنه « حتمى » من ناحية ، ومن ناحية أخرى « مستقل عن إرادة الناس »
[كارل ماركس ^(١)]

والتفسير الجمعى للتاريخ يحاول كذلك أن يفسر الإنسان من الخارج ..
يحاول أن يفسره على أنه — أراد أو لم يرد — يتشكل على الدوام « بالقهر »
الاجتماعى الذى لا يراعى مشاعر الفرد ولا رغباته ، ولا علاقة له بها [دركايم] ^(٢)
وعلى أن الظواهر الاجتماعية لا صلة لها « بفطرة » الإنسان .. فالأمور التى يُظن
أنها من الفطرة ، كالدين والزواج والأسرة ، والقيم الخلقية ، ظواهر اجتماعية
في حقيقتها ، قد يرتضيها الفرد وقد لا يرتضيها ، ولكنها « تكون » ..
وبالتالى ، فإنه إما ألا تكون للإنسان فطرة ثابتة .. وإما أن هذه الفطرة
— على فرض وجودها — ليست مرجعاً لحياة الإنسان ! !

ثم تجيء شهادة التاريخ فتكذب هذا وذاك !
فكلا التفسيرين يعجز عن تفسير هذا التشابه العجيب في الحياة الاجتماعية
الذى يفصل بينه ألفا عام ..

التفسير المادى الذى يضع همه كله في التغيرات المادية وتطور أساليب
الإنتاج ، يعجز بداهة عن تفسير موقفين متشابهين من الناحية « الإنسانية »
لاشبه بينهما على الإطلاق في عالم المادة وأساليب الإنتاج !

(١) « في الإنتاج الاجتماعى الذى يزاوله الناس تراهم يقيمون علاقات محددة لاغنى عنها .
وهى مستقلة عن إرادتهم . وعلاقات الإنتاج تطابق مرحلة محددة من تطور قوائم المادية في الإنتاج .
والمجموع الكلى لهذه العلاقات يؤلف البناء الاقتصادى للمجتمع . وهو الأساس الحقيقى الذى
تقوم عليه النظم القانونية والسياسية ، والتى تطابقها أشكال محددة من الوعى الاجتماعى » [ماركس]
(٢) مرت بنا مقتطفات من أقواله في فصل سابق .

والتفسير الجمعى الذى يضع همه كله فى العقل الجمعى ، والقهر الاجتماعى
الواقع على الفرد الذى لا تحكمه الفطرة .. يعجز عن تفسير الموقفين المتشابهين ،
إلا على فرض واحد - لا يريد أصحابه الاعتراف به - هو أن يكون هذا
العقل الجمعى - على فرض التسليم بوجوده - جزءاً من فطرة الإنسان !

ولا تفسير لشهادة التاريخ إلا تفسير واحد : أن يكون للإنسان فطرة ،
وأن يكون لهذه الفطرة لون من الثبات ! وكل تفسير خلاف ذلك فهو عاجز عن
التفسير ، متمحل ، بجانب للصواب !

* * *

ما الذى أغرى تلك التفسيرات المنحرفة أن تصنع هذا الصنيع « بالإنسان » ؟
إنها مزية الإنسان العظمى ، التى ميزه الله بها عن الحيوان ، هى ذاتها التى
تجعل هذه التفسيرات المنحرفة تنزله من مكانه الرفيع ، فترده إلى وضع أسوأ
حتى من الحيوان !

المرونة .. وتعدد الجوانب !

ويعجب الإنسان حين ينظر إلى تلك التفسيرات القاصرة الزائفة ، كيف
تشوه المزية التى وهبها الله للإنسان ، ليوسع حياته ويثريها ، ويعدد أنماطها
ومستوياتها ، واتجاهاتها وألوان نشاطها .. فتقلبها - فى تفسيرها - أداة للسلبية
والخنوع ، والانطباع الدائم بالمؤثرات المادية « المستقلة عن إرادة الإنسان »
أو القهر الاجتماعى « المستقل عن كيان الفرد » .. أو ماشابه ذلك من المؤثرات
المرونة التى مكنت الإنسان أن « يواجه » البيئة المادية فى جميع ظروفها
وحالاتها ، فيسيطر عليها فى النهاية على نحو من الأنحاء [« وسخر لكم ما فى
السموات وما فى الأرض جميعاً منه »]^(١) ولا يفتنى ولا يدول حين تواجهه الصعاب .

[(١) سورة الجاثية [١٣]]

وتعدد الجوانب الذى تتمثل فيه عبقرية الإنسان ، والذى أتاح له أن «ينشئ» الحضارات المختلفة ، وأن يجعل هذه الحضارات شاملة لنشاط الروح ونشاط الفكر ونشاط الجسد . . شاملة للجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والمادية والفكرية والروحية . .

هذه المزية وتلك — وكلتاها موهوبتان للإنسان ليعطياه إيجابية وحيوية فاعلة — تردهما التفسيرات المنحرفة الزائفة إلى سلبية بغيضة تتأثر بالأحداث من الخارج ، ولا تؤثر هي من الداخل فى الأحداث !

المرونة — القابلية للتشكل الدائم — أغرت التفسير المادى للتاريخ أن يظن أنه لا يوجد « كيان » ثابت للإنسان . وأنه ليس لهذا الكيان كلمة ذاتية فى الموضوع ! عليه فقط أن يتلقى فيستجيب !

وتعدد الجوانب — وخاصة بروز بعضها أحياناً وانحسار بعض — أغرت هذا التفسير والتفسير الجمعى كذلك أن يظن أنه لا يوجد كيان ثابت للإنسان ، وإنما هي « أطوار » لا يجمعها فى النهاية كيان !

وهذا وذاك — وغيرهما من التفسيرات الزائفة المنحرفة — يأخذون جزئية صغيرة ، أو وجهاً واحداً من وجوه الإنسان ، ويفسرون على ضوءه الإنسان كله ، فيخرج من بين أيديهم مشوه الكيان !

* * *

والإنسان فى حقيقته أكبر من تلك الجزئية الصغيرة وأكبر من ذلك الوجه المفرد الذى تفسر من خلاله الحياة .

ومرونته وتعدد جوانبه اللذان أغريا هذه التفسيرات الجزئية أن تشوه صورته هما مزيتان إيجابيتان على مدار التاريخ ، وإن كان لهما — بالفعل — وجه سلبي هو الذى تركز عليه هذه التفسيرات ! !

إن الإنسان المزدوج الطبيعة ، المكون من قبضة الطين ونفخة الروح ، متحدتين متمزجتين^(١) ، يحمل في كل تصرفاته وجهين متقابلين . ومن مجالات هذا الازدواج أن توجد فيه هاتان الصفتان المتقابلتان : السلبية والإيجابية ، وأن تشبهاً — من الجانبين — كل تصرفاته ، في اللحظة الواحدة وفي جميع اللحظات . وإن كان في طبيعته أن يمنح أحياناً بهذه الصفة أو تلك ، فتزيد نسبتها مؤقتاً ، ثم يعود — مادام سوياً — إلى الاتزان . وتلك هي الحقيقة الكبرى التي غابت عن وعى تلك التفسيرات ، فوقعت فيما وقعت فيه من انحرافات !
والآن نعود إلى القضية الأساسية في هذا البحث . . قضية الثابت والمتطور في كيان الإنسان .

ما « الفطرة » الإنسانية . وما دلالتها في حياة الإنسان ؟
وإذا كانت للإنسان فطرة « ثابتة » فما تفسير التغير الدائم في حياة البشرية الذي يصل من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال ، والذي لا تتماثل فيه حالتان من حالات الإنسان ، وإن تشابهتا تشابهاً شديداً في بعض الأحيان ؟
بل قبل ذلك . . ما الذي يثبت لنا أن للإنسان « فطرة » على الإطلاق ؟
ولماذا لا يكون — كما يفسره علم النفس التحليلي — مجموعة من الحالات النفسية المتتابعة بلاوحدة ، أو — كما يفسره التفسير المادي للتاريخ — مجموعة من الأطوار ؟
الذي يثبت ذلك هو الإنسان ذاته ! وهو تاريخ الإنسان !

فلننظر إلى « الدوافع الفطرية » . . هل لها وجود حقيقي ملموس بارز . . وهل هذا الوجود ثابت أم يتغير بتغير « أطوار » الإنسان ؟

« حب الحياة » هو الدافع الأكبر للإنسان . وهو دافع مشترك بين جميع الأحياء . كلهم يحبون الحياة ويتشبثون بها ، ويعملون على البقاء فيها أبداً . . وإن كان من طبيعتهم أن يصيبهم الفناء . ولكن ميزة الإنسان العظمى في كل

(١) انظر بالتفصيل فصل « خطوط متقابلة في النفس البشرية » في كتاب « منهج التربية الإسلامية » وفصل « طبيعة مزدوجة » في كتاب « دراسات في النفس الإنسانية » .

جوانب حياته هي الوعي والإدراك وحرية الاختيار . فهو يحب الحياة ويدرك أنه يحبها ، ويعي لهذا الحب أهدافا وغايات ، ثم يختار - في نطاق الحرية المخولة له في فطرته - اللون أو الصورة التي يمارس بها حب الحياة .

هل هذا الدافع ثابت في كيان الإنسان أم متغير ؟

هل يحىء على البشرية طور لا تحب فيه الحياة ؟

إن حالات الانتحار - وهي الشذوذ المنحرف إلى أسفل - وحالات التضحية بالنفس - وهي حالات الارتفاع - لا تنفيان هذا الدافع ، بل ربما تؤكدانه . . فضلا عن أنها - من جانبها - حالات نادرة في البشرية !

إن الذى يؤدى به الشذوذ المنحرف إلى الانتحار ، شخص يحب الحياة جداً في حقيقة الواقع ، ولكنه لا يجد فيها متاعه المنشود الذى يحبه ، فينتحر لأنه لا يطيق الحرمان من ذلك المتاع !

والذى يؤدى به الارتفاع إلى التضحية بالنفس في سبيل عقيدة أو فكرة ، يحب صورة من الحياة أعلى من الصورة الواقعة . وفي هذا المستوى العالى يقدم حياته الخاصة في سبيل أن يحقق صورة من الحياة أفضل - على هذه الأرض - أو في سبيل أن ينال حياة أفضل من حياة الأرض كلها - في الآخرة - فهي إذن دفعة متسامية لتحسين هذه الحياة ، وليست خروجاً على حب الحياة !

ثم تأتى الحالات « العادية » كلها تؤكد عمق هذا الدافع في حياة كل إنسان رغم التباين الواسع ما بين إنسان وإنسان .

وحب الحياة يتفرع عنه فرعان كبيران : حب الذات [أو حفظ الذات] وحفظ النوع .

فهل من شك في هذا أو ذاك ؟

ولإذا قسمنا هذين الدافعين إلى فروعهما المتميزة - المتشابهة في النهاية - وهي دافع الطعام والشراب والملبس والمسكن . ونزعة الملك . ونزعة القتال

أو الصراع . ونزعة البروز والتمييز . ودافع الجنس^(١) . . فلننظر في كل منها على حدة ، لنرى هل هي نزعات ثابتة في الكيان البشري ، أم إنها توجد وتختفي حسب الأحوال ؟

المأكل والمشرب والملبس والسكن . . لم يجادل فيها أحد بعد مجادلة جدية (!) [ربما تجادل « الحضارة » الغربية التقدمية الراقية في مسألة العرى الكامل على الشواطئ وفي الأدغال ! وبصرف النظر عن هذه النكسة الحيوانية البشعة ، فإنها تأخذ صورة وقتية . . للاستمتاع كما يقولون ، ثم يعود العرايا فيابسون ! ومن ثم فلا جدال من حيث المبدأ !]

وطاقة الجنس كذلك . . لم يجرؤ أحد بعد أن يقول إنها مستمدة من الطور الاقتصادي أو المادى ! وإنها توجد - مثلاً - في المجتمع الرعوى ولا توجد في المجتمع الزراعى . أو توجد في السيد - مثلاً - ولا توجد في الرقيق ! إنما أقر الجميع بأنها مسألة جسدية بحتة ، أو جسدية نفسية . توجد حين توجد الغدد المهيمنة عليها وتؤدي وظيفتها الصحيحة ، وتغيب حين يختل عمل الغدد اختلالاً وظيفياً لا شأن له بأساليب الإنتاج وأطوار التاريخ !!

ولكن الشيوعية بصفة خاصة قد حاولت أن تنتزع نزعة معينة من هذه النزعات الفطرية وتلقيها خارج كيان الإنسان .. لتنفى وجودها من ناحية ، ومن ناحية أخرى تنفى وجود كيان ثابت للإنسان ! تلك هي نزعة الملك .. وذلك لغاية في نفس يعقوب .. لتصادر الملكية الفردية وتستبدل بها الملكية الجماعية . وقد ناقشت هذا الأمر في كتاب « الشبهات » وكتاب « الدراسات » . وما بي من ميل هنا إلى إعادة المناقشة التفصيلية التي بينت فيها ضلال هذه الدعوى

(١) فصلنا الحديث عن هذه الدوافع في فصل « الدوافع والضوابط » في كتاب « دراسات في النفس الإنسانية » ولا نملك الحديث عنها هنا بالتفصيل بطبيعة الحال ، وإنما نأخذ خلاصتها في هذا البحث ، فمن يرغب في التفصيل فليكنه هناك !

وبطلانها . ولكنى - توفيراً للجدل هنا - أقول إن الشيوعية ذاتها ، حين نقلت « الملك » من الفرد إلى المجموع ، لم تنسك نزع الملك في الحقيقة من حيث هى . . وإنما أرادت فقط أن تتحايل عليها وتوجهها إلى أفق آخر يخدم أغراضها المذهبية .. ومع ذلك فقد اضطرت أخيراً إلى التسليم بالأمر الواقع ، وأباحت أواناً من الملكية الفردية - فى المواد الاستهلاكية - ترضى بها نزع الملك الفردية فى الإنسان . . وهذا يكفى !

كذلك حاولت الشيوعية أن تصنع مثل ذلك فى نزع البروز . حاولت أن تقتلها فى مجالها الفردى . فلا يبرز الفرد إلا لحساب المجموع ! وسارت خطوات وتخبّطت فى الطريق ! وكان ستالين ذاته - بزعامته الفردية الطاغية التى اعترف بها خروشوف فيما بعد ! - أكبر تكذيب عملى لهذه « الأيديولوجية » الخيالية الفارغة . . ثم عادت الشيوعية فسلمت بالأمر الواقع ، وأباحت التفاوت فى أجور العمال - أجور الطبقة الواحدة والعمل الواحد - لمن أراد أن يبذل جهداً أكبر ويحصل على أجر أكبر ، ينفقه فى « الكماليات » . . إنها نزع البروز إذن فى صورة من الصور . . الفردية فى نهاية المطاف !

أما نزع القتال والصراع ، فالأمم منذ القدم حاولت أن توجهها وجهة جماعية ، فى الحرب من أجل المجموع ، أو العقيدة ، أو ماشابه ذلك من الأهداف العامة . أو وجهة فردية متسامية ، فى المسابقات التى تهدف إلى « الفوز » وهو غاية القتال والصراع . وكل هذه المحاولات لا تنفى على أى حال وجود هذه النزعة فى صورتها الفردية ، وإنما تحاول فقط أن تستغلها لخير المجموع .

* * *

تلك نوازع الفطرة الرئيسية . . فما الذى يتغير أو يتطور فيها على مدار التاريخ ؟ !

إن قوماً سيقولون بلا شك : لقد تحدثت عن الإنسان من الداخل .

ولم تتحدث عن واقع البشرية : عن الكيان الاقتصادي والكيان الاجتماعي والسياسي المتغير . عن الإنتاج وأساليبه وصراعاته . عن التقدم والتطور الدائم في حياة الإنسان ..

نعم . تحدثنا عن الإنسان من الداخل ..

ولكن .. هل الحياة الواقعية إلا الانعكاس الحقيقي لكيان الإنسان ؟ ! كيف إذن نوفق بين الكيان الإنساني الثابت ، وبين تغير الحياة الإنسانية على الدوام ؟

إن « الصورة » التي يترجم بها الإنسان عن دوافعه الفطرية تتغير و« تتطور » من جيل إلى جيل .. تتطور بفعل الاحتكاك الدائم بين العقل البشري والكون المادي ، ونشوء صور جديدة للحياة الواقعية نتيجة لهذا الاحتكاك . هذه حقيقة ..

ولكن .. حين تتغير « الصورة » .. هل يتغير « الإنسان » ؟ ! فلنأخذ مثلاً نزعة الطعام ..

إنها نزعة فطرية ثابتة في جميع الأناس ، بل في جميع الأحياء ، ولكن « صورة » الطعام تتغير وتتطور .

يأكل الإنسان فريسة نيئة في عصر الصيد ، لأنه لا يملك وسيلة أخرى للأكل . إمكانياته المادية لا تسمح له بأكثر من ذلك . ومعارفه ومعلوماته قاصرة عند هذا الحد . ثم يكتشف النار . فيتيح له هذا الاكتشاف علماً جديداً كل الجودة ، ويغير « شكل » حياته كله . وفي ميدان الطعام بصفة خاصة تتغير الصورة ، فيطهو الإنسان اللحم قبل أن يأكله . ولكنه مازال ينهشه نهشاً بالأصابع والأسنان . ثم يرتقى ويستحدث مختلف الأدوات . يستحدث سكيناً يقطع بها اللحم قطعاً صغيرة يستطيع إمساكها بيده ووضعها — لانهاشها — في فمه . ثم يرتقى أكثر ، ويستحدث مزيداً من الأدوات ، وتعدد ألوان طعامه ،

ويتأق فيها ، ويجعل للطعام آداباً وقواعد وتقاليد .. و«فنونا» لا تفرغ منها البشرية !
ما الذى تغير ؟ ! نزعة الطعام ذاتها أم صورة الطعام ؟ !

ولنأخذ مثلاً نزعة السكن ..

إنها نزعة ثابتة فى الفطرة .. كل البشر — بل كل الأحياء — يسعون
إلى اتخاذ المسكن . ولكن « صورة » المسكن تتغير وتتطور .

يسكن الإنسان فى مبدأ حياته فى الكهوف . لأن إمكانياته المادية لا تتيح
له شيئاً يسكن فيه سوى هذه المساكن « الجاهزة » غير المصنوعة ، ولأن
معلوماته وخبراته المحدودة لا تتيح له أن « يصنع » مسكناً لنفسه فى أية صورة .
ثم تتغير ظروف حياته وتزداد خبراته ومعلوماته ، فيسكن فى « عش » فى أعلى
الأشجار أو فى كوخ بجانب الماء . ثم فى مساكن من الغاب وبيوت من الطين .
ثم فى بيوت من الحجر أكبر وأفسح .. ثم فى ناطحات السحاب على الأرض .
أو فيما لا نعلم غداً على سطوح الكواكب حين يصل إليها بالصواريخ ..
ما الذى تغير ؟ ! نزعة السكن أم صورة المساكن ؟

ولنأخذ نزعة اللباس ..

نزعة فطرية فى بنى آدم منذ طفق آدم وحواء يخصفان على سواتهما من
ورق الجنة إلى الوقت الحاضر .. ولكن صورة اللباس تتغير ..

« يلبس » الإنسان أوراق الشجر ، أو بالأحرى يغطى بها عوراته ولا زيادة ،
لأن إمكانياته المادية لا تتيح له أن « يصنع » لنفسه ملابس ، ولأن معلوماته وخبراته
المحدودة لا تتيح له أكثر من المادة الجاهزة يغطى بها من جسمه ما تستطيع تلك المادة
أن تغطيه .. ثم يرتقى .. يستجد معلومات وخبرات ويزداد إمكانيات .. فيغطى
عوراته بقطعة من الجلد ، أكثر إحكاماً من ورق الشجر وأكثر سترًا للعورات ..
ثم ينسج قطعة من القماش يودى بها الفرض ذاته .. ثم تزداد ملابسه تنوعاً

وتألقا .. حتى تصير لها قواعد وآداب وتقاليد .. وتصبح فذا من فنون البشرية ..
ما الذى تغير ؟ ! نزعة اللبس ذاتها أم صورة اللباس ؟

ولنأخذ دفعة الجنس ..

دفعة فطرية تشترك فيها الأناسى وكثير من الأحياء .. ولكن « صورة »
الجنس تتغير . ولانقول هنا « كانت » ثم « صارت » فمازالت تتقلب إلى هذه
اللحظة بين ما كانت عليه وما صارت إليه ! [وسنعود إلى الحديث عن هذه
النقطة بالذات بعد قليل] وإنما نقول إنها تارة تكون دفعة مباشرة كدفعة
الحيوان . كل هها اللقاء الجنسي ، وإرواء دفعة الجسد الهائج فى سورة الغريزة .
وتارة تكون مسبوقة بأنواع من الغزل العنيف أو الرقيق [كما يختلف فى عالم
الحيوان ذاته بين « غزل » النور المحطم المدمر ، وبين رقة الغزل عند الحمام
وأأنواع أخرى من الطيور !] وتارة تخضع للتنظيمات الخلقية والدينية والاجتماعية
والاقتصادية . وتارة تتحلل من هذه القيود . ولكن لها على أى حال — ككل
النزعات الفطرية الأخرى — قاعدة دنيا أقرب إلى عالم الحيوان ، وقمة عليا أليق
بالإنسان .. ولكن .. حتى فى هذا الأمر ..

ما الذى تغير ؟ ! دفعة الجنس ذاتها أم صورة اللقاء ؟

ولنأخذ نزعة الملك ..

نزعة فطرية رغم جدل الشيوعية ! يثبتها كما قلنا اضطرار الشيوعية إلى
إباحة الملكية الفردية فى بعض الأمور .. ولكن صورة الملك تتغير . فى فترة
من الفترات لم يكن هناك ما يملك ! لم يكن الصيد الذى يصيده الإنسان ملكا
لفرد بعينه لأنه لا يستطيع أن يمتلكه وهو لا يصيده بجهد وحده من ناحية ،
ولا يستطيع أن يحتفظ به من ناحية أخرى لأنه ينتن ويفسد . ولكن حتى فى
فى ذلك الحين كان يثور الصراع على « امتلاك » امرأة . فيتصارع من أجلها

الرجال . ثم صار هناك « إنتاج » يمكن أن يمتلك . فامتلك الإنسان الأدوات البسيطة التي أنتجها . ثم امتلك المحاصيل حين تعلم الزراعة . وامتلك حيوان الزراعة المستأنس حين تعلم كيف يستأنسه . وامتلك الأرض التي تغل المحاصيل . ثم امتلك المصانع . واليوم يمتلك للقنابل والصواريخ ! وقد يمتلك الكواكب في الغد القريب أو البعيد . .

ما الذى تغير ؟ ! نزعة الملك أم صورة التملك ؟

ولفأخذ نزعة البروز . .

نزعة فطرية تدفع البشرية من مولدها إلى حاضرها . بل هى موجودة عند كثير من الحيوان . . ولكن صورة البروز تتغير . ولعلها من أشد النزعات تباينا وتشكلا فى حياة الإنسان . يبرز فى عصر الكهوف بالقوة البدنية الفائقة التى يصطاد بها الصيد ويحارب الوحوش والأعداء . . ثم يبرز بالحيلة . أى بالتفكير . ويبرز بمحاولة الاختراع . أى بالمهارة . ويبرز بالجمال . ويبرز باللبس والمساكن والمأكل والمشرب . ويبرز بالجنس « فيقتنى » النساء . ويبرز بالقتال والصراع . ويبرز بالطاعة ويبرز بالمعصية ! يبرز بالخير ويبرز بالشر . يبرز فى المسابقة الرياضية والمسابقة العلمية والفنية . يبرز فى السياسة . يبرز بالقدرة على الكلام والتأثير . أو القدرة على الدس والخديعة . . ألوان مختلفة من البروز ومستويات مختلفة . .

ما الذى تغير ؟ ! نزعة البروز أم صورة البروز ؟

ولفأخذ نزعة القتال والصراع . .

نزعة فطرية فى البشرية وغيرها من الأحياء . . ولكن صورة القتال تتغير . القتال بالقوة البدنية المباشرة ، القوى يصرع الضعيف . والقتال بالهراوة والخجر الضخم . والقتال بالحيلة والخديعة . والقتال بالأدوات المسنونة : السهم والرمح

والسيف . والقتال بالمقلع . والقتال بالبارود . بالرصاص والقنبلة . والقتال بالصواريخ وأشعة الجراثيم وأشعة الموت وأشعة النوم وال... ؟ !
ما الذى تغير ؟ ! نزعة القتال أم صورة القتال ؟

* * *

تلك حياة البشرية من الداخل والخارج فى ذات الوقت . . فى المشاعر الدافعة والصورة الواقعة . فى « الإرادة » و « التطبيق » . فى « الفكرة » و « الواقع » أو الفكرة والمادة .

ما الذى تغير فى عصور التاريخ ؟ ما الذى تغير فى « الإنسان » حين استجد أدوات ووسائل للطعام ، وأدوات ووسائل للسكن ، وأدوات ووسائل لللبس ، وأدوات ووسائل للنشاط الجنىسى ، وأدوات ووسائل للملك ، وأدوات ووسائل للبروز ، وأدوات ووسائل للصراع ؟ !

هل تغير « الإنسان » ؟ هل تغيرت دوافعه حين جدت له الوسائل والأدوات ؟ هل صار لا يأكل ؟ لا يشرب ؟ لا يلبس ؟ لا يسكن ؟ لا ينشط نشاط الجنس ؟ لا يملك ؟ لا يحاول الصراع ؟ !

هل جدت له دوافع جديدة لم تكن له من قبل أو انحمت من نفسه دوافع كانت فيه ؟

ماذا على وجه التحديد ؟ !

حقاً لقد حدثت فى حياته تغيرات ضخمة ، ما بنا أن نكرها أو نففلها من حسابنا ! بل نحن نريد أن نثبتها ونبرزها ونؤكد عليها !

إنسان الغابة غير إنسان المرعى غير إنسان القرية غير إنسان المدينة . . وإنسان الحضارة المحدودة غير إنسان الحضارة العالية . . غيره فى طريقة التفكير والتصور . غيره فى تناول الحياة . .

غيره على أنحاء شتى . . ومستويات متباينة .

ونريد هنا أن نفرز أنواع التغير والتطور — فإنها متباينة — ثم ننظر هل هذه التطورات ذاتها جزء من الفطرة . الفطرة الثابتة . داخل في كيانها . أم عنصر جد على الإنسان من أثر التطور المادى وتقدم الوسائل والأدوات ، لنحكم على دلالة التغير بالنسبة للفطرة ، ولكى نستخلص أخيراً من هذا الحكم : هل هناك مقياس من الفطرة يقاس به التطور ويرجع إليه ، ويحكم عليه إن كان تطوراً فاسداً أم يسير في طريق الصلاح . . أم إنه ليس هناك مقياس ؟

تلك أمور على أعظم جانب من الأهمية في قضية التطور . . فإن القوم المصابين بلوثة التطور في الغرب ، ومن أخذ منهم العدوى في الشرق ، لا يفرقون بين تغير تغير ، ولا يقيمون مقياساً تقاس به الأمور . لأن التطور — في نظرهم — مقياس لذاته ! لا يحكم عليه بشيء — كما يقولون — من خارجه ! فإذا سار نحو الفردية الجانحة — مثلاً — فلأن الظروف الاقتصادية والاجتماعية تدفع إلى ذلك وتحتّمه ، ومن ثم لا يحكم عليه بأنه خطأ أو صواب ! والحكم الوحيد هو الظروف الاقتصادية والاجتماعية . فإذا كان يقتضى الفردية ويحتّمها فالفردية عندئذ صواب . وإذا كان يقتضى الجماعية ويحتّمها فالفردية إذن — إن وجدت — خطأ ينبغى أن يصحح ! ولا يوجد مقياس ثابت تقاس إليه الفردية الجانحة أو الجماعية الجانحة فتخطّأ أو تصوّب ، وتمنع أو تجاز !

وإذا سار المجتمع نحو الأخلاق التى تحرم النشاط الجنسى خارج نطاق الأسرة ، وتفرض العفة على المرأة ، أو عليها وعلى الرجل ، فليس ذلك لأن هذه الأخلاق قيمة موضوعية لها مقياس من فطرة الإنسان تقاس إليه ، وإنما لأن التطور الاقتصادى الاجتماعى يقتضيها ويحتّمها ، فهى صواب إذن في نطاقها هذا وظروفها تلك . فإذا تغير الظروف الاقتصادى والاجتماعى ، وصار يقتضى التحلل الجنسى والإباحية ، والتخلص من قيود العفة ، وممارسة النشاط الجنسى

الحر في الشوارع أو الغابات أو شواطئ البحيرات ، فهذا إذن صواب بمقياسه الخاص ، لأنه لا مقياس من الفطرة ولا مقياس من أى شيء « خارج » الظرف الاقتصادي والاجتماعي ..

وهكذا يقولون في كل جانب من الحياة البشرية ..
لذلك ينبغي ونحن نناقش هذه القضية الخطيرة أن نضع نصب أعيننا تلك الأمور التي أشرنا إليها آنفا :

ما أنواع التغير؟ [فإنها أنواع متباينة] ..
هل التغيرات التي حدثت في التاريخ جزء من الفطرة أم أمور جدت عليها من خارجها بفعل التطور المادي ؟
ما دلالة هذه التغيرات بالنسبة للفطرة السوية [هل هي متمشية معها أم ضدها] ؟
ما المقياس الذي يقاس به التطور ؟ [إن كان فاسداً أو يسير في طريق الصلاح]

• • •

ونبدأ بفرز أنواع التغير التي أصابت البشرية منذ مولدها ، كما يتبين لنا من الدراسة العلمية للإنسان الأول والمجتمعات الأولى ، وكما يتبين لنا من دراسة التاريخ .
هنالك - على الأقل - أربعة أنواع متميزة من التغير أو التطور :
• التطور في الأدوات وأساليب الإنتاج .
• التطور في التشابك الاقتصادي والاجتماعي في بنية المجتمع .
• التطور « النفسي » [السيكولوجي] .
• التطور [أو التغير] الأخلاقي .

والتفسير المادي للتاريخ - وإن لم يفرزها كما نفرزها نحن ، لأن هذا أمر لا يعنيه ! - يجعلها كلها - جملة واحدة - مرتبطة بعضها ببعض ، ثم مرتبطة بالتطور في أساليب الإنتاج وناشئة عنه !

ونحن نرى الارتباط واضحا ووثيقا بين التطور في استعمال الأدوات وأساليب الإنتاج ، والتطور في البنية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع . وإن كنا — كما سيجىء — لانحِب أن نعتقد أن الارتباط ناشئ من علاقة سببية مباشرة . أى لانحِب أن نعتقد أن السبب الوحيد في تطور البنية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع هو تطور الأدوات وأساليب الإنتاج . فهذا سبب واحد ، ومعه أسباب أخرى نفسية سنبينها . ولكننا نقول فقط إن هناك ارتباطا كبيرا بين هذا وذاك .

أما التطور النفسى — أى التمتع في الكيان النفسى للإنسان ، وزيادة التشابك بين أطرافه — فالتفسير المادى للتاريخ يؤكد أنه نتيجة مباشرة لتطور أساليب الإنتاج . ولا شك عندنا أن تطور أساليب الإنتاج عامل مؤثر ، بل شديد التأثير . ولكننا نريد أن نبين — رغم ذلك — أن هذه الظاهرة ، وهى التطور النفسى ، ظاهرة مستقلة إلى حد كبير ، يمكن أن توجد بمنأى عن تطور أساليب الإنتاج ، كما وجدت في الحضارات القديمة ، ووجدت في أعلى مراحلها في الإسلام !

وأما التطور [أو التغير] الأخلاقى فنحن نرفض ابتداء أن نعلقه بتطور أساليب الإنتاج ! ونحتكم في ذلك إلى شهادة التاريخ !

ولكننا — قبل المضى في البحث — نؤكد حقيقة تهدينا إليها الدراسة النفسية ، وهى أنه لا توجد في الحياة البشرية ظاهرة مستقلة تمام الاستقلال عن الأخرى ! إنما قلت عن التطور النفسى إنه ظاهرة مستقلة إلى حد كبير . ولم أقل منفصلة . لأنه لا انفصال البتة بين شئ وشئ في الحياة البشرية . الإنسان يمارس حياته بكيانه كله . وهذا الكل الشامل الذى يتكون منه الإنسان يحتوى على جوانب متخصصة ، ولكنها ليست منفصلة . كعملية الإبصار يختص بها الجهاز البصرى ، فلا يبصر الإنسان برجله أو بظهره أو بأذنه . ومع ذلك

لا ينفصل الجهاز البصرى عن بقية الجسم وكما توجد فى الجسم أجهزة شديدة التخصص كجهاز الإبصار أو السمع ، فإن فيه كذلك أجهزة أقل تخصصاً [أو أوسع نطاقاً] كجهاز الدورة الدموية الذى يدخل فى كل أجزاء الجسم . وكذلك الأمر فى الكيان البشرى فى مجموعه : فالتطور فى استخدام الأدوات وأساليب الإنتاج يؤثر فى الحياة البشرية كلها . نعم ولا شك . ولكن التطور النفسى والتطور الخلقى عمليتان شديدتا التخصص كالسمع والإبصار !
وننتقل بعد هذا من الإجمال إلى التفصيل . . .

* * *

حين انتقل الإنسان من أكل الفريسة النيئة إلى الطهو على النار . . إلى استخدام السكن . . إلى التأنيق الشديد فى الطعام . . إلى وضع القواعد والآداب والتقاليد بشأنه . . إلى تحويل الطعام إلى « فن » قائم بذاته . .

وحين انتقل من سكنى الكهوف إلى سكنى الأشجار إلى سكنى الأكواخ . . إلى بناء البيوت من الطين . . إلى إقامة المائر الفخمة ذات الهندسة المتقنة . . إلى التأنيق إلى تحويل السكنى إلى « فن » قائم بذاته سواء فى المبنى أو مافى داخل المبنى من الأثاث . .

وحين انتقل من اتخاذ ورق الشجر لباساً إلى اتخاذ الجلد إلى اتخاذ القماش . . إلى التأنيق الشديد فى اللبس . . إلى وضع قواعد للملابس وآداب وتقاليده . . إلى تحويل اللبس إلى فن قائم بذاته . .

وحين انتقل من التعبير المباشر عن الجنس . . إلى اتخاذ التقاليد والنظم والقواعد والمراسم والاحتفالات . . إلى التوسع فى مفهوم الجنس ذاته حتى يتحول إلى فن قائم بذاته ، وتنشأ من حوله فنون مختلفة ، فى الأدب والتصوير الموسيقى والنحت والرقص الغناء . .

وحين انتقل في الملك من تملك الأشياء الفجة إلى تملك الأرض والرقيق . .
إلى تملك المصانع . . إلى تملك « رأس المال » كقوة اقتصادية واجتماعية
وسياسية . . إلى تملك الأمم والشعوب . . إلى تملك الكواكب في المستقبل
المنظور . .

وحين انتقل من البروز الجسدى الحسى إلى البروز النفسى والبروز الروحى . .
وشمل البروز كل الانتقالات السابقة فى المطعم والمسكن والملبس والجنس والملك . .
وحين انتقل من القتال بالقوة البدنية المباشرة إلى استخدام الحجر الثقيل
إلى استخدام الهراوة القاتلة إلى استخدام الأداة المسنونة من سهم أو رمح
أو سيف . . إلى استخدام البارود . . إلى استخدام الطاقة الذرية . .
ما الذى حدث على وجه التحديد . . وكيف ولماذا حدث ؟

يقول التفسير المادى للتاريخ إن استخدام « الأدوات » هو السبب فى هذا
الانتقال . فلولا لم ينتقل الإنسان من طور إلى طور ، وبالتالي لم يعدل كل
حياته على أساس جديد . فلولا اكتشاف النار ما تمكن الإنسان من طهو الطعام .
ولولا اختراع النسيج ما تمكن من نسج ملابسه ، وبعد ذلك تفصيلها على قد
الإنسان . ولولا استخدام الأدوات ما أمكن البناء . الخ . ثم — يقول
التفسير المادى للتاريخ — إن استخدام الأدوات يحدث تغييرا حتميا فى المشاعر
والأفكار والقيم والمبادئ . . فحين اكتشف الإنسان النار فكر أن يطهو
الطعام ، وفكر بالتالى فى فنون من تحسين الطعام لم تكن لتخطر على باله
لو لم يكتشف النار . وحين اخترع المغزل والمنسج فكر أن ينسج الأقمشة ،
وفكر بالتالى فى تفصيل الملابس والتأنق فيها ، ولم يكن شئ من ذلك ليخطر
على باله لولا اختراع المغزل والمنسج . وحين أمكنه استخدام الأدوات المسنونة
فكر فى استخدامها فى الصيد والقتال . . وحين اكتشف الزراعة فكر فى

تملك الأرض والإغارة على أرض الآخرين وأسر الأسرى واسترقاقهم ليعملوا له فى الأرض .. وهكذا نشأت نتائج اقتصادية واجتماعية وسيكلوجية وأخلاقية حتمية نتيجة اكتشاف الأدوات واختراع المخترعات .. وعلى هذا تصبح الأدوات والآلات هى المحرك الأول والدائم لحياة البشرية !
والقضية بصورتها هذه براءة وخادعة ..

فحين يكون السبب والنتيجة متلاحقين فى سلسلة متصلة ، فإنه تسهل الخديعة ، ويسهل الانخداع ! ويسهل على من يريد ، أن يوحى أو يعتقد أن النتيجة هى السبب والسبب هو النتيجة . .

ولكن هذه القضية « العلمية » التى تناولها التفسير المادى للتاريخ بهذه الصورة، لها وجه آخر « علمى » لا يصعب علينا الوصول إليه لو بحثنا الأمر فى هدوء بعيدا عن البريق الخاطف الذى تقدمه « العلوم » « والدراسات العلمية » فى القرن العشرين !

أولا .. لماذا اكتشف الإنسان النار ؟ !

ثانيا .. لماذا استخدمها - حين اكتشفها - فى « تحسين » الطعام بطهوه ؟ !

ثالثا .. لماذا لم يقف عند الدرجة التى وصله إليها اكتشاف النار وهى مجرد

طهو الطعام ، فراح يتفنن فى الطعام المطهو درجات بعد درجات ؟ !

رابعا .. حين لان له الحديد والنحاس والبرونز والذهب والفضة ، أى دافع حتى دفعه أن يتخذ الملاعى والشوك والسكاكين وهى ليست داخلية فى عملية الطعام ذاته كضرورة بيولوجية ، ثم أى دافع حتى دفعه أن يتخذ من أدوات الطعام هذه أداة للزينة ، فيتفنن فى صنعها ، وتجميلها ، ونقشها ، ثم .. ما علاقة هذا كله « بالقيم » التى اتخذها حول الطعام : سواء فى رسم قواعد له وتقاليده ، أو فى طريقة توزيعه بين الناس ، أو فى التمييز بين الطيب منه والخبيث على غير المستوى الحسى الذى تقرره المعدة .. أى على مستوى الحلال والحرام ؟ ! !

وكذلك .. .

لماذا اخترع المغزل والمنسج ؟

لماذا استخدمها - حين اخترعها - في نسج القماش ثم في « تحسينه » ؟
لماذا لم يقف عند حد استخدام النسيج ، فراح يتفنن في الملابس فيما وراء
مستوى الضرورة ؟

وأى علاقة بين هذا التحسين الذى أنتجته الأدوات ، وبين « القيم » التى
اتخذها الإنسان حول الملابس ، سواء فى رسم قواعد لها وتقاليد ، أو فى طريقة
توزيعها بين الناس ، أو فى ربطها بالقيم الخلقية والدينية ؟
وحين اخترع الأداة المسنونة ..

لماذا اخترعها بادية ذى بدء ؟

ولماذا استخدمها فى القتال ؟

ولماذا لم يقف عند الحد الذى وصلت إليه ، فراح يبحث عن وسائل جديدة
للقتال حتى وصل إلى القنبلة الذرية والهيدروجينية وقنبلة الكوبلت وقنبلة الجراثيم ؟
وأى علاقة بين هذه الأدوات كلها وبين « القيم » التى ربطها الإنسان
بالحرب ، سواء فى تحليلها وتحريمها ، أو وضع قواعد لها وتقاليد ؟

وحين وحين وحين ..

ألا توجد من وراء ذلك دلالة .. واضحة ؟

هل الآلة هى التى وجهت الإنسان ؟ أم الإنسان هو الذى وجه الآلة ؟
لن نضع القضية هنا كما توضع تلك الأحجية المشهورة : البيضة قبل الفرخة
أم الفرخة قبل البيضة ؟

فالقضية التى بين أيدينا هنا ليست أحجية ، وليست فى حاجة إلى التمثل
والروايات !

إن الحيوان ، زميل الإنسان فى سكنا الأرض ، وزميله فى رأى الداروينية -

في كثير من الخصائص ، وفي الأصل المشترك ، لم يكشف ولم يخترع على طول مقامه في هذه الأرض !

فالاكتشاف والاختراع إذن مزية بشرية في صميم فطرة الإنسان .. تلك بديهية.

يقول جوليان هكسلي — العالم الدارويني الحديث — في كتابه « الإنسان في العالم الحديث » :

« وأولى خصائص الإنسان الفذة وأعظمها وضوحا قدرته على التفكير التصوري .. ولقد كان لهذه الخاصية الأساسية في الإنسان نتائج كثيرة ، وكان أهمها نمو التقاليد المتزايدة .. ومن أهم نتائج تزايد التقاليد — أو إذا شئت من أهم مظاهره الحقيقية — ما يقوم به الإنسان من تحسين فيما لديه من عدد وآلات .. وإن التقاليد والعدد لمي الخواص التي هيأت للإنسان مركز السيادة بين سائر الكائنات الحية * وهذه السيادة البيولوجية — في الوقت الحاضر —

خاصية أخرى من خواص الإنسان الفذة .. » (١)

وهذا العالم — كما بينا في كتب سابقة — عالم ملحد ، لا ينسب إلى الله شيئا من عملية الخلق ، ولكنه يثبت للإنسان تلك المزية أو المزايا المتفردة بقدرته على التفكير التصوري .. وقدرته على استخدام العدد .. وميله وقدرته على تحسين ماله من عدد وآلات .. وإقامة التقاليد وتنميتها .. ويسمى ذلك كله خواص بيولوجية أي .. في صميم الفطرة البشرية .

إنها لم تنجم إذن من استخدام العدد والآلات .. وإنما هي التي أنتجت استخدام العدد والآلات !

لقد تبين لنا إذن — من البحث « العلمي » لا من الفلسفة النظرية — وجه الصواب في القضية الشبيهة بأحجية البيضة والفرخة ! إن « الإنسان » هو الأصل . هو المنبع . وليست هي العدد والآلات !

ترجمه حسن خطاب ومراجعة عبد الحليم منتصر فصل «فرد الإنسان» مقتطفات ص ٣-٥

الإنسان - بادىء ذى بدء - هو الذى أتجه إلى الاكتشاف والاختراع !
لماذا ؟ !

يقول هكسلى الملحد : إن تلك خاصية بيولوجية للإنسان ! أى أنها تحمل
في ذاتها تفسيرها !

ونقول نحن - ولا يتعارض ذلك مع « العلم » وإنما يكمله ويقوّمه من
أنحرافه - إن الله الذى خلق الإنسان ليُجعله خليفة في الأرض ، هو الذى منحه
هذه الخاصية ، لأنها وسيلة من وسائل الخلافة وأدواتها ، وإن الله هو الذى قيض
للإنسان اكتشاف النار - لا المصادقة ! - بأن أودع في فطرته الالتفات إلى
ظواهر الطبيعة ، « وتصورها » والاستفادة منها . وإلا فالمصادقة التى أحدثت
النار أمام الإنسان ، فالتقط منها الفكرة واستخدمها ، تحدث ملايين المرات
أمام الحيوان فلا يدركها ولا يتصورها ولا يلتقطها ليستخدمها .

وإذن فقد أودعت الفطرة الإنسانية القدرة على التصور ، ومن ثم القدرة على
الاكتشاف والاختراع ، ومن ثم القدرة على استخدام الآلات . . والقدرة على
تحسين الآلات . . كما أودعت في الوقت ذاته ما يسميه هكسلى « بالتقاليد » ونسميه
نحن « القيم » ، والقدرة على ربط الأعمال - بما فيها استخدام الآلات - بقيم
نفسية واقتصادية واجتماعية وخلقية ودينية .

وهذا هو الذى يفسر لنا كل الأسئلة التى قدمناها منذ قليل . .

لماذا اكتشف الإنسان النار ؟ لماذا استخدمها - حين اكتشفها - في
تحسين الطعام بطهوه ؟ لماذا لم يقف عند الدرجة التى وصله إليها اكتشاف النار ؟
لماذا أنشأ حول الطعام قِيَمًا مختلفة وأدابا وتقاليد ؟

أما اكتشاف النار - كحادثة مادية وكأداة مادية - فلا يفسر شيئاً مما
يريد أن يفسره به التفسير المادى للتاريخ !

لقد كان من الممكن - بادىء ذى بدء - ألا يكتشف الإنسان النار لولا

ماركب في فطرته من القدرة على التفكير التصورى . وكان من الممكن
— حين اكتشافها — ألا يستخدمها في طهو الطعام [إذما الذى يدفعه
إلى ذلك بصورة حتمية ؟] وكان من الممكن — حين استخدمها في طهو
الطعام — أن يقف عند هذا الحد فلا يتفنن تفننا في الطعام . وكان من الممكن
أخيراً ألا يصوغ حول الطعام قيا وآداباً وتقاليد ! !

كلا ! لم تنشأ النار شيئاً من ذلك كله ! لولا الرغبة الفطرية الكامنة ،
السابقة في وجودها على النار ! ! القدرة الفطرية على التفكير التصورى هي التي
مكنت الإنسان من اكتشاف النار [وهي موهبة الله للإنسان] . ثم الرغبة
الفطرية في التحسين والتجميل هي التي قامت ببقية المهمة في خط طويل على
مدار التاريخ !

وتلك عقدة القضية . . ومفرق الطريق !

* * *

هل معنى ذلك أن الآلة لم تغير شيئاً في حياة الإنسان ؟

كلا ! لا نقول ذلك ! ولا يمكن أن يقول إنسان !

إن صورة الحياة قبل اكتشاف أية أداة أو اختراع أية آلة تختلف اختلافاً —
جزئياً أو كاملاً — عن صورتها بعد الاختراع أو الاكتشاف . إذ تستجد للناس
أفكار جديدة وعلاقات جديدة ومشاعر جديدة وتنظيمات جديدة [سننتحدث
في الفقرة التالية عن التطور الاجتماعى والاقتصادى] .

فبعد اكتشاف النار حدث تطورهاائل في الأرض . وبعد اختراع الحراث .

وبعد اكتشاف البارود . وبعد اكتشاف الكهرباء . . .

ونحن — كما قلنا — نريد أن نبرز هذا التطور ونؤكد عليه . . لأنه —

من وجهة نظرننا — حقيقة « إنسانية » !

إنما الأمر الذى نريد أن نناقشه هو هذا : هل الآلة أنشأت جديداً فى كيان الإنسان ، أم إنها حققت رغبات كامنة فى فطرة الإنسان ؟ !
والفرق — لعله — واضح بين الوضعين . وهو فارق كبير .
فحين تنشئ الآلة جديداً فى كيان الإنسان ، تكون الآلة حقا هى الأصل فى التطور كما يرسمها التفسير المادى للتاريخ . وحين تحقق رغبات كامنة فى فطرة الإنسان يكون الإنسان هو الأصل كما يرسمه التفسير « الإنسانى » للإنسان (١) !
النار . . هل هى التى أنشأت الرغبة فى طهو الطعام ؟
فى ظاهر الأمر يبدو ذلك ! ولكن أية قوة حتمية فى النار تدفع الإنسان إلى طهو الطعام عليها ؟ !

إن القصة يمكن أن تُتصور على هذا النحو : أنه وقع فى تجارب الإنسان — بما يسمونه المصادفة ، ونرده نحن إلى حقيقته « العلمية » — وهى قدر الله ومشيئته — أن شبت النار قريبا من الفريسة أو وضع الفريسة قريبا من النار فنضجت فأعجبته رائحة الشواء واستطعم طعمه ، بما فى فطرته من استعداد وتقبل لهذه الرائحة وذلك الطعم . ثم راح — بما فى فطرته من التفكير التصورى — يستعيد العملية ليحصل على نفس النتيجة .

وفى كلا الحالين لم تكن الأداة المستحدثة — وهى النار — هى التى أنشأت الأمر فى باطن النفس ، وإنما هى حققت . حققت فى عالم الواقع بعد أن كان كامنا فى باطن النفس .

وتغيرت صورة الحياة — فى ميدان الطعام — بعد اكتشاف النار . فقد هيأت الأداة المستحدثة فرصا متزايدة لألوان من الطعام جديدة ، و « فنون » مستحدثة .

(١) انظر فصل « التفسير الإنسانى للإنسان » فى كتاب « دراسات فى النفس الإنسانية »

نعم . ولكن هل كان في وسع النار — بإمكانياتها المستحدثة — أن تصنع شيئاً من ذلك كله لولا أن نفس الإنسان قد استطابت ذلك وأنست إليه ورغبت فيه ؟ !

لو أن النار أعطت الطعام طعاماً لا يستسيغه الإنسان . . هل كان يقبل عليه ؟ ومن ناحية أخرى . . لولا الرغبة الدفينة في « تحسين » الطعام ، هل كان يستخدم النار في هذا السبيل ؟

إن النار قد أعطت الإنسان إمكانات جديدة حافلة . . ولكنها إمكانات لأى شيء ؟ ! إمكانات لتحقيق رغبات كامنة في الفطرة ، تنتظر الفرصة المواتية لتحقيقها ! وقد لا تكون الفطرة واعية لتلك الرغبات في كل حالة ! وهذا هو الذى يؤدى إلى الخديعة الأولى في فهم الموضوع !

قد لا يكون الإنسان الأول واعياً لكون النار ستعطيه طعاماً شهيياً مستساغاً . وقد لا يكون اكتشف هذا الأمر إلا بعد أن جربه بالفعل . ولكن . . حتى على هذا القرض ، فالرجع الأخير هو الفطرة . إن المحاولة والخطأ طريقة من طرق التعلم والمعرفة عند الإنسان وعند الحيوان . ولكنها في الحالين تصطدم في النهاية بفطرة الحيوان أو فطرة الإنسان . . ولا تتعداها . فقد استساغ الإنسان صنوفاً من الطعام ولم يستسغ صنوفاً أخرى . والنار هي النار ! أى أن ميدان استخدام النار ومدى استخدامها يسيران على خط الفطرة ، ولا يغيرانها شيئاً من حقيقة الفطرة على مدى التاريخ .

ولإنما جاءت الخديعة الأخرى من اتساع الفطرة الإنسانية . . حتى خيل لبعض الناس أنه لا حدود لها ، ومن ثم فلا قيمة حقيقية لوجودها ما دامت تتسع لكل شيء ! !

كلا ! إن اتساعها لا يلقى حقيقتها ، ولا يلقى دلالتها !
إنها تسع أشياء كثيرة ولكنها لا تتسع لكل شيء . فلها — في النهاية —

خطوطها الأخيرة التي تصطدم بالأشياء وترفضها ، وتصر على رفضها مهما كان الضغط الواقع عليها ، فلا تقبل أشياء ليس لديها الاستعداد الفطرى لتقبلها .

وهنا الحديعة الثالثة! الناشئة من مرونة الفطرة ! إنها — لمروتها الشديدة —

تحتمل كثيراً من الضغط الواقع عليها من شيء يخالف طبيعتها . ولكنها من ناحية لا تحتمل كل شيء ومن ناحية أخرى لا تحتمله إلى الأبد ! وإنما تحتمل بعض الأشياء . . . وبعض الوقت . ثم تنور فتلفظ ما لا تسيفه ولا تستريح إليه .

لقد ثارت على الدكتاتوريات لأنها تكبت الوجود الفردى للإنسان . وثارت على ملكية الدولة لأنها تكبت النزعة الفطرية للملكية الفردية . وثارت — كما سيجى' — على كثير من ألوان الانحراف .

وتلك هى الحقائق التى غابت عن التفسير المادى للتاريخ ، والتفسير الجمعى للحياة البشرية !

إنهما كلاهما يرصدان التاريخ من خط الخنوع والاستسلام للقوى القاهرة . ولكنهما لا يرصدانه من خط الثورة على تلك القوى وتدميرها وإزاحتها !

والحقيقة العالمية النزيهة من الغرض ، ينبغى أن ترصد التاريخ من خطيه . لأن كلا خطيه حقيقة . . . ترسمه من خط الخنوع وخط الانتفاض : خط السلبية وخط الإيجابية . . . وكلاهما موجود وفطرى فى كيان الإنسان !

* * *

من هذه المرحلة من المناقشة نصل إلى مجموعة من الحقائق :

أن الفطرة هى الأصل فى تصرفات الإنسان .

أن الأدوات والآلات المستحدثة هى فى ذاتها تعبير عن الفطرة [من حيث القدرة على التفكير التصورى والرغبة فى التحسين] .

وأنها — وهى تعبير فى الأصل عن الفطرة — تسير على هدى الفطرة فى تطبيقاتها العملية [من حيث تحقيقها لرغبات الإنسان]

وإنما - في تطبيقاتها العملية - لاتنشئُ جديداً في كيان الإنسان ، وإنما تحقق ما كان كامناً من قبل في ذلك الكيان .
وإنما تغير صورة الحياة تغييراً شاملاً . . ولكن التغير ذاته يحدث استجابة لمطالب الفطرة ، ويقع في حدودها لا يتعداه .

تلك الحقائق الخمس وما تستلزمه من حقائق أخرى فرعية يمكن التحقق منها بسهولة في جميع ميادين النشاط الإنساني . ولا نحتاج أن ننتبع خطوط الفطرة جميعها لغثبث من هذه الحقيقة، ولكننا نضرب بعض الأمثلة للتوضيح والتوكيد: لم يكن اختراع الطائرة هو الذي أنشأ الرغبة في السفر السريع والتنقل بين جهات العالم . وإنما الأحرى أن تكون هذه الرغبة الكامنة هي التي أوحى باختراع الطائرة ، حين وجدت الإمكانيات العلمية التي تهيبُ الفرصة للتحقيق العملي لهذه الرغبة . فمن قبل ظل الإنسان يزيد سرعته في السفر بمختلف الوسائل لأنه يرغب في ذلك ، وكان يحلم - حين يعجز عن التنفيذ العملي - بوسائل خاطفة تنقله في لحظة من مكان إلى مكان ! فالطائرة [ومن بعدها الصاروخ] هي تحقيق الحلم البشري القديم الذي كان يخاليل للبشرية وتتمنى تحقيقه . .

وصحيح أن هذه الرغبة حين تحققت باختراع الطائرة قد أوجدت إمكانيات جديدة لم تخطر على البال - في صورتها التفصيلية - من قبل . إمكانيات في السلم وإمكانيات أخرى في الحرب . وترتب على هذه الإمكانيات المزدوجة إعادة تشكيل علاقات البشرية في السلم وفي الحرب على نسق جديد . . وصوغ مشاعرهم وأفكارهم على نسق جديد . .

هذه حقيقة تنطبق على كل اكتشاف أو اختراع جديد . . فهو يهيئ إمكانيات لم تكن منظورة من قبل بالتفصيل .

ولكن الرغبة العامة تسبق دائماً كل اختراع جديد . . فالمخترع لا يقول سأصنع اختراعاً ما - أي اختراع - ثم أبحث عن وسيلة للاستفادة منه . وإنما

هو يقول: أنا — أو نحن البشر — نريد آلة تصنع كذا . فلا حاول اختراعها !
خط البحث العلمى وحده هو الذى يبدو أنه ينشئ نفسه بنفسه . كل خطوة
تؤدى إلى مابعداها بطريقة حتمية (١) لاهداف وراءها ولا أغراض ! كلا !
ليس حقيقة ! إنما وراءها الرغبة الفطرية فى المعرفة ! هى التى تدفع البحث العلمى
وهى التى تغذوها . والإنسان لا يتدخل فيما يصل إليه البحث العلمى من قوانين
لأنها لا تقع تحت سلطانه لا لأنه لا يرغب فى ذلك ! إنها نواميس كونية ليس
من شأنه — ولا فى طوقه — أن يتدخل فيها أو يغير منها . فهى ملك الخالق
الذى خلقها ويسيطر عليها . ولكن الإنسان يتدخل فى التطبيق العملى لنتائج البحث
العلمى . . أى لنتائج كشفه عن النواميس الكونية [التى أعطاه الله القدرة على
كشفها وتسخيرها : « وسخر لكم مافى السماوات ومافى الأرض جميعاً منه » (١)]
وهو فى تدخله يحاول أن يجعل التطبيق العملى فى خدمة أهدافه ورغباته القائمة
فى نفسه من قبل ، والتى تنتظر القرصة المواتية للتطبيق .

وحين يفتح الكشف أو الاختراع الجديد آفاقاً جديدة لم تخطر بتفصيلها
فى بال الإنسان من قبل ، فإنه على الدوام يسعى لتحقيق رغبة عامة من رغبات
الفطرة ، كالرغبة فى القوة . والرغبة فى السيطرة . والرغبة فى الخلود . والرغبة فى
استشفاف الحجب والرغبة فى البروز . والرغبة فى الملك . إلى آخر هذه الرغبات .
ولكنها لا تستجد فكرة ولا شعوراً لا يقع تحت واحدة من هذه الرغبات العامة
الموجودة فى الفطرة من قبل [والمقدورة من لدن خالقها حين خلقها ووهبها إمكانياتها]
ومن ثم « فالتطور » الذى يحدثه الاختراع أو الاكتشاف الجديد فى نفس
الإنسان هو التنمية الدائمة للرغبات الفطرية الموجوده من قبل فى حالة كامنة ،
بإعطائها فرصة التحقق الدائم على نطاق أوسع وأشمل وأدق . وليس هو إنشاء
الرغبات الفطرية من حيث لا تكون !

(١) سورة الباقية [١٣] :

والتنمية شيء والإ إنشاء شيء آخر . .

الطفل يولد مكتمل الكيان ولكن في حالة كأمنة . . ثم ينمو . . فيتحقق بالتدريج كيانه ، ولكن لا ينشأ فيه شيء جديد . لا تنشأ له قدم ولا ساق ولا أذن ولا عين . . فهذه موجودة من قبل ، ولكنها غير مستكملة التحقق . . والنمو يحققها حتى تصل إلى آخر مداها . فالتطور هنا هو النمو . . وليس هو النشوء من اللاوجود !

وذلك ينطبق على كل كشف وكل اختراع جديد .
فالحرث الذي قلب ظهر الأرض وقلب تاريخ البشرية ، كان ولا شك رغبة كأمنة في نفس مخترعه ، ليحقق به رغبة أو مجموعة من الرغبات الفطرية . وإلا ما أجهد نفسه في اختراعه ! واكتشاف البارود ليس هو الذي أنشأ الرغبة في التدمير ولا الرغبة في القتل على نطاق واسع . وإنما هو أعطاها الإمكانيات للتنفيذ . ولكنها كانت موجودة من قبل ، ومتحققة في النطاق الصغير . . وفي الخيال كانت تداعب الأحلام !
وهكذا . . لا يحدث شيء خارج نطاق الفطرة . الحدود بحدود . أيًا كانت سعة هذه الحدود !

* * *

وصلنا من بحثنا للنوع الأول من أنواع التطور - وهو تطور الأدوات وأساليب الإنتاج - إلى أنه تحقيق للفطرة وليس تغييراً للفطرة . . تحقيق لها بتنمية إمكانياتها العملية على الدوام . . وهذا يزيد مساحتها ، ويعيد تشكيلها على الدوام في أشكال جديدة ، ولكنها لا يضيف إليها عنصراً لم يكن موجوداً في جوهرها إما في صورة بدائية وإما في صورة كأمنة . . وفرق بين التنمية والتشكيل في حدود الإطار الموجود بالفعل ، وبين استحداث أمر جديد في ذلك الإطار . كما وصلنا إلى أن هذا اللون من التطور يسير على هدى الفطرة ويتبع خطوطها ، فالفطرة

دائماً من ورائه تحدوه ، وإن كان هو بدوره يقوى إمكانيات الفطرة . .
ولكنه يقويها لأنها هي - من الأصل - رغبة في التحقق والتمكن والقوة عن
هذا الطريق . . فالأمر لا يعدو الفطرة في نهاية المطاف .
والآن ننقل إلى اللون الثاني من التطور، وهو التطور الاقتصادي والاجتماعي
والسياسي في حياة الإنسان .

التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي هو الميدان الرئيسى لنشاط التفسير
المادى للتاريخ ! فقد جال فيه وصال ليقول إنه ينشأ عن تطور أساليب الإنتاج .
وإن تطور أساليب الإنتاج هو السبب الأوحده فيه !
حين اكتشف الإنسان الزراعة تغير وجه الأرض . .

فقد استقر الإنسان في الأرض ليزرع وينتظر نتيجة الزرع ، بعد أن كان
جوالاً يبحث عن المرعى والصيد. وكان الاستقرار نتيجة حتمية . . وحين استقر
كان لا بد له من تنظيم اجتماعي ، ينظم علاقات أولئك المستقرين في بقعة واحدة
من الأرض بصفة دائمة . . وكان هذا التنظيم نتيجة حتمية . . ونشأت علاقات
اقتصادية محدودة نتيجة لعملية الزراعة ، فهناك محاصيل تنتج ، تفيض عند بعض
الناس عن حاجتهم ، وتنقص عند آخرين ، فلا بد من التبادل بين الفريقين . .
وكان هذا نتيجة حتمية . . ثم حدثت المنازعات على الأراضي والإنتاج من
ناحية ، وإغارات الأقوام بعضهم على بعض للاستيلاء على الأرض المنزرعة من
ناحية أخرى، فاستلزم ذلك وجود نوع من الحكومة يفض المنازعات من ناحية،
ونوع من القوة المحاربة تصد الإغارات من ناحية أخرى . . وكان هذا التشكيل
السياسي والحربي نتيجة حتمية . . ووجد الرقيق ، من نتيجة الحرب ، وصار عملة
اقتصادية واجتماعية وسياسية صاحبت المجتمع الزراعى فترة طويلة جداً من الزمان.
ووجد الإقطاع كتنظيم اقتصادي واجتماعي وسياسي . . وكان ذلك كله
نتيجة حتمية .

ثم اخترع الإنسان الآلة . . وتغير وجه الأرض من جديد . .
نشأت المصانع في المدن . واحتاجت إلى رجال أشداء يديرونها . وكان هؤلاء
في الريف ، مستعبدين في الأرض ، فكان لا بد من تحريرهم من عبودية
الأرض ليديروا الآلة ، فحدثت حركة تحرير الرقيق . . وكانت نتيجة حتمية .
ثم تكتل العمال في مصانع المدن ، وأخذ رأس المال ينمو فتنشأ طبقة استغلالية
جديدة مصاحبة في مبدأ الأمر ثم مناوئة لطبقة الإقطاع . . وكان ذلك نتيجة
حتمية [وتغيرت أخلاق المجتمع ومفاهيمه نتيجة انتقاله من الزراعة إلى الصناعة
كما أشرنا إلى ذلك من قبل] وحدث صراع سياسى بين الطبقات المستغلة
والطبقات المستغلة على التشريع والتوجيه ، لخدمة مصالح كل طبقة . . وكان ذلك
نتيجة حتمية . وما زال هذا الصراع قائماً ، ويقول التفسير المادى للتاريخ إنه
لا بد أن يؤدي إلى نتيجته الحتمية ، ثم تختلف التفسيرات - أو المذاهب - في أمر
هذه النتيجة ، فيقول مذهب إنها الشيوعية، ويقول مذهب آخر إنها الاشتراكية،
ويقول مذهب ثالث إنها التعاونية . . ويقول الجميع إنهم ديمقراطيون !
صورة - في هذا الوضع - منطقية . مرتبة ، منظمة ، مُقنعة !

ومع ذلك فعند التمعن فيها تبدى فيها جملة ثقوب !
إنها أولاً تفسر كل تطور اجتماعى واقتصادى وسياسى بتغير أساليب الإنتاج
فحسب . وقد مر بناصراحة ماركس وإنجلز في هذا الأمر إنهما يقولان في وضوح
كاف : « فأسلوب الإنتاج في الحياة المادية هو الذى يعين الصفة العامة للعمليات
الاجتماعية والسياسية والمعنوية في الحياة . ليس شعور الناس هو الذين يعين
وجودهم ، بل إن وجودهم هو الذى يعين مشاعرهم . » [ماركس] .
« إن الإنتاج وما يصاحبه من تبادل المنتجات هو الأساس الذى يقوم عليه كل
نظام اجتماعى . فحسب هذه النظرية نجد أن الأسباب النهائية لكافة التغيرات
والتحولات الأساسية يجب البحث عنها لا في عقول الناس أو في سعيهم وراء

الحق والعدل الأزليين ، وإنما في التغيرات التي تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل » [إنجلز] .

وعلى ذلك لا توجد في نظرها أية أسباب أخرى غير تطور أساليب الإنتاج .
إنهما - مثلاً - لا يقيان وزناً لعملية النمو الطبيعية في بنية النفس والمجتمع !
النمو الذي يعتبر تطور أساليب الإنتاج مظهراً واحداً من مظاهره . . فالنفس كما تنمو بتحقيق إمكانياتها العملية عن طريق العدد والآلات ، وتحسينها ، كما يقول جوليال هكسلي ، تنمو كذلك بتحقيق إمكانياتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . . الكامنة في فطرتها .

يقول هكسلي في كتاب « الإنسان في العالم الحديث » :
« وهذه الخواص التي امتاز بها الإنسان ، والتي يمكن تسميتها نفسية أكثر منها بيولوجية ، تنشأ من خاصية أو أكثر من الخواص الثلاث الآتية :
« الأولى : قدرته على التفكير الخاص والعام .

« الثانية : التوحيد النسبي لعملياته العقلية بعكس انقسام العقل والسلوك عند الحيوان .

« الثالثة : وجود الوحدات الاجتماعية مثل القبيلة والأمة والحزب والكنيسة وتمسك كل منها بتقاليدها وثقافتها » (١)

إن وجود التنظيمات الاجتماعية والسياسية والدينية والخلقية والاقتصادية هو إذن خاصية من الخواص النفسية للإنسان ! إنها في صميم فطرتها ، لم تنشأها أساليب الإنتاج كما يبدو لأول وهلة على هدى التفسير المادي للتاريخ . وإنما تطور أساليب الإنتاج يمكن أن يعطيها صورة معينة . وفرق - كما بينا مراراً من قبل - بين الإنشاء والتشكيل . فرق واضح وكبير . فحين تكون النفس هي الأصل ، ففي (١) الإنسان في العالم الحديث ص ٣٢ من الترجمة العربية .

وسمها — نظريا على الأقل ! — أن تتشكل بأكثر من صورة. أما حين تكون أساليب الإنتاج هي الأصل فهي إذن تعطي صورة حتمية لافكاك منها ! وسنرى بعد قليل أن هذه الفرصة النظرية كانت حقيقة ، وحقيقة ضخمة في حياة البشرية يعجز عن تفسيرها كل تفسير مادي للتاريخ ! ولكننا لا نريد أن نسبق الحديث !

إن التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية .. الخ خاصة نفسية للإنسان . ومن ثم فهي تخضع لفطرة الإنسان في النمو . والنمو خاصة نفسية بيولوجية لا تحتاج إلى تفسير من خارجها ! [إلا القول بأنها موهبة من الخالق] . وحقيقة إن النمو يحتاج إلى غذاء . ولكن ليس حقيقة أن الغذاء هو الذي ينشئ خاصية النمو ! إنما الغذاء يتيح فقط الإمكانيات العملية لهذه الخاصية الكامنة في الفطرة .

ومن ثم فإن نمو التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية وتعقدتها خاصة فطرية في الإنسان. وهي تتواكب مع نمو أساليب الإنتاج لا كسبب ونتيجة ، ولكن كقوتين متواكبتين تستمدان

وجود علاقة السبب والنتيجة بين الجزئيات .

فلا يمكن اعتبار أساليب الإنتاج فيه سببا للتطور

هن اعتبار التطور الاجتماعي والاقتصادي سببا في

أن تنصورها — على حقيقتيها — قوتين متواكبتين

المشترك في الفطرة البشرية !

وإلا .. فكيف نفعل أن الضرورات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية قد

أدت إلى استحداث أساليب متطورة للإنتاج تناسب الوضع القائم، بنفس الصورة

التي تؤدي بها تطورات الإنتاج إلى استحداث تنظيمات اجتماعية واقتصادية ؟ !

وكيف نفعل قبل ذلك أن « الحاجات البشرية الفطرية » هي الدافع وراء

هذا التطور وذاك في نفس الوقت ؟ !

إن الرغبة - الفطرية - في الاجتماع بالآخرين هي التي أنشأت « المجتمع »
بإدء ذى بدء - في أية صورة من صوره - لتلبية تلك الرغبة العميقة في
نفس الفرد .

وحين نشأ المجتمع - في أية صورة من صوره - تعددت حاجاته . ونمت ،
بحكم الفطرة التي أنشأته من قبل ، بما أودعها خالقها من طاقات واستعدادات
وأتجاهات . « وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » فتمو « الإنسان » إلى شعوب
وقبائل هو العمل الحتمي الناشئ من إرادة الله ، والمنفذ عن طريق الفطرة التي
خلقها الله وأودعها هذا الميل والقدرة على تحقيقه . وليس ناشئا من تطور أساليب
الإنتاج ، ولا أى ضرورة أخرى « خارج » النفس البشرية .

وخاصية النمو ، التي تنمى الطفل حتى يبلغ أشده ، وهي خاصية بيولوجية ،
أى فى صميم الفطرة ، هي ذاتها التي تنمى المجتمعات الصغيرة إلى مجتمعات كبيرة .
فتنمى العشيرة إلى قبيلة ، والقبيلة إلى أمة .. وهكذا . وتنمى العلاقات بين الناس
من علاقات بدائية صغيرة مباشرة إلى علاقات معقدة كبيرة غير مباشرة .. وفى
أثناء ذلك تنمى أساليب الإنتاج المتطورة فتحل مكانها من الصورة ، « وتلبس »
فى حيزها ، قوة متفاعلة مع السياق كله ، آخذة ومعطية فى ذات الوقت ، ومتجهة
فى اتجاه الفطرة الكبير .. فى اتجاه النماء . ويتبادل تطور الإنتاج وتطور المجتمع
علاقة سببية من طرفيها ، فتارة يكون تطور الإنتاج هو السبب فى تطور المجتمع ،
وتارة يكون تطور المجتمع هو السبب فى تطور الإنتاج .. وفى النهاية يكون
المصدر هو الفطرة المتصفة بخاصية النماء !

اختراع الآلة هو السبب فى وجود المجتمع الصناعى . ولكن رغبة البشرية
فى « القوة » من ناحية ، ورغبتهم فى زيادة الإنتاج لتيسير كل حاجات المجتمع
من ناحية أخرى هي السبب فى اختراع الآلة ! ووراء هذا وذلك الفطرة البشرية
المشتملة على القدرة على استخدام العددا والآلات ، والرغبة فى تحسين العددا والآلات !

ثم هناك نظم اجتماعية مثل الزواج والأسرة لم تنشأ من تطور أساليب الإنتاج .
فهى نمو اجتماعى بحت . وجد فى مجتمع الصيد فى ظلمات التاريخ ، ووجد فى
 المجتمع الرعوى ، والمجتمع الزراعى والمجتمع الصناعى . وعلى الرغم من الانهيار
 « الإنسانى » الدريع الذى يعانى به الناس فى القرن العشرين ، فيدمر فطرتهم
 تدميرا [سنتحدث عن هذا فيما بعد] فإزال الزواج والأسرة نظامين « طبيعيين »
 تحدث النظم الأخرى [الإباحية والتحلل] إلى جانبها كشدوذ يصيب البشرية
 بالدمار لا « كتطور » يهدف إليه العقلاء ، أو يرتاح إليه العقلاء ! وإن الدعوى
 المزيفة التى أقامها دركايم ، حين زعم أن الزواج والأسرة ليسا من الفطرة ، هى
 زعم لم يقم صاحبه عليه أى دليل [وسنعود إلى ذلك فى الفصل القادم بالتفصيل]
 إن تطور أساليب الإنتاج إذن ليس هو السبب الوحيد للنمو الاجتماعى
 والاقتصادى والسياسى ، كما زعم ماركس وإنجلز وغيرهما من هواة التفسير المادى
 للتاريخ . وإنما هو واحد من أسباب !

وحقيقة إن تطور أساليب الإنتاج يحدث تغيرات فى صورة الحياة البشرية .
 ولكنها ليست حتمية . وأوضح الأمثلة على ذلك وأقربها أن أساليب الإنتاج فى القرن
 العشرين واحدة فى الأمم الكبرى . ومع ذلك فهى فى الغرب تصاحب الرأسمالية
 وفى الشرق تصاحب الشيوعية ! على بعد ما بين هذه وتلك فى شكل الحياة
 الاجتماعية والاقتصادية والسياسية !

بل الأدهى من ذلك أن روسيا - الشيوعية - قد أخذت أساليب الإنتاج
 المادى عن أوروبا الرأسمالية ! فقد كانت خارجة من الإقطاع والظلام والجهالة
 فى ظل القيصرية ، بغير تجربة فى عالم الصناعة ، وبغير أدوات صناعية ذات بال ،
 فلما أنشأت نظامها على مذهبها الفكرى الخاص ، وقررت إحداث حركة صناعية
 ضخمة ، استخدمت أساليب الإنتاج المتقدمة الموجودة لدى أوروبا الرأسمالية ،
 ولكنها أعطتها أهدافا هى ، وقيمها ومبادئها ! فحيث تستخدم هذه الأساليب

فى الغرب لتوكيد فردية الإنسان ، استخدمتها روسيا لإلغاء فردية الإنسان وتوكيد صفته الجماعية ! فألفت الملكية الفردية ، والأحزاب السياسية المتعددة ، و « ديمقراطية » الحكومة ، وأعلنت « دكتاتورية » البروليتاريا !

بل الأشد سخرية من ذلك أن ماركس - وهو يتصور على هواه خطوات التاريخ الحتمية ، المبنية على حتمية مراحل النمو الاقتصادى والاجتماعى والسياسى ، المترتبة بدورها على تطور أساليب الإنتاج - قد افترض أن الشيوعية ستبدأ فى غرب أوروبا ، وفى إنجلترا بصفة خاصة كنتيجة حتمية للتقدم الصناعى والصراع الطبقي بين العمال ورأس المال ! فكانت النتيجة الحقيقية [غير الحتمية] ! أن قفزت روسيا من الإقطاع إلى الشيوعية مباشرة ، متخطية خطوة الرأسمالية [الحتمية !] وبقيت إنجلترا رأسمالية إلى هذه اللحظة !

ومن ناحية أخرى فإن التغير فى صورة الحياة البشرية - فى الميدان الاقتصادى والاجتماعى والسياسى - قد لا يقوم على تطور أساليب الإنتاج على الإطلاق ! ومثال ذلك هو الإسلام !

« أية قوة مادية . . أية تغيرات فى أساليب الإنتاج . . فى الجزيرة العربية أو فى العالم أجمع . . هى التى أدت - بصورة حتمية - إلى ظهور محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - يدعو إلى هذا الإسلام وي بشر بالدين الجديد ؟ »
« يقولون إن العرب فى الجزيرة كانوا قد استنفدوا طور « القبيلة » وأخذوا يتطلعون لأن يكونوا أمة . . فكان ظهور محمد صلى الله عليه وسلم أمراً طبيعياً مقمشياً مع طبيعة الأحداث ، ومستجيباً لحتمية التطور .

« ومع ما فى هذا القول من التجوز ، فسنسلم به توفيراً للجدال !

« من قبيلة إلى أمة . . معقول !

« ولكن هل كان الإسلام دين « الأمة العربية » ! ؟

« كيف وهو يقول - فى مكة - قبل الذهاب إلى المدينة ، وقبل تأسيس

الدولة ، وقبل اجتماع الأنصار ، وقبل تجميع القوى المادية والقدرة التنفيذية . .
 قبل أن يؤمن به أحد إلا بضعة نفر مشردين في الشعاب ، ومطاردين من الأهل
 والخلان ، هائمين بغير مستقر ولا حماية ولا أمل في الغد القريب فضلا عن الغد
 البعيد . . كيف وهو يقول في هذه الظروف عن القرآن الكريم : « وما هو
 إلا ذكر للعالمين » في سورة « القلم » من أوائل ما نزل من القرآن الكريم .
 وفي سورة سبأ المكية ما هو أوضح في هذا المعنى . ذلك قوله تعالى : « وما أرسلناك
 إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » . وكذلك آية الأعراف المكية : « قل يا أيها
 الناس إني رسول الله إليكم جميعاً » ؟

« ثم هل كان الإسلام دين « الأمة العربية » ونبي الإسلام يقول : « الناس
 سواسية كأسنان المشط . لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » ؟
 « أهي دعوة لتكوين أمة ، أم دعوة إلى « الإنسانية » عامة من أول
 خطوة في الطريق ؟

« فهل كذلك الحتمية التاريخية يا هواة التفسير المادى للتاريخ ؟ من القبيلة
 إلى الإنسانية قفزة في سنوات ؟ !

« وتتكون الأمم من القبائل .. فهل مجرد هذه الخطوة يعدل النظم الفكرية
 والعقيدية والاجتماعية والاقتصادية . . دون تغير مادي ، ولا تحول في
 أساليب الإنتاج ؟

« منطق البيئة لم يكن هو المنطق الذي أتى به الإسلام . . بل لقد قام الصراع
 طويلاً - جداً - بين منطق البيئة ومنطق الإسلام ، حتى تغلبت العقيدة الجديدة
 بما فيها من قوه ومن عناصر خير غلبة ، فقهرت منطق البيئة وأجلته من النفوس .
 « كان منطق البيئة يحتقر المرأة ويضعها في مكانة تشبه مكانة السائمة
 والحيوان . . توأد أحياناً وهي وليدة . وتستقبل بالابتئاس والغیظ . وتذل وهي
 فتاة . « وتمتلك » وهي زوجة كما تمتلك الأشياء . ولم تكن المرأة ذاتها تسخط

على هذا الوضع ، ولا كان هناك من يطلب لها وضعا غيره من الرجال . لا في الجزيرة العربية ، ولا في أى مكان فى الأرض .

« وجاء الإسلام يقول : « فمن عمل صالحا من ذكر أو أنثى — وهو مؤمن — فنجزيه حياة طيبة » « فاستجاب لهم ربهم : أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ، بعضكم من بعض » .

« وجاء يقول : « عاشروهن بالمعروف » ويجعل لهذا المعروف قواعد وتشريعات وتوجيهات .

« وجاء يعطيها — إلى جانب المساواة فى الإنسانية ، والمساواة عند الله — حق الملك والتصرف : « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون » « للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن » وهو حق لم تعطه فرنسا لنسائها إلا فى القرن العشرين .

« وكان منطق البيئة هو منطق الغلبة لصاحب القوة لا لصاحب الحق ، ولم يكن تحول العرب إلى أمة بطريقة — حتمية — ليغير هذا المنطق ، فكم من أمة يسود فيها هذا المنطق إلى هذه اللحظة فى القرن العشرين !

« فجاء الإسلام يعطى كل ذى حق حقه ، بإنسانيته المجردة ، لا بكونه صاحب قوة أو نفوذ أو سلطان ، حتى ولو لم يكن مسلما ، ما دام يعيش فى المجتمع الإسلامى . وقد نزلت تسع آيات فى سورة النساء لتبرى يهوديا اتهم ظلما ، وتأسر على اتهامه رجال من المدينة أقوياء بعصبيتهم ولا ولى له ولا نصير [سورة النساء (١٠٥ — ١١٣)] ومما جاء فيها : « ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا » إشارة إلى ذلك اليهودى البرىء ! [.

« وكان منطق البيئة هو توقيير زعيم القبيلة — أو الملك حين تتكون الأمة — توقييرا يجعل منه إلها لا يسأل عما يفعل . وكان هذا هو منطق العالم كله مع حكامه فى ذلك الحين ، فإذا الإسلام يجعل فى هذه الأمة من الوعى السياسى البالغ القمة

ما يجعل فردا من عامة المسلمين يقول لأشد الخلفاء مهابة في تاريخ الإسلام - عمر بن الخطاب - « والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بحد السيف » ! ثم يجعل عمر لا يغضب لنفسه من هذه القولة الجريئة . بل يحمد الله !

« وكان منطق البيئة يجعل الكرم العربى الشهير مقتصرًا على الخفاوة التي يسير بذكرها الركبان ، وتصلح للمفاخرة بين القبائل ، أما العطف على الفقير المسكين ، والعطف الذي ينبع من منبع إنسانى بحت ، ولا يهدف إلى شهرة ولا فخر ولا تظاهر ، فقد كان أمرا نادراً في تلك البيئة قليل الحدوث ! فجاء الإسلام يلح إلحاحا شديدا جدا في إعطاء المسكين « حقه » في مال الله ، وإكرامه ، والعطف عليه ، ومواساته ، حتى يجعل ذلك أمرا للرسول ذاته صلى الله عليه وسلم ، وما كان في حاجة قط إلى هذا الأمر : « فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر » وإنما كان توجيه الأمر إليه صلى الله عليه وسلم للإشعار بأهميته وبأنه واجب القضاء .

« وكان منطق البيئة - ومنطق العالم كله يومئذ - يجعل السادة سادة والعبد في منزلة تقرب من منزلة الحيوان ، يهان ويعذب ويقتل بلا حساب .

« وجاء الإسلام يزوج بنت عمه رسول الله - القرشية - من زيد .. من أحد الموالى ، وجاء يجعل هذا المولى قائداً لجيش من جنوده أبو بكر وعمر ووزيرا الرسول وخليفته !

« ويقول الرسول الكريم : « من قتل عبده قتلناه ، ومن جدد عبده جددناه » . . ولم يكن ذلك لأن أحدا طالب لم بهذه الكرامة . . ولم يكن كذلك لأن الوضع الاقتصادى أو علاقات الإنتاج أو أدوات الإنتاج تغيرت أدنى تغيير !

« وكان منطق البيئة يؤمن بالملكية الفردية المطلقة من كل قيد ، الخاضعة لغير قانون .

« وجاء الإسلام ينظم هذه الملكية بنظام لم يشب العالم إلى شيء منه إلا في هذا العصر ، بعد أن اكتوى بجحيم الإقطاع والرأسمالية وتجرع منهما الحميم ؛ جاء يقول إن المال مال الله والجماعة وكيلة عنه . والفرد موظف فيه ، يستحقه بأداء حقه والقيام عليه . فإن سفه أو لم يؤد حقه عاد إلى الجماعة صاحبة الحق الأول فيه ، ثم ينص على طريقة توزيعه « كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » . « وكان منطق البيثة وكان . . . وكان . . . نجاء الإسلام يلغى ذلك المنطق ويستبدل به منطقاً آخر بعيداً كل البعد ، غريباً كل الغرابة على تلك البيثة وعلى كل البيئات يوم كان ، ولا يجعل كلامه مبادئ « مثالية » معلقة في الفضاء ، بل واقعا محسوسا يتمثل في بشر يدبون على الأرض وقلوبهم متجهة إلى السماء !

« فكيف حدث ذلك ؟

« أية حتمية تاريخية وأى تفسير مادي يمكن أن يفسر هذه العجيبة في تاريخ الإنسان ؟ !

« شيء واحد يمكن أن يفسر .

« إن الإنسان حين يؤمن بالله إيماناً صحيحاً وتعمر قلبه عقيدة سليمة يصنع هذه المعجزات ! » (١) .

* * *

ذلك مثال يلغى - في ضربة قاضية - كل التفسير المادي للتاريخ ! وهو مثال من عالم الواقع لامن عالم النظريات .. مثال من وقائع « التاريخ » ! وإن تفسيره هو التفسير الوحيد الذي يأباه التفسير المادي للتاريخ ، ويشتمط في إباطه ! تفسيره أن هناك « علاقة » بين الإنسان والله ! وأن قدر الله هو الذي يشكل واقع الأرض ويقرره ! قدر الله الذي وجه الإنسان الأول إلى اكتشاف النار واختراع الآلات . . . ووجهه إلى تكوين القبائل والشعوب للتعارف . . .

(١) من كتاب « معرلة التقاليد » الطبعة الثانية ص ١٠٤ - ١٠٩ .

بغير سبب إلا إرادة الله للإنسان أن يصنع ذلك . . هو ذاته الذى وجهه إلى الإسلام ، وإلى بناء مجتمع مثالى على هدى الإسلام ، بغير سبب إلا إرادة الله للإنسان أن يصنع ذلك ! لا بتطور أساليب الإنتاج ولا بالنمو « الطبيعى » للمجتمع ! وإن كان قد اعتمد فى هداية الإنسان للإسلام ، وهدايته إلى إقامة هذا المجتمع المثالى ، على المكونات البشرية الفطرية التى أودعها الخالق فطرة الإنسان (١) .

وكل تفسير للتاريخ يفعل الله ، وقدر الله ، وتدخله المباشر فى حياة البشرية ، ويفسر حياة الإنسان كحدث قائم بذاته ، أو قائم لأسباب « مادية » محيطة بوجوده ، هو تفسير خاطئ لا يفسر حقائق الوجود !

إن الحاقة التى أدلى بها دارون وهو يقول : « إن تفسير شئون الحياة بوجود خالق له إرادة فى الخلق ، يكون بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة فى وضع ميكانيكى بحت » .. إنها .. حاقة !

ومن شاء فليفسر وقائع التاريخ ووقائع الحياة ووقائع الكون بدون إدخال هذا العنصر « الخارق للطبيعة » ! إن تفسيره لن يذهب به أبعد من خطوات .. ثم يتعثر فى الطريق !

وإدخال هذا العنصر الخارق للطبيعة لن يلغى - كما يفهم « العلم » الغربى فى حاقة - قوانين العلم وقوانين الطبيعة وقوانين المادة وقوانين الاجتماع وقوانين الاقتصاد . كلا ! وإنما يكملها ويصححها ويقومها . . ويعطيها دلالاتها الحقيقية فى سياق الأحداث !

* * *

ثم إن التطور الاجتماعى والاقتصادى والسياسى - كالتطور العلمى - لا يخرج بالإنسان عن فطرته ، لأن الناس محكومون بفطرتهم فى نهاية المطاف !

(١) انظر فصل « رسيد الفطرة » فى كتاب « هذا الدين » وفصل « الدين والفطرة » فى كتاب الدراسات .

كل اختراع جديد يهز الناس وقت ظهوره هزاً، ويطلق أفكارهم ومشاعرهم فيتخيّلون عالماً جديداً مختلفاً كل الاختلاف ، عالماً لا تحكمه مشاعر الماضي ولا تصوراته .. عالماً كأنما يحكمه جانب جديد من النفس لم يكن له وجود من قبل !

ثم .. تبرد حرارة الاختراع .. ويتعود الناس وجوده .. ويعودون رويداً رويداً إلى فطرتهم .. وإلى مشاغلهم العادية ، وآمالهم ومخاوفهم ! يعودون إلى البحث عن الطعام والشراب والملبس والسكن والجنس .. يعودون إلى حب الملك ، وحب الصراع وحب البروز .. يعودون إلى الخوف من الموت والبحث عن الخلود !

وكذلك التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .. تهز الناس في جذتها .. وتشكل أفكارهم ومشاعرهم في شكل جديد .. ولكنها لا تخرجهم من فطرتهم !

في العشيرة والقبيلة والأمة والمجتمع الإنساني .
وفي المجتمع الرعوي والمجتمع الزراعي والمجتمع الصناعي ..
وفي حكومة « الأب » وحكومة الإمبراطور المقدس والحكومة الديمقراطية وحكومة الطبقة الواحدة والحزب الواحد ..

في كل ذلك لا يخرج الإنسان عن الفطرة في نطاقها الواسع ..
إنها الفطرة في نزعتها الفردية والجماعية . في نزعتها للالتزام والتحرر . في نزعتها للسلبية والإيجابية . في حب الملك . وحب البروز وحب الصراع ..
تأخذ أوضاعاً شتى !

ومرونة الفطرة وسعتها ليستا دليلاً على عدم وجودها كما خيل للدركايم والتفسير المادى للتاريخ !

والدليل على وجودها هو ثورتها على ما لا يلائم طبيعتها . ثورة طبيعية لا تُتَمَلَس لها الأسباب !

إن التفسير المادى للتاريخ يتمحل الأسباب لثورة الرقيق في أوروبا في نهاية العصور الوسطى ، فيقول إنها كامنة في نشوء المجتمع الصناعى وحاجة المصانع إلى العمال ، وضرورة تحرير رقيق الأرض للعمل في المصانع !

كذلك . . ؟ !

وليس الفطرة البشرية التى تأبى العبودية فى النهاية وإن خضعت لها عشرات أومات من السنين ؟ !

فما تفسير ثورة العبيد الشهيرة فى العصر الرومانى بقيادة « سبارتاكوس » ، قبل نشوء المجتمع الصناعى ، وقبل حدوث أى تطور فى أساليب الإنتاج يدعو لتحرير العبيد ؟ تلك الثورة التى هزت الإمبراطورية كلها من قواعدها ؟

وليس معنى ذلك أن نلغى الأسباب المباشرة التى أدت لتحرير رقيق الأرض عند نشأة المجتمع الصناعى ! كلا . وإنما معناه فقط أن نردها إلى الفطرة التى تتربق الفرصة المناسبة لتحقيق وجودها . ومعناه أن نفسر بهذه الظروف نجاح الثورة الثانية بينما هزمت الأولى شر هزيمة فى عصر الإمبراطورية الرومانية . ولكن الهزيمة والنصر شىء آخر غير دلالة الفطرة واتجاهها . . وهو واحد فى الحالين !

والتفسير المادى للتاريخ يتمحل الأسباب للاستعمار فيقول إنها كامنة فى بحث رأس المال عن الأرباح والأسواق لتصريف فائض الإنتاج بعد الوصول إلى الإنتاج الكبير . . !

كذلك . . ؟ !

وليس فى انحراف من انحرافات الفطرة تنزع إلى الغلبة والسلطان وإخضاع الآخرين واستغلالهم ؟ !

فما تفسير الاستعمار الرومانى الشهير الذى استعبد أماً وشعباً بأسرها، وامتنص دماءها، وأكل خيراتها، وتركها فى أسوأ حال من الفقر والمرض والجهل، ليستمتع هو وحده بالذائد الحرام، والبذخ الفاجر، والتلذذ بجملات الدماء؟! وليس معنى هذا أن نلغى الأسباب المباشرة التى أدت إلى الاستعمار الحديث! وإنما معناه فقط أن نردها إلى مكانها من الفطرة فى انحرافها، حيث يستوى - من حيث الدافع - الاستعمار الأول والاستعمار الأخير!

ثم.. لقد شاء المذهب الشيعى أن يحول الفطرة عن طريقها فى مسألة الملكية الفردية، واستخدم لذلك الضغط والإرهاب والحديد والنار والتجسس، وكل وسائل الحكم البوليسى الشنيع، التى اعترف بها خروشوف فى «اعترافاته» عن عهد ستالين [بعد وفاته بطبيعة الحال!] فإذا كانت النتيجة فى النهاية؟! كان ذلك التراجع المستمر من قبل الحكم البوليسى، خطوة خطوة نحو الفطرة البشرية. من إباحة التفاوت فى الأجور بين عمال الطبقة الواحدة والعمل الواحد، وإباحة الملكية الفردية - فى المواد الاستهلاكية! - إلى اعتراف خروشوف بأن العمل فى المزارع الجماعية لا يسير كما كان مقدراً له، ولا يعطى الغلة التى تعطىها المزارع الفردية.. إلى...؟!!

كلا! إنها الفطرة فى النهاية - باعتبارياتها وانحرافاتهما - تحدد حدود التطور الاجتماعى والاقتصادى والسياسى، فى أثناء نموه الفطرى.. فتتركه - لسمعتها ومرونتها - يتشكل فى أشكال شتى.. ولكن فى حدود الفطرة فى نهاية المطاف!

* * *

وخلاصة البحث فى التطور الاجتماعى والاقتصادى والسياسى هو هذه المجموعة من الحقائق:

أنه قد يرتبط بالتطور فى أساليب الإنتاج. ولكنه لا يكون ارتباطاً الفعيجة

بالسبب . وإنما ارتباط المواقبة والمصاحبة ، مع تبادل علاقة السببية من طرفيها .
فيؤثر كل منهما في الآخر ويتأثر به .

وأنه ينشأ من خاصية النمو الفطرية في كيان الإنسان [ما لم يقف في طريق
النمو عائق غير طبيعي] .

وأنه - مع ذلك - ليس تطوراً حتمياً من حيث الصورة التي يأخذها .
وأنه - سواء كان ناشئاً من تدخل قدر الله المباشر كما في الديانات السماوية
كلها ، والإسلام على رأسها ، أو تدخله غير المباشر عن طريق ما أودعه الله
في الفطرة من طاقات - فهو في النهاية قائم على الفطرة البشرية ، ومردّه إليها .
وأنه أخيراً لا يخرج عن حدود الفطرة مهما تطور وتغير . فهو تغير في الصورة
لا تغير في جوهر الكيان .

* * *

كنا إلى هذه اللحظة نبحث في التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي .
وقد ردناهما في وضوح جازم إلى الفطرة البشرية وطاقاتها واستعداداتها ،
ووكدنا حقيقة ثبات الفطرة رغم هذه التطورات . ونريد - قبل أن ننتقل إلى
بحث اللونين الآخرين من التطور : التطور النفسي والتطور الأخلاقي - أن نبين
حقيقة هامة قد لا تتضح على حقيقتها في ظل ذلك التوكيد .

إننا لازلنا على الإطلاق قيمة التطور العلمي أو التطور الاجتماعي والاقتصادي
والسياسي . ولا نقول إنه لا يغير شيئاً في واقع الحياة !
ذلك كلام لا يقوله العقلاء !

كمن يقول إن الطفل الرضيع كالرجل البالغ في جميع الأوضاع !
وما قصدنا إلى شيء من ذلك . بل نحن - كما أسلفنا - نميل إلى إبراز
هذا التطور وذاك إبرازاً واضحاً ملموساً ، ونؤكد حقيقته !
ولكننا فقط نرده إلى الفطرة . . ونرد الفطرة إلى مشيئة الله وقدره .

إننا نريد أن نقول إن « صورة » الحياة كلها تتغير بعد كل اكتشاف أو اختراع جديد، وبعد كل تحول من التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وتجدد للناس مشاعر وأفكار وتصورات لم تكن من قبل، كما تقوم علاقات الناس فيما بينهم على هذه المشاعر الجديدة والأفكار والتطورات.

ولكن تغير « صورة » الحياة لا يغير « فطرة » الإنسان. هذه هي المسألة التي نكررها ونؤكددها. إنها أشكال متغيرة من فطرة ثابتة. وكلا التغير والثبات له حقيقته وله دلالة، بلا تعارض ولا تضارب. لأن « الحق » لا يتعارض ولا يتضارب إلا في الأفهام الجزئية التي لا تدرك ما بين بعضه وبعض من ارتباطه. إن النمو الدائم في جسم الطفل ونفسه وعقله حقيقة. . لها وزنها ودالاتها. ومع ذلك ففي الطفل ما في الرجل البالغ من خطوط فطرية أصيلة ونزعات فطرية. . بلا افتراق في الجوهر وإن تعددت الصور والأشكال.

الطفل يخاف والرجل البالغ يخاف. الطفل يرجو والرجل البالغ يرجو. الطفل يبحث عن الطعام والرجل البالغ يبحث عن الطعام. الطفل يصارع والرجل البالغ يصارع. الطفل يفكر والرجل البالغ يفكر. . الطفل « يكدح » والرجل البالغ يكدح. .

كل خطوط الفطرة الأصيلة ودوافعها موجودة في نفس الطفل، في صورة بدائية أو كامنة. . ثم تنمو. . حتى تصل إلى النضوج والاكتمال. .

وكذلك حياة البشرية. . كامنة بأكملها في فطرتها. . ثم تتشكل في مراحل النمو المختلفة، فتتحقق طورا بعد طور في صورة إثر أخرى. . وكل الصور تحقيق لذات هذا الكيان !

وإذ فرغنا من الحديث عن تطور أساليب الإنتاج — أو التطور العلمي بصفة عامة — والتطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وما بينهما من

ترابط ، ومدى ذلك الترابط ، ومدى ما بينهما من استقلال نسبي ، نتحدث الآن عن التطور النفسى ثم التطور الأخلاقى . . وقد كان من الممكن أن نتحدث عنهما معاً فى آن واحد ، لأن بينهما نوعاً من الترابط غير قليل . ولكنه كالترابط بين النوعين الأولين من التطور ، ليس ترابطاً كاملاً ، فكل منهما متخصص فى جانب ، كما سيتبين لنا من الحديث .

التطور النفسى [السيكولوجى] نقصد به مدى النمو والنضوج فى النفس من حيث هى مشاعر واتجاهات وأفكار وتصورات وقيم وارتباطات وجدانية . . على أوسع نطاق . والتطور الأخلاقى نقصد به تطور القيم الخلقية فى ميدانها المتخصص ، من حيث الحكم على أعمال الإنسان بأنها خطأ أو صواب ، حلال أو حرام ، مرتفعة أو هابطة . . ومن حيث مدى مراعاة الإنسان لهذه الأحكام . وواضح لأول وهلة أن هناك نوعاً من الترابط بين النضوج النفسى [السيكولوجى] والنضوج الخلقى . ولكن هناك إلى جانبه نوعاً من التخصص يجعل هذا غير ذاك . فقد تكون النفس ناضجة من حيث « قوة » المشاعر وعمقها واتساع نطاقها . . ثم تكون فى ذات الوقت منحرفة من الناحية الخلقية . . وعلى العكس قد تكون مستقيمة من الناحية الخلقية ولكنها من الناحية النفسية بدائية ضامرة غير مكتملة النضوج . لذلك أفردنا الحديث عن كل منهما ، مع بيان مدى الترابط ومدى الاستقلال .

* * *

التطور النفسى يتجه — فطرياً — إلى النضوج والتكامل فى كل جوانب النفس . وهو حركة فطرية تحدث فى النفس كما يحدث النمو فى الجسم ، فلا تحتاج إلى تفسير من خارجها ، إلا التفسير الذى يشمل الإنسان كله ، والكون على اتساعه ، وهو أنه يسير بمقتضى ما فطره عليه خالقه ، وما أودعه من سنن وطاقات واستعدادات ، وبمقتضى قدر الله الذى ينشئ كل نمو وكل حركة وكل تكيف فى هذه الطاقات والاستعدادات .

والتفسير المادى للتاريخ يجعل التقدم المادى — أى التقدم فى أساليب الإنتاج — هو محور التطور النفسى كذلك . ويستند إلى ظاهرة خداعة ، هى أن التقدم العلمى ، وما ينشأ عنه — فى نظره — من تقدم وتطور فى بنية المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، ينمى النفس بطريقة آلية ، لأن النفس هى انعكاس الوسط المادى . فإذا « ارتقى » الوسط المادى كان من جراء ذلك ارتقاء النفس . وتلك — كما نقول — ظاهرة خداعة !

حقاً إن التقدم العلمى يساعد على لون من النضوج .

فالطفل الذى يولد فى القرن العشرين ، فى النصف الثانى منه خاصة ، وحوله السينما والإذاعة والتليفزيون ، والطائرة والصاروخ ، والآلات الدقيقة التركيب ، وحوله التشابكات الاجتماعية المعقدة ، والتشابكات السياسية الدولية والمحلية ، المتقلبة من لحظة إلى لحظة . . ساعة تجنح إلى السلام وساعة تجنح إلى الحرب . . هذا الطفل أنضج ولاشك فى « معلوماته » وفى بعض مشاعره وتصوراته وأفكاره من رجل بالغ كان يعيش فى القرن العاشر مثلاً أو الثانى عشر . .

ولكننا نكون مخطئين إلى حد مضحك إذا تصورنا أن هذا الطفل أنضج فى مجموع نفسه من ذلك الرجل ! فهو طفل مهما يكن من نمو مدركاته . . يتناول الحياة بنفسية الطفل ومطالب الطفل وتصورات الطفل . . وذلك الرجل رجل بالغ مجرب ، ناضج فى مجموع نفسه بمقدار ما يتيح له بنيته الخاصة من النضوج . الدلالة التى نستخرجها من المثال واضحة . . إن التقدم العلمى ينضج حقاً بعض جوانب النفس . ولكنه — بمفرده — لا يصلح للحكم على مدى النضوج واتجاهه ، لأن الجانب الذى ينضجه ليس من السعة والشمول بحيث يعطى النفس طابعها المميز الأخير !

وقد وقع القرن العشرون فى هذه الأضلالة حين بهره التقدم العلمى ! لقد ظن أنه خير القرون طراً فى كل شىء ، لأنه أشد القرون تقدماً فى العلم ، وأشدها — حتى الآن — سيطرة على قوى الكون . .

وأعماه هذا الظن عن أن يدرك عيوبه . . النفسية والخلقية على حد سواء !
إن هذا القرن الذى تقدم فى العلوم كل هذا التقدم ، ففجر الذرة وأطلق
الصاروخ وغزا الكواكب . . يعيش بنفسية الطفل فى بعض جوانب الحياة ،
وبنفسية المراهق فى بعضها الآخر . وفى بعضها الثالث بنفسية الحيوان ، من غير
ضوابط الحيوان .

وهذا العلم كله — بمفرده ، أى بدون توجيه نفسى وخلقى معين — لا يستطيع
أن يصلح ما فسد من النفوس . بل هو قمين أن يزيدا فسادا لأنه يلهم غرورها
فتظن أنها على صواب ! [« قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ؟ الذين ضل سعيهم
فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » !] (١)

هذا التقدم العالمى كله : الثلاجة الكهربائية، والغسالة الكهربائية، والإنسان
الآلى والمنخ الإلكترونى . والزر الذى تضغط عليه فيدور مصنع كامل دقيق
الآلات أو ضخم الآلات . أو يأتيك طعام جاهز يلبي نداءك كالجنى القديم فى
الأسطورة . أو تسمع الموسيقى الحاملة التى ترتاح إليها نفسك . أو يتكيف جو
حجرتك أو فراشك . . أو . . أو . . الخ .

التقدم الذى ينقلك فى لحظة عبر العالم . تسمعه وتشاهده وتشاركه . فى
الإذاعة أو التلفزيون أو التليفون اللاسلكى . فيفتح لك نوافذ متعددة على العالم
ترى منها ما لم تكن تحلم أن تراه لو قضيت عمرك كله فى الأسفار . هذا وأنت
جالس فى مكانك لم تبرح . كالجنى القديم فى الأسطورة ينقل العالم إليك وأنت
مستريح . .

التقدم الذى نفذ إلى آفاق الكون ، فرأى ملايين الملايين من النجوم
والكواكب ، قاس حرارتها وعرف أبعادها ورصد أفلاكها . ثم قفز إليها يريد
أن يضع قدمه على أرضها .

(١) سورة الكهف [١٠٣ — ١٠٤]

هذا التقدم كله . . ماذا صنع في « نفسية » القرن العشرين ؟ . ولا نتحدث
بعد عن الأخلاق .

هذه الضحالة المزرية بكرامة الإنسان ! التي لا تطبق التعمق في المعرفة ولا
التعمق في المشاعر ولا التعمق في الأفكار . وإنما تريد أن تأخذ الأمور كلها من
سطوحها . قفزا قفزا . كالأثر المجنون .

هذه التفاهة « الجزئية » في الحكم على الأمور ، التي لا تطبق النظرة الشاملة
ولا تصبر عليها ، وإنما تأخذ كل جزئية بمفردها ، منفصلة ومستقلة ، على غير
حقيقتها في بنية الكون وبنية الأحداث .

هذه الآلية الهابطة ، التي تحيل المشاعر والأفكار والأعمال نشاطا آليا
كنشاط الآلة . زر يضغط عليه فتنتطق أعمال . زر يضغط عليه فتنتطق أفكار .
زر يضغط عليه فتنتطق مشاعر . أقرب إلى مشاعر البهيمة ، وأحيانا أخط من
مشاعر البهيمة المحكومة بفطرتها المضبوطة المستقيمة .

هذه المادية المغلقة التي تغلق جوانب الروح ، وتطمس على رفرقاتها ، وتجمم
على الأرض لا تريد الانطلاق ولا تقدر عليه .

هذه « الواقعية » المريضة التي تعيش في حدود اللحظة ، وتأني أن « تتصور »
و « تتخيل » .. لتتصور « الكمال » وتسعى إلى تحقيقه .

هذه الحسية التي تحيل المشاعر لذة جسد محصورة ، لا تندى بعواطف
« الإنسان » .

تلك هي حصيلة « التقدم ! » النفس في القرن العشرين ! ولا نتحدث بعد
عن الأخلاق !

إنها حصيلة « الآلة » ! حصيلة تحويل الإنسان كله إلى آلة تعمل في نطاق
الحس القريب .

إنها اختلال نفسى لا مثيل له قط في سالف القرون !

* * *

والتفسير المادى للتاريخ يقدم لهذا الأمر تفسيرات شتى ، ومبررات شتى .
بعضها يقدمه في تبجح وبعضها يقدمه على استحياء.. فحتى التفسير «المادى» للتاريخ
ينبغي أن يستحي من هذا المسخ المشوه الذى صار إليه الإنسان في القرن
العشرين !

وما يعنيننا هنا أن نناقش التفسيرات والمبررات والاعتذارات . ولكن
يعنيننا فقط أن نبرز هذه الحقيقة : أن التقدم العلمى لا علاقه له بالوضع النفسى
للإنسان . فالعلم يتقدم فى سبيله ، صاعداً أبداً ، كل خطوة تؤدى إلى تقدم جديد .
والنفس تمضى فى سبيلها . إن وجهت الوجهة الصالحة يكون فيها الخير ، وإن
وجهت الوجهة الفاسدة لا يمسكها عن الفساد كل التقدم العلمى والتطور فى
أساليب الإنتاج . . بل قد يزيدها فساداً كما هو الحال فى القرن العشرين .

ونعود إلى دراسة التطور النفسى فى ذاته . ما هو ؟ وما العوامل المؤثرة
فيه ؟ وما دلالاته على الفطرة البشرية ؟

النفس البشرية — ككل شئ فى حياة الإنسان — تنمو بفطرتها نحو
النضوج والتكامل والتعقد والشمول .

وتتعرض فى أثناء نموها للاعتدال والانحراف . كلاهما فطرة فى طبيعة
الإنسان (١) . .

فى طفولتها تكون أقرب إلى البساطة . تعبيرها ساذج مباشر . « فراملها »

(١) انظر كتاب الدراسات ، « فصل الانحراف والشذوذ »

ضعيفة التكوين . حسية أكثر مما هي معنوية . جزئية أكثر مما هي شاملة .
جزئية في تناولها للحياة وتفسيرها للأمر . وفي الوقت ذاته واسعة الخيال على
غير أسس تحكم هذا الخيال . فهو خيال مطلق يتخيل كل شيء ويصدق كل
شيء في بساطة وسهولة ويسر .

وتأخذ البشرية في النضوج . .

لماذا ؟

هكذا ركب في فطرتها . فلا تحتاج إلى مبرر آخر !
ولكن النضوج [أى النمو] يحتاج إلى غذاء . وإلا فإنه يذبل
ويذوى ويموت .

والخلاق الذى خلق النفس ووضع في فطرتها ذلك النمو ، وضع لها كذلك
غذاءها « الفطرى » على مقربة منها . كما جعل الثدي على مقربة من فم الطفل ،
والغذاء كله على مقربة من الإنسان .

غذاء النمو النفسى هو « التجربة » . . وفي فطرة الإنسان أن يحرب
ويستفيد بالتجربة .

وميدان التجربة هو الحياة كلها على الاتساع : في عالم الحس وعالم النفس
وعالم الروح . في الكون المادى والكون المعنوى سواء .

« عقل » الإنسان يحتك بالكون المادى فتكون تجربة . يكشف النار .
يكشف خواص المادة . يكشف طريقة « التعامل » مع المعادن أو النبات
أو الحيوان .

و « نفس » الإنسان تحتك بالكون المادى فتكون تجربة من نوع آخر .
يكشف عجزه عن أمور ومقدرته على أمور . ومن العجز والمقدرة كليهما
تتكون له مشاعر وعقائد وأفكار . فيتعبد . ويعتقد . ويتجبر أحيانا ويفتر !

ويحاول التغلب على العجز بالمزيد من القدرة ، فتنمو في نفسه وعقله وجسمه طاقات مختلفة كانت كامنة من قبل .

ويحتك بالناس فتكون تجربة من نوع ثالث . . بل تجارب شتى متعددة . يكتشف أنه يحب الناس ويكره الناس [لأسباب ١] (١) وأنه يطنى على غيره أحيانا فيستخذى هذا الغير أو يقاوم الطفيان ، وأنه هو كذلك يستخذى لطفان غيره عليه أحيانا ويقاوم أحيانا . وأنه يحتاج إلى الناس ويستغنى عن الناس . ويتخاصم ويتصافى . . ويحارب ويسالم . . ويتعاون وينعزل . . فتنشأ من كل ذلك « نظم » وشرائع وعلاقات .

وهكذا . . كلما خطا خطوة وقعت له تجربة جديدة ، ومن هذه التجارب ينمو ويتسع ويشدد قوامه . ويتدرج من البساطة إلى التعقيد ، من التعبير الساذج المباشر إلى التعبير الناضج البعيد الغور . وتقوى « عضلات » نفسه وفراملها ، ويختلط الخيال بالواقع ، ويصير أقرب إلى « تعقل » الأمور .

وتتواكب الأمور كلها في وقت واحد . . في عملية النمو السوية . فتزداد الخبرة وتحسن العدد والآلات وأدوات الإنتاج ، وينمو الكيان الاجتماعى والاقتصادى والسياسى . . وكذلك تنمو « النفس » في مجموعها وتنضج وتعمق . ولكن الأمور لا تستقيم في كل حالة . . فقد ينمو جانب من النفس أو جانب من الحياة ويتعثر جانب آخر . . فلا يحدث التواكب الفطرى السليم الذى ينبغى أن يكون .

يتقدم الإنتاج المادى أو الخبرة النفسية أو الخبرة الفكرية ولا تستقيم بقية الخبرات . .

(١) يقول فرويد إن الحب والكره ظاهرة مزدوجة في الكيان النفسى تحدث بلا سبب ! وقد ناقشنا ذلك تفصيلا في كتاب الدراسات .

وقد غرّف التاريخ نماذج من ذلك كثيرة . .

فالإغريق قد بلغوا الذروة — في عصرهم — في التقدم « الفكرى »
الخالص . فى الفلسفة والعلوم النظرية . ومع ذلك كانت فى حياتهم اختلالات
جمة . أبرزها الاختلال فى الجانب الروحى . فالذهن المتضخم كان يطفئ على
نشاط الروح .

والهند — فى عصرها — بلغت الذروة فى التقدم « الروحى » . . فى
إشرافات التصوف وسبحات التعبد ، و « الفناء » فى الكل الأعظم الذى يشمل
روح الوجود . ومع ذلك كانت فى حياتهم اختلالات جمة . أبرزها السلبية
المنصرفه عن الإنتاج المادى . فالنشاط الروحى المتضخم يفسد إيجابية الحياة .

والرومان — فى عصرهم — بلغوا الذروة فى التقدم « المادى » . . فى
تطبيقات المدنية العملية ، من طرق وجسور وخزانات وحمامات وهندسة للرى
وتنظيمات للحكم وسياسة للسلم والحرب . . ومع ذلك كانت فى حياتهم
اختلالات شتى . أبرزها الاختلال الروحى والخلقى . . فقد انغمسوا فى لذائذ
الحس وتكالبوا على متاع الأرض ، فانقلبوا وحوشا يلغون فى الدماء أو أجسادا
بلا أرواح .

والمصريون — فى عصرهم — بلغوا الذروة فى النشاط الروحى والنشاط
المادى معاً . فكانت لهم عقائد وعبادات أرقى بكثير مما عرفه زمانهم فى شتى
الأمم ، وفيها نفعه من بقايا الديانات السماوية التى وصلت إليهم ، وإن كانت
مشوهة منحرفة ، وكانت لهم هندسات وتنظيمات وإنتاج مادى رفيع . . ومع
ذلك كانت فى حياتهم اختلالات شتى . أبرزها عبادة القرعون وتأليهه ،
والاستنامة من ثم للضفط والطغيان [وهو عيب بارز فى تاريخهم كله] والجنوح
إلى التفكير فى الموت والعالم الثانى ومن ثم الاكتفاء من الحياة الدنيا بالحد

الأدنى الذى لا يرفع مستوى الحياة ؛ لا عن عجز عن المدنية والتقدم [فقد كانت الصناعات الدقيقة الرفيعة كلها تصنع من أجل الفرعون وبتسخيره] ولكن عن قناعة ذليلة ترتضى لقمة الخبز والحصير المفروش على الأرض الجرداء .
فى كل هذه الحالات لم يتواكب التقدم فى جوانبه المختلفة كما ينبغى أن يكون . .

كانت البشرية فى طفولتها . . أو فى طفولاتها المختلفة .

ثم بلغت سن الرشد فى فترة من حياتها معينة . . على يد الإسلام .
يمكن أن نقول إنها بلغت سن الرشد بدعوتها إلى الإسلام أو باستجابتها إليه ، يوم خاطب الله تعالى المسلمين بقوله : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » (١) .
فى ذلك اليوم كان قد اكتمل لها الرشد حقاً ، وانطلقت تقيم الخلافة الراشدة على ظهر الأرض . . فكيف كان ذلك الرشد ؟ وما مظاهره ومميزاته ؟

الرشد العقلى ظاهر فى طبيعة الرسالة ذاتها . . التى تخاطب العقل ، ولا تقهره بالمعجزات الحسية ، وإنما ترشده وتوضح له المسالك ليهتدى — بذاته — إلى الحق الذى خلقت به السماوات والأرض وما فىهن . والذى تقوم عليه حياة الإنسان وتقوم به أعماله فى آخرته ودنياه .

وظاهر كذلك فى إطلاق طاقة العقل فى جميع ميادين النشاط العقلى المتاحة للإنسان . . يتدبر آيات الله فى الكون ، ويتعرف على « القوانين الطبيعية » والنواميس التى تحكم كيانه . ويمشى فى مناكب الأرض يبحث عن الرزق ، فيجتك بالكون المادى ويستنبط طاقاته . ويمشى فى « التاريخ » فيستنبط

(١) سورة المائدة [٣]

أسباب قيام الأمم وزوالها ، ويستفيد بها خبرة لحاضره ومستقبله . ويتدبر حكمة التشريع ليقوم تنظيماته السياسية والاقتصادية والاجتماعية على هدى وبصيرة .

والرشد الروحى فى الاهتداء إلى الله الحق . والاتصال به . والاستعداد منه . والتعبد الصحيح إليه ، بإفراده بالعبودية ، ونبد العبادات الضالة كلها ، من عبادة بشر لبشر ، أو عبادة بشر لوثن أو قوة من قوى الكون ، أو عبادة بشر لذاته وأهوائه وشهواته . .

والرشد « الحسى » فى البحث عن وسائل التقدم المادى والحضارى ، وهضمها وتمثيلها والإضافة إليها حتى صارت حضارة الإسلام مضرب المثل فى التاريخ . .

كيان راشد ناضج تواكبت جوانب النمو فيه فتوازنت على شمول وإحاطة . وكانت تلك قمة البشرية . .

وانطلقت تلك الأمة الراشدة تبني مثلاً للتاريخ . . مُثْلاً فى كل جوانب الحياة وكل مجالات النشاط الإنسانى . الفتح الخاطف الذى لا مثيل له من قبل ولا من بعد فى كل التاريخ . . من المحيط للمحيط فى نصف قرن من الزمان ! نشر العقيدة الصحيحة فى ربوع الكون المعمور على ثبات وقوة وتمكن .

إقامة المثل الخلقية الباقية التى تستمد منها البشرية كلها فى جميع عصورها فى شخص الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين صنعهم على عينه : أبى بكر وعمر . . وعثمان وعلى . . وأبى عبيدة وخالد . . وسلمان وصهيب . . وبلال وعمار . وأسماء وعائشة . . وفاطمة وأم سلمة . . وسمية ونسيبة . . ومثات وألوف على مدار الأجيال حتى اللحظة الراهنة رغم جميع التقلبات والأحداث !

إقامة الحضارات بكل الوسائل المتاحة فى الأرض .

إنشاء المذهب التجريبي الذى قامت عليه بعد ذلك العلوم الحديثة كلها ،
 وخطا به العلم هذه الخطوات الجبارة فى العصر الحديث ..
 و... فى كل جانب من جوانب الحياة ..
 تلك كانت قفة البشرية .. « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون
 بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » (١) .
 ولكن « البشرية » لم تحافظ على قفتها !
 لقد تقدم العلم . وتقدمت « الخبرات » النفسية فى شتى الميادين .. ولكن
 عادت الاختلالات إلى الظهور !
 تنجح البشرية بروحها مرة . وعقلها مرة . وجسدها مرة .
 تهتم بالحضارة المادية وتهمل حضارة الروح ..
 تهتم بالتقدم العلمى وتهمل التوجيه الخلقى ..
 تهتم بالحياة الدنيا وتهمل الآخرة ..
 وتفقد البشرية توازنها ، ولا تتواكب الخبرات .. فينحدر الكيان
 النفسى فى مجموعه ..

وتنشأ من ذلك « حضارة » القرن العشرين !

* * *

حين نصل إلى هذا الحد من البحث ، نعود إلى زاوية النظر التى نرصد
 منها الموضوع كله .. « دلالة الفطرة » .

لقد قلنا من قبل إن التقدم العلمى جزء من الفطرة يحققها فى أحد جوانبها .
 وكذلك قلنا عن التطور الاجتماعى والاقتصادى والسياسى .. وقلنا إن هذا
 التطور وذاك لا يخرجان عن حدود الفطرة فى نهاية المطاف ..

فماذا نقول هنا عن التطور النفسى ؟

إنه نفس الموقف ونفس القضية . .

كل ما يحدث فهو فى حدود الفطرة . .

ولكن الفطرة هنا — بصورة أوضح من كل ما سبق — ذات وجهين متقابلين ، ينشأ من أحدهما الاعتدال ، ومن الآخر ينشأ الانحراف !

إن الخلط النفسى — كما رأينا — لا يصعد دائماً فى جميع الحالات ، كخط التقدم العلمى . .

ولذلك سبب من ذات الفطرة !

التقدم العلمى صاعد أبداً لا ينكص ، لأن فى فطرة الإنسان أن يطلب المزيد من المعرفة . وفى فطرته أن يحسن على الدوام ما يملك من أدوات . إن التحسين يستجيب للفطرة من كل جوانبها . فهو يلبي رغبته فى المعرفة . ورغبتها فى الجمال . ورغبتها فى التطلع إلى الكمال . كما أنه يستجيب لرغبتها فى الراحة ورغبتها فى القوة والقدرة والبروز . فكل تحسين يحقق — ولو فى أحد جوانبه — مزيداً من الراحة للإنسان [وذلك دافع من دوافع الاختراع : تيسير الحياة] كما يحقق شموراً بأن الإنسان قد قدر على عمل جديد ، وبهذه القدرة يحقق ذاته ويبرز . . وفى اختصار فالفطرة هنا دافعة دفعا ملحاً دائماً نحو التقدم العلمى . ولهذا ظل التقدم العلمى يسير فى خط صاعد طوال التاريخ . لهذا ، وليس لأى سبب آخر من « خارج » الفطرة ، يدعيه التفسير المادى للتاريخ ! ولهذا الكيان الكلى الشامل ، الذى يشمل الإنسان كله ، لا جزء واحد منه كما زعم التفسير المادى للتاريخ حين قال إن تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث عن الطعام ! فقد رأينا فى الدراسة السابقة أن تاريخ الإنسان كان دائماً تاريخ المحاولة لتحقيق كيان « الإنسان » ولم يكن تاريخ البحث عن أى جانب واحد منفصل فى هذا الكيان !

أما التطور الاجتماعى والاقتصادى والسياسى فهو يسير قدماً فى جانب واحد منه : هو جانب التعمد والتشابك وإحكام الروابط و « مزجها » بعضها ببعض . ولكنه لا يسير قدماً من حيث « الكيف » ، فهو يسير متأرجحاً بين الفردية الطاغية والجماعية الطاغية . . وأبرز الأمثلة على ذلك : الرأسمالية والشيوعية فى القرن العشرين . ولكن مرد ذلك أيضاً إلى الفطرة ! ففيها اعتدالات وفيها انحرافات ، وفيها مرونة تتسع لأشكال شتى وضغوط متعددة . . حتى تثور فى النهاية وتلفظ ما لا يناسبها من الأوضاع والظروف . . وفى كل ثورة من ثورات الفطرة يحدث انتقال من طور إلى طور ، ينطلق فى طريقه فترة حتى تغلبه الانحرافات فيبيت فى انتظار انقلاب جديد . وهذا — وليس التطور فى أساليب الإنتاج وحده كما يزعم التفسير المادى للتاريخ — هو الذى يفسر التطور الاجتماعى والاقتصادى والسياسى فى حياة البشرية .

وأما التطور النفسى فهو لا يسير على خط واحد على الإطلاق !

هناك مرحلة كان خط التطور واضحاً فيها . . إلى الأمام ، وهى المرحلة السابقة لمرحلة الرشد . . والتي أدت إلى الرشد .

كان النمو فى هذه المرحلة هو العنصر البارز الواضح . النمو إلى الأمام . إلى النضوج والتكامل والشمول . ومع ذلك فلم يكن خطاً واحداً صاعداً فى كل مراحلها . فالتاريخ يثبت قيام حضارات وانهيارها ، والانهيـار نكسة إلى الوراء . ومعنى ذلك أنه يحدث تقدم ونكوص . فلا يسير الخط على سواء .

ثم بلغت البشرية الرشد على مولد الإسلام وانتشاره . . ولم ترتفع قط عن تلك القمة فى تاريخها كله . فقد كانت هذه أعلى قمة وصلتها البشرية . . وكذلك لم تثبت عليها ، بل أخذت فى الانحدار .

وقد حدثت أنواع من النمو الجزئي في النفس البشرية بعد الإسلام ولاشك، في الجوانب التي تتغذى على التقدم العلمى الصاعد أبداً ، وعلى التعمد الاجتماعى والاقتصادى والسياسى الدائم [التعمد لا التقدم] . . ولكن النفس فى مجموعها لم تتقدم بعد تلك القمة أبداً بل لم تثبت عليها . وقد مر بنا بيان الانحدار النفسى المتواصل فى « حضارة » القرن العشرين .

والمرجع الأخير هنا — كما فى الأمور الأخرى كلها — هو الفطرة !
ففى الفطرة البشرية استعداد للهبوط يقابل الاستعداد للارتفاع . كلاهما فطرى . وكلاهما أصيل . ليس أحدهما مجلوباً من خارج النفس ولا مفروضاً عليها من خارجها « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » (١) « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » (٢) [(٣)]

والنفس — فى حالتها — داخل حدود الفطرة كما خلقها الله . .
والتوجيه هو الذى يدفع النفس إلى فطرة الارتفاع أو فطرة الهبوط .
ولقد كان التوجيه الإسلامى هو قمة التوجيه نحو الارتفاع ، وكان النظام الإسلامى هو قمة الأنظمة التى تسمح بتحقيق ثمرة ذلك التوجيه ، فارتفعت النفس البشرية إلى قمته . والتوجيه الغربى فى القرن العشرين هو الدرك المقابل للتوجيه الإسلامى ، والأنظمة الغربية تكمل هذا التوجيه وتحققه فى عالم الواقع ! فهبطت به النفس البشرية إلى دركها الأسفل ، الذى لا يبدو أن هناك مزيداً عليه .
الضخالة المزرية بكرامة الإنسان . . التفاهة الجزئية فى الحكم على الأمور . .

(١) سورة الشمس [٧-١٠] (٢) سورة التين [٣-٦]

(٣) انظر كتاب « دراسات فى النفس الإنسانية » .

الآلية الهابطة . . المادية المخلقة التي تغلق جوانب الروح . . الواقعية المريضة التي تعيش في حدود اللحظة . . الحسية التي تحيل المشاعر لذة جسد محصورة .
ولكن النفس البشرية قابلة للصعود مرة أخرى حين يهتف لها هاتف الصعود . .

وفي حالتها تكون في حدود الفطرة . . وتكون الفطرة — بشعبتها المتقابلتين — ثابتة رغم تغير الأشكال !!

* * *

والآن نقرب حيناً من الحديث عن « التغير » الأخلاقي . . ولا نقول « التطور » !

على هدى ما تبين لنا من دراسة التطور النفسى ، لا نجد مشقة في تتبع التغير الأخلاقي في تاريخ البشرية . فهنا تبدى لنا الفطرة البشرية المزدوجة في أجلى معانيها وأوضح مظاهرها .

فلئن كان الخط العالمى صاعداً أبداً لا ينكص . . ولئن كان « التعقد » الاجتماعى والاقتصادى والسياسى صاعداً أبداً [دون التقدم في هذا الميدان ذاته] ولئن كان التطور النفسى أقل استقامة وأكثر تقلباً . . فالجانب الأخلاقى من الحياة البشرية هو أكثرها تقلباً على الإطلاق ، وأقلها استقامة على « خط » معين في أى مرحلة من مراحل التاريخ .

إنها بادية ذى بدء مسألة تبرز فيها الفردية على الرغم من تأثرها بالحيط الجماعى الشامل ، ولا يكون التخصص الفردى واضحاً بقدر ما يكون فى الجانب الخلقى . فلئن كان التقدم العالمى والتطور الاجتماعى تحكمهما الظروف الجماعية بشكل واضح ، وكان التطور النفسى مزيجاً من الفردية والجماعية . . فالمسألة الخلقية يبرز فيها الجانب الفردى ، وإن يكن الحيط الجماعى الذى يعيش فيه

الفرد هو الذى يساعد أو يعوق النمو الخلقى فى الأفراد على تفاوت فى التأثير يرجع إلى طبائع الأفراد ومدى صلابتها .

ثم إنها لم تتخذ خطأ مستقبيا أبدا فى التاريخ . . إنما أخذت على الدوام صورة دورات صاعدة هابطة .

يهتف للبشرية هاتف بالصعود : نبي مرسل أو زعيم مصلح أو قائد . . فتتجه — فى مجموعها — إلى الصعود فترة من الوقت ، ويبقى حثالة من الناس فى أسفل القاع ، مذمومين مدحورين . لأن الموجة صاعدة . ثم يتعب الناس من الصعود ، أو من الاستقامة على القمة ! فيبدأون دورة الهبوط . . وهنا تنتفش الحثالة الموجودة فى أسفل القاع ، وتمس أن « الضغط » عليها قد خف ، فتأخذ فى النشاط ، ويكون نشاطها فى مبدأ الأمر محدودا ، ومنظورا إليه باستنكار . وتهبط الموجة أكثر ، ويخف الضغط على الحثالة الواطية ، فترداد انتفاشا ونشاطا وتنسلم هى القيادة ! وتبقى قلة من الناس مرتفعين ، ولكن تحت ضغط مرهق عنيف . . وتشتد الموجة فى هبوطها حتى تطفى . . ونصطدم بقرارة الفساد فى النفس البشرية حتى تمجها « الفطرة » . . حتى الفطرة المريضة . . فتبدأ تلفظها لأنها تجاوزت آخر مداها . وعندئذ تأخذ الموجة فى الصعود مرة أخرى على يد نبي مرسل أو زعيم مصلح أو قائد . .

وذلك تاريخ البشرية !

ولئن كان التطور الاجتماعى والاقتصادى والسياسى ألصق شىء بالتطور المادى ، ومع ذلك فهو مستقل عنه ، ويمكن أن يوجد بلا تدخل منه [كما حدث فى الإسلام] ، وكان التطور النفسى أقل لصوقا بالتطور المادى ، وأكثر استقلالا عنه ، فالتغير الأخلاقى هو آخر شىء يمكن أن يرتبط بالتطور المادى ! والقصة الطويلة — جدا — التى يرويها التفسير المادى للتاريخ ، فى ارتباط الأخلاق بتطور أساليب الإنتاج . . قد كذبتها شهادة التاريخ !

ولا نحتاج أن نعود إليها ! فقد تبين لنا من شهادة التاريخ أن وضعين متشابهين إلى حد يثير الدهشة ، قد فصل بينهما ألفا عام . . وفصل بينهما ما بين العمل اليدوى ، واستخدام الطاقة الذرية فى الصناعة والزراعة والطب و.. التدمير ! إذن . . فالعلاقة بين الأخلاق ووسائل الإنتاج هى أضعف العلاقات على الإطلاق .

ولسنا نقول — مع ذلك — إن تفسيرات التفسير المادى للتاريخ بشأن «تطور» الأخلاق فى القرنين الأخيرين كلها بعيدة عن الواقع ! إنما نقول فقط إنها تفسيرات مضللة لأنها تأخذ فى حسابها المظهر الخارجى ولا تنفذ إلى الباطن . . إلى « الفطرة » .

إن كل التغيرات الأخلاقية التى حدثت مع الانقلاب الصناعى ، ومع الداروينية والتوجيه اليهودى ، لم تكن حتمية ! وهنا مغرق الطريق بين التفسير المادى للتاريخ ، والتفسير الإنسانى للإنسان !

ظروف أوروبا المحلية هى التى أنشأت الانهيار الخلقى فى تلك الفترة ، وليست الطبيعة البشرية .

« فالتطور » — بمعنى نمو الحياة وتجدها — كان عنصراً دائماً فى حياة المسلمين . . فلم يفسدهم . لا أفسد أخلاقهم ولا أشاع الخلل فى نفوسهم . إنما فسدوا واختلت نفوسهم حين تغيرت فى حياتهم دوافع النمو والتجدد ، وجنحوا إلى الجمود والتحجر .

والصناعة — فى حدود — كانت جزءاً من مكونات المجتمع الإسلامى . . فلم تفسدهم . لم تفسد أخلاقهم ولا جعلتهم يتركون الآخرة لحساب الدنيا ويتكالبون على متاع الأرض . إنما فسدوا حين قل نشاطهم الصناعى وحصروا أنفسهم فى ألوان من الإنتاج ضئيلة الفائدة .

وتحرير المرأة — نفسياً وإنسانياً — كان جزءاً أصيلاً من العقيدة الإسلامية ذاتها التي حررت الإنسان كله — بشقيه — من كل عبودية لغير الله تعالى ، وجعلت أداة تحريره الكبرى هي علاقته المباشرة مع الله ، التي يستصغر بعدها كل قوة من قوى الأرض ، ويرفض الخضوع لها إلا أن تكون هي مهتدية بهدى الله . ومنذ اللحظة الأولى للبعثة الحمديّة أخذت المرأة وضعها الإنساني والاقتصادي والاجتماعي ، فاتصلت بربها مباشرة ، وصار لها حق الملك والتصرف والخطبة والزواج [وطلب الطلاق أيضاً] وصارت تجادل عن حقوقها [« قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله . والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير »] (١) ثم نزل الوحي بإنصاف المرأة وتثبيت حقها الإنساني في الحياة . . . ومع ذلك فهذا التحرر لم يفسد المسلمين . وإنما فسدوا يوم طفوا على كيان المرأة فخنقوا كيانها المنحدر وغلقوها بعبودية لغير الله ظالمة ، وتأخر وقذارة وانحطاط . . .

ومن ثم فكل « العوامل » التي ينسب إليها هوان التفسير المادي للتاريخ « تطورا » المفاهيم الخلقية في القرنين الأخيرين كانت — في صورة ما — موجودة في المجتمع الإسلامي فلم تفسده ، بل كانت دعامة من دعائم الأخلاق فيه .

إنما كانت هناك أمة مؤمنة . على هدى من دينها . راشدة لا تستمع للتوجيه اليهودي الماكر الخبيث . ولذلك لم تفسد بهذه العوامل المزعومة ، بل تماسكت وصعدت على استواء .

ولو حدث « الانقلاب » الصناعي في أمة مسلمة مؤمنة مهتدية ، فقد كان حرياً أن يقوم أخلاق الأمة ويزيد تماسكها ، لأن يفرض عقدها ويحل أخلاقها ويطلق فتياها وفتياتها كالبهايم الشاردة لا تشيع من السعار المجنون ، بينما الحيوان ذاته محكوم بفطرة مضبوطة لا تنحرف عن خطها القديم :

(١) سورة المجادلة [١]

إنما « حضارة » الغرب الملحدة الكافرة هي المسئولة عن التحول الهابط ،
وليست وسائل الإنتاج ولا حتمية التاريخ !
وعلى أى حال فكل جدلٍ زائفٌ بعد شهادة التاريخ !

* * *

ونريد أن نخلص من الموضوع إلى غايته ..
لقد رأينا أن هناك أربعة أنواع مختلفة من التطور :
التطور المادى — التطور الاجتماعى — التطور النفسى — التطور [أو التغير]
الأخلاقي .

ورأينا أن سردها جميعا فى نهاية المطاف إلى الفطرة . كما رأينا أن الفطرة
شئ ثابت رغم تعدد الأشكال وتطورها على الدوام .
وهنا شبهة ينبغي أن نزيلها بقوة .
إن قولنا المكرر الملح بأن الفطرة ثابتة لا يعنى قط أننا نلغى من حسابنا
قيمة التطور .

إننا إن ألغينا قيمة التطور فإننا نلغى حقيقة الإنسان ! فالإنسان مخلوق
ليتطور على الدوام . والتطور أبرز ما فى فطرته ، وأشد ما يميزها عن فطرة الحيوان
وعن كل فطرة ثابتة الكيان .

كل ما فى الأمر أننا نرد التطور الدائم إلى الفطرة الثابتة الجوهر . ونرى —
فى ذات اللحظة — الجوهر الثابت والصورة المتغيرة حقيقتين متجاورتين ،
أو حقيقة واحدة شاملة تفسر كل نشاط الإنسان .

ثم نمحكم على الإنسان — فى تطوره — بالمقياس الثابت الذى تقدمه الفطرة !
وهذه الحسبة الرياضية المعقدة فى ظاهرها — أو المتناقضة — بسيطة جداً حين
نمثل لها فى كل من الأنواع الأربعة السالفة من التطور .

فمقياس الفطرة الثابت بالنسبة للتقدم العلمى أنه يسير فى خط صاعد أبداً . وبهذا

المقياس - الثابت - نحاسب الإنسان . فكل إنسان يأخذ بنتائج العلم في تقدمه النظرى والعملى فهو سليم الفطرة سائر في الطريق الصحيح . وكل إنسان يرفض - لأى سبب - الاستفادة من ذلك التقدم فهو منحرف الفطرة في حاجة إلى علاج . ومقياس الفطرة الثابت بالنسبة للتقدم الاجتماعى والاقتصادى والسياسى أنه ينحو دائماً نحو التشابك والتعقد ، والمفروض فيه أن يعمل على التوازن بين مختلف طاقات البشرية ونوازعها . فكل جيل من الناس يصلون إلى هذا التوازن ، فتتضج نظمهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على توازن : توازن بين الفرد والمجتمع ، وبين الطاقة المادية والطاقة المعنوية ، وبين السلبية والإيجابية ... الخ ... الخ فهو جيل سليم الفطرة سائر في الطريق الصحيح . وكل جيل يرفض النضوج الاجتماعى والاقتصادى والسياسى ، أو ينحرف عن التوازن فهو جيل متخلف أو منحرف . في حاجة إلى علاج .

ومقياس الفطرة الثابت في التطور النفسى هو النمو الدائم نحو النضوج والتكامل والشمول والتوازن . فكل فرد أو جيل يتجه نحو هذا اللون من النمو فهو سليم الفطرة سائر في الطريق الصحيح . وكل فرد أو جيل يثبت على درجة معينة من النمو - متخلفة - أو يتقدم ببعض جوانب نفسه ويتأخر ببعض ، أو يفقد توازنه ، فهو منحرف الفطرة في حاجة إلى علاج [والمقياس الواضح المحسوس هو القمة التى وصلت إليها البشرية على هدى الإسلام مع إضافة ما يحج بطبيعة الحال من تقدم علمى وتقدم فى أشكال المجتمع ، وهو أمر تدعو إليه طبيعة الإسلام ، فمن اتجه نحو هديها فهو سائر في الطريق الصحيح ، ومن انحرف عنها فهو منحرف معتل] .

ومقياس الفطرة الثابت في الجانب الخلقى أن يكون الإنسان إنساناً ! وهو مقياس مستمد من الفطرة ! فالإنسان قبضة من طين الأرض ونفخة من روح

الله ، ممتزجتين مترابطتين في كيان موحد . له دوافعه وأشواقه . دوافع الجسد وأشواق الروح . له نزعاته الفطرية من طعام وشراب وملبس ومسكن ، وجنس وتملك ، وصراع وبروز .. وله « قيم » تجعل لجميع الأعمال غاية وهدفا ، ولا تكون هي هدفا في ذاتها كما يحدث في عالم الحيوان . وهدفا واعيا مدركا بما يتناسب مع طبيعة الإنسان .. ثم إن له إلى جانب الدوافع ضوابط تضبط منصرفات الطاقة الفطرية وتنظفها دون أن تكبتها أو تقتلها من منبعها ، وهذه الضوابط فطرية كالدوافع سواء بسواء ، يستخدمها الإنسان السوى استخداما فطريا غير مفروض من الخارج [وإن كانت تنمية الضوابط في حاجة إلى عون خارجي بالترية ، كالقدرة على النطق والقدرة على المشي ، فطريتان كمنتان في الجسم . ولكنهما تحتاجان إلى العون الخارجى لانتقلا من الحالة الكامنة إلى الوجود الواقعى] . وفي هذه الفطرة خطوط متقابلة : الخوف والرجاء . الحب والكراه . الحسية والمعنوية . الإيمان بما تدركه الحواس والإيمان بالغيب . الواقع والخيال . السلبية والإيجابية . الالتزام والتحرر . الفردية والجماعية .. وهذه الخطوط مهمتها أن تعدد جوانب الإنسان وتوازن نشاطه .. ثم إن في صميم الفطرة أن تهتدى إلى خالقها ، فتعرفه وتتصل به وتقبس من نوره وتهتدى بهديه وتتبع له وحده .. ومن هذه القاعدة تنبثق كل مبادئ الأخلاق^(١) فمن سار عليها فهو سليم الفطرة سائر في الطريق الصحيح . ومن انقلب عليها فهو منحرف هابط مرتكس إلى مستوى الحيوان !

* * *

وهواة التفسير المادى للتاريخ يجادلون أشد الجدل في هذه الدلالات . وفي الدلالة الخلقية خاصة . يجادلون في أن ما حدث في القرن التاسع عشر والقرن العشرين هو انحراف عن الفطرة . ويقولون إنه تطور ، وإنه صاعد ، وإنه سليم !

(١) انظر بالتفصيل كتاب الدراسات .

ولقد سمعنا من قبل شهادة التاريخ لتزييف قصة التطور ، فأثبتت لنا هذه الشهادة أن ما حدث في العصر الحديث لم يكن « تطورا » فريدا في بابه ، ناجما عن الظروف المادية الخاصة بهذا العصر ، إنما كان له شبيه في حياة الإغريق والرومان من قبل ألفين من السنين !

فالآن .. لكي نتأكد من دلالة الفطرة بالنسبة لهذا « التطور » المزعوم .. هل هو انحراف عن الفطرة وارتكاس إلى الحيوانية المريضة ، أم تطور صالح يسير مع فطرة الإنسان ..

بل .. لكي نتأكد من وجود فطرة على الإطلاق يرجع إليها في قياس المسائل الخلقية .. فطرة ثابتة تقول لا ، ونعم ، في كل مرة ، عن قواعد ثابتة مكيّنة في كيان الإنسان ..

لكي نتأكد .. فلنستمع إلى شهادة القرن العشرين !

شهادة القرن العشرين

كما استمعنا من قبل لشهادة التاريخ . لنثبت أن ما يسمى « تطورا » خلقيا في القرن العشرين ، ناشئا من « التقدم » العلمى والصناعى والاجتماعى . الخ ليس شيئا فريدا في التاريخ ، وإنما كان له شبيهه من قبل . . نستمع الآن لشهادة القرن العشرين ذاته ، لئرى هل هو « تطور » أم انحراف !

إن الدفعة التى نفخ فيها ماركس وفرويد ودركايم ، وغيرهم ممن يحذون حذوهم ، قد أفهمت هذا الجيل من البشرية أنه حين ينفلت من إطار الدين ، وينسلخ من قواعد الاخلاق — فى مسائل الجنس على الخصوص — ويأبى التقيد بشيء على الإطلاق مما كان فى الماضى .. حين يصنع ذلك فهو « يتطور » . أى يرتقى ويتقدم إلى الأمام . .

وفهم هذا الجيل من البشرية أنه « مطالب » بتحطيم ذلك كله : الدين والأخلاق والتقاليد . . وأنه لن يرتقى ويتقدم حتى يأتى عليها جميعا ويقتلعها من جذورها . وأنها « معركة مقدسة » يخوضها هذا الجيل ضد الرجعية والجمود والتأخر .. ضد الجهل والخرافة والأسطورة .. ضد « القيد » الذى يعوق الانطلاق . وكانت الشياطين تنفخ فى روح الجيل من جوانب متعددة فى آن واحد . . أو إن شئت قل تنفخ فيها من كل جانب .

فالذى يتحدث فى علم النفس يقول إن الدين كبت .. ينبغى أن يحطم لكي لا يؤذى الكيان النفسى للفرد !

والذى يتحدث فى الاقتصاد يقول إن الاقتصاد الصناعى يحتاج إلى مجتمع « متحرر » من القيود الموروثة من المجتمع الزراعى ، ومن بينها كذلك احتجاز المرأة لمهمة الأمومة ! إذ ينبغى — فى المجتمع الصناعى — أن تخرج المرأة تعمل !

والذى يتحدث فى الاجتماع ينظر بعين السخرية إلى تلك السذاجة التى كانت نخيل للناس أن الدين فطرة ! وأنه شئ منزل من السماء ! ألا يعلم الناس أن البشر هم الذين ابتدعوا الدين أيام جهالتهم وسذاجتهم ؟! انظروا إلى المجتمعات المتأخرة التى ما تزال تعيش فى الأعراس فى أفريقيا وأستراليا . . . وستجدون بذرة الدين هناك . فى الجهل والسذاجة والخرافة والأسطورة . . ثم انظروا إلى التقدم الحضارى فى القرن العشرين ! أما تستحون من أن يكون فى ضمائركم ووجداناتكم بقية مما ورثتموه عن سكان الغابات والأعراس ؟ !

والذى يتحدث عن العلوم . . العلوم البحتة ، لا ينسى الدين كذلك ! إنه يذكر الناس بيوم كان الناس متدينين فكانوا لجهالتهم الشديدة ينسبون ما يحدث فى الكون كله إلى الله ! يا لجهالتهم ! لم يكونوا يعرفون القوانين الطبيعية التى تحكم الكون . . أما « نحن » العلماء فى القرن العشرين . .

والذى يتحدث فى الفن . . يزرى بتلك الأيام التى كان يتحدث عن الجنس فيها يعتبر « عيباً » تأباه الأخلاق ! تبا لكم أيها المتأخرون ! كم كنتم تحجبون من ألوان الجمال المتمتع بهييج الأخاذ ! انظروا إلينا نحن المتحررين ! اليوم نحن نجعل الجنس فنا قائماً بذاته . . لحظة الجنس « كون » كامل . . تعالوا نتبعه من جميع أقطاره . . تعالوا نصفه داخل النفوس وفى واقع الحياة . . تعالوا نكشف متعه ومباهجه . . تعالوا نعر الناس ذكورا وإناثا ونطلقهم ينشطون نشاط الجنس . . ونمسك الكاميرا للتسجيل .

أما الذى يتحدث فى « التطور » . . فهو يدخل الميدان من كل باب . من أى باب . يتحدث ليقول إن الدين « ظاهرة » تاريخية ! تمر بها البشرية فى دورها الطبيعى وتبرأ منها بمضى الأيام ! [كالحصبة التى تصيب الطفل مثلاً !] ولكنها إذ تبرأ منها تتحصن ضدها ، فلا تعود إليها بعد ذلك أبداً ! « فالصل » المضاد للدين هو العلم . هو المعرفة . وهو اليوم متيسر بعون الله — بعون الشيطان (!) —

في كل مكان . في المدرسة . في السينما . في الإذاعة . في التلفزيون . في الصحافة
في الأدب . في الفن . . في كل مكان يجد الإنسان المصل الواقى من الدين !
وهكذا دخل في روع هذا الجيل من البشرية أنه لامناص ! إما الدين
والرجعية والتأخر والتخلف الاقتصادي والاجتماعى والخرافة . . وإما الانطلاق
والتححر والنشاط والحركة والمعرفة والتقدم العلمى والاقتصادى والاجتماعى . .
بلادين!.. فمن ذا الذى يرمى نفسه إذن في هاوية الظلمات وهو يرى مرتقى النور؟!
كلا!

فمن شاء له مزاجه المنحرف أن يتدين .. فلا بأس ! نحن في عصر « الحرية » .
ومن الحرية أن نترك كل صاحب مزاج لمزاجه . ولو كان منحرفا ! نعم . فهذه
هى الحرية . فمن شاء أن يتدين فما عسانا أن نصنع له ؟ لاشئ . . ولكن لابد من
تحصين المجتمع ضد الجرثومة الفتاكة . . تقدم المصل الواقى من الرجعة إلى
الوباء الفتاك . نقدم « تنظيمات » عملية تجعل هذه الرجعة مستحيلا ، وتتركها
حالات فردية غير مخشية الانتشار . « فالاختلاط » على نطاق واسع كفيل —
بذاته — أن يحطم هذه العقدة اللعينة . . عقدة الدين . في لحظة الاختلاط . .
وسط المغريات ، والأنفاس الحارة والشواظ التلمظ . . والجسد ملاصق للجسد
وتواق إليه .. في الخلوة والزحمة سواء .. في تلك اللحظة من ذا الذى يذكر دينه ؟!
يذكره ليحرمه من تلك المتعة المتاحة ؟ وى ! ومن ذا الذى يرتكب هذه الخفاقة ؟!
خلّ الدين للحظة أخرى . . خلّ الدين لساعة الخلوة . ساعة لا يحرمنا فيها الدين
من المتاع . . مثلاً للحظة الكنيسة ! ومع ذلك تلاحق الشياطين نفوس الشباب
حتى في هذه الخلوة الروحية في داخل الكنيسة ، فإيكاد « الأب » ينتهى من
« الموعدة » في الكنيسة الأمريكية ، حتى يطفىء الأنوار الكبرى ، ويضىء
المصابيح الخافتة المغربية بالجلسة ! ويدير اسطوانات الرقص للشباب والفتيات . .
بنفسه . . ليتطور ! هل يصح أن يبقى الدين في عزلة عن المجتمع ؟ !

الاختلاط على نطاق واسع .. هو صمام الأمن ضد الدين . إنه يأكل هذه الجرثومة أكلا كما تقتل مضادات الحيوية الجراثيم (! Anti - Biotics) ..
لأنه يزيحها من مكمنها في أعماق النفس ، بأن يضع إلى جوارها متعة الشهوة العارمة المتجددة الذشيطة .. أنشط ما في كيان الإنسان حين يطلق لها العنان !
فليكن الاختلاط على نطاق واسع إذن هو « شعار » المجتمع « المتطور » ..
وليكن السؤال هكذا في كل مكان في الأرض : مجتمع مختلط ؟ أم رجعي ؟ !
ويكون رد الفعل بطبيعة الحال هو نفي التهمة الشائنة عن النفس . من ذا الذي يرضى لنفسه التهمة وسوء السمعة وسوء الحال ؟

وليكن معنى « الروح الجامعية » في الجامعة هو الاختلاط ! لأى مدى يختلط الطالبات والطلبة ؟ لأى مدى تستطيع البنت أن تلتقي ولدا من هؤلاء وتجلس معه على حشائش الجامعة أو في « البوفيه » .. فترة ريثما تنتهى الدروس ويخرجان .. ويذهبان .. أين يذهبان .. ؟ !

وليكن توظيف المرأة في المصانع والتاجر والدواوين « سياسة » .. ليكون الاختلاط طابعا « رسميا » للمجتمع .. وتكون نتائجه « الحتمية » هي القضاء على الجرثومة الخبيثة للمعونة .. ملعونة لأنها بعد أن تبدو أنها قتلت قتلا كاملا .. تعود !

وليكن الأدب والفن والإذاعة والسينما والتلفزيون والصحافة .. بكل ماتملك من قوة « الدعوة » ومغريات العرض والتشويق ، أداة في يد تلك السياسة ، توجهها حيث يراد لها التوجيه .

الاختلاط . البهجة . المتعة . التحرر .. أيها « الرجل » هل تذكره « الاستمتاع » ؟ أيها « المرأة » ألا تحبين أن تثبتي « ذاتك » ؟ .. إنك في حقيقة الأمر لطيفة ومغرية .. « جذابة » ولكنك لا تجربين سحر .

جربى .. هل تعلمين أنك لو تأنقت فى ملبسك وتزينت فإن هذا الرجل سيلتفت
إليك .. سيمجب بك . سيتجه إليك بعواطفه . سيحبك . قد يتزوجك .
لم يرض ؟ جامد .. رجى .. متحجر .. جربى مع الآخر .. رضى ؟ ألم نقل لك !
لقد نجحت فى إثبات ذاتك .. ياله من انتصار .. الآن قد نزلت الميدان ..
فلا تنكص على عقبيك !

يا بيوت الأزياء .. يامصانع الزينة . يا بيوت « الجمال » .. إياك أن تكفى
لحظة لكى لا « يبرد » الشواظ المنطلق المسعور .. لا تكفى عن إزجاء المغريات .
ياسلام . فستان يحنن عقول الرجال . فتنة . إغراء .. من يتماسك أمام هذا
الإغراء ؟ الصدر المكشوف المغرى . من يصمد للفتنة ؟ الساق العريانة ..
الرقصة والثنية فى المشية .. الرنة فى الصوت الناعم .

أيتها البنت .. إياك أن يحجزك أبوك عن « تحقيق ذاتك » .. مالا ييك
ومالك ؟ ثورى . إرمى فى وجهه تقاليد البالية . تمسكى بالتححر . قولى له إن
عارضك : إنك من جيل رجى . أنا من جيل « متطور » .

أيها الولد . تريد أن تتدين ؟ ! ياجنون ! تحرم نفسك ؟ ! عش واستمتع !
هيا أقدم ! تنظر لك ! خذها ! حقق ذاتك !

* * *

وهكذا تبلورت فكرة « التححر » حول ذلك التحلل الخلقى ، الذى
لا يسمى بطبيعة الحال تحللاً لكى لا يفسد مفعوله . وإنما يسمى « تطوراً »
ليظل مفعوله قائماً على الدوام .

التطور .. معناه الانفلات من قيود الدين وقيود الأخلاق وقيود التقاليد .
وقيود « الإنسان » !

فإذا قام مجنون يحاول وقف التيار الجارف من الانفلات والتحلل تصايحت
حواله الأصوات ، ألوف الأصوات وملايين الأصوات ، تهرأ به وتسخر ، وتصمه
بكل تهمة شنيعة لكي يكف . . لكي لا يفسد المفعول !

رجعى . متأخر . جامد . متحجر . جاهل . متهوس . مجنون . يريد أن
يرجع عقارب الساعة إلى الوراء . يريد أن يوقف عجلة التطور .
العجلة ستدوسه .

ستدوسه « حتمية » التطور !

فهو ليس تطورا فقط . وإنما هو كذلك حتمى ! فلقد يخشى أن يقوم
فعلا جماعة من « المجانين » يحاولون رد البشرية إلى صوابها ، وتذكيرها
« بإنسانيتها » الشاردة المفقودة . فلا بد من الاحتياط من قيام مثل هذه الجماعة
فى أى مكان على الأرض ، تعيد نشر الجرثومة الخبيثة الملعونة ، التى تبدو أنها
قتلت قتلا كاملا . ثم تعود !

فإذا كان الاختلاط على نطاق واسع هو المصل الواقى من الدين فى نطاق
الواقع العملى .. « فالحتمية » هى المصل الواقى من الرجعة إليه فى نطاق « الفكر » .
ومن هنا نكون احتطنا للأمر من كل جوانبه فى عالم الفكر وعالم الواقع سواء .
ومن قام بعد ذلك يقف فى طريق « الحتمية التاريخية » و « حتمية التطور » ،
فلا يلومن إلا نفسه . يذهب مرزقا فى الآفاق .

* * *

ومضت الموجة العاتية تكتسح فى طريقها كل شىء . . وبدأت فعلا ذات
قوة « حتمية » مروعة . . لا يقف فى سبيلها شىء . .

ونبت جيل فى أوروبا وأمريكا متحلل من كل قيد .. حقيقة .. لا يربطه
رابط من خلق أو دين أو تقليد فى مسألة الجنس . لاشىء على الإطلاق يقول له :
أمسك . كل شىء يقول له : أقدم .

كل التوجيهات وكل « التنظيمات » وكل التيارات تهبط له الانطلاق الجنسي وتزينه له وتدفعه إليه .

وصار أمراً طبيعياً جداً ، وهيناً جداً ، ومعروفاً جداً أن تتخذ كل فتاة « صديقاً » (Boy Friend) وكل فتى « صديقة » (Girl Friend) يقضيان معاً « ضرورة » الجنس بصورة من الصور تبلغ حد العلاقة الكاملة بلا حواجز إن شاء وإن شئت . . . وحبوب منع الحمل تيسر الطريق .

و « استمتعت » أوروبا وأمريكا بنتائج « الاختلاط » كاملة . . حتى الثمالة . وبدأ للناس هناك أن هذا هو الأمر « الطبيعي » الذي لا يستنكر . لم يستنكر ؟

ما المانع ؟ هل هناك مانع « حقيقى » يمنع من هذا السلوك ؟

الدين ؟ تلك الخرافة القديمة الذميمة ؟ لقد « عجز » الدين عن وقف « التطور » . عجز عن الوقوف في وجه « الحتمية » التاريخية . فكيف نلتفت إلى هذا العاجز الذى يختنق صوته بين الأصوات ؟

الأخلاق ؟ قيم وضعتها أجيال عابرة . قد ذهبت . لن ترجع . أتى الماضى أن يحكم الحاضر ؟ أنى للموتى أن يحكموا الأحياء ؟ ألسنا نحن الأحياء ؟ هل هى حياتنا نحن أم حياة أولئك الذين ماتوا وانهت مهمتهم فى حياة البشرية ؟ لقد كانوا يتحدثون بظروف أيامهم . ونحن نتحدث بظروف أيامنا . بالذرة . بالصاروخ .

ماذا ؟ ما المانع ؟ أى شىء يضيرنا ؟ المجتمع يزداد « تقدماً » كل يوم . الاختراعات مستمرة . العلم يقتحم كل يوم أفقاً لم يقتحم من قبل . الإنتاج يزداد . وسائل الراحة والتيسير متوالية تترى .

« الإنسان يصنع نفسه » (١)

لا حرج . ولا قيد . ولا رجعة .

الحياة تجارب . وتلك تجربة القرن العشرين . أروع تجربة في تاريخ البشرية .
تجربة يقوم بها « الإنسان » بعيداً عن وصاية « الله » . لقد شب عن الطوق .
ما حاجته اليوم إلى الله أو الدين ؟ إنه هو الإله الجديد ، يصنع دينه بنفسه بعيداً
عن إيماءات الدين الموروث . . دين القرون الوسطى في عصر الظلمات (٢)
ولم يفكر أحد في أثناء الدفعة المسعورة التي تنفخ فيها الشياطين ، أن هناك
« فطرة » للإنسان تتأذى من هذا الانحراف المجنون . .

« فطرة » . . . ١٩

هل بعد هذا العلم كله ، والتقدم كله ، والانطلاق كله ، والتحرر كله . .
يحيىء من يحدثنا عن الفطرة ؟

فطرة ماذا ؟ !

ألم تقرأ التفسير المادى للتاريخ ؟ ألم تعلم أنه ليس هناك كيان ثابت يسمى
الإنسان ؟ وأن الإنسان هو حصيلة ظروفه الاقتصادية والاجتماعية . . والمادية .
وظروف اليوم غير ظروف الأمس . لخصيلتها مختلفة . ومؤدى هذا الاختلاف
أن تجارب الماضى لا تقيد لإنسان القرن العشرين ، ولا يحكم بها على نشاطه وأعماله .
إنما يستمد الحكم الجديد من الوضع الجديد . . !

الفطرة . . . ١٩

بل الفطرة ذاتها — إن شئت أن تستخدم هذا اللفظ الرجعى المتأخر —

(١) « Man Makes Himself » عنوان كتاب لمؤلف أمريكى يدعى « جوردون

تشايلد » V. Gordon Childe

(٢) يقول جوليان هكسلى فى كتابه (الإنسان فى العالم الحديث) **Man in the Modern**

World : ولقد كان الإنسان فى العصور السابقة يلتقى العبء على كائن مقدس غير مفهوم يسير
الأمور بطريقة غامضة . أما الآن فيجب عليه ألا يفعل ذلك نظراً لزيادة معرفته بمقائق الكون .
ومعنى ذلك قيام الإنسان بالتبلمات التى كان من قبل يلتقيها على الإله (ص ٢٢٤ من الترجمة العربية)

هى التى تدفع إلى هذا الانطلاق . فالجنس عملية « بيولوجية » بحجة . مادخلها بالأخلاق ؟ هذا منطق الفطرة ! هل الكلب وأثناه ، يمرقان فى لحظة الجنس شيئاً اسمه الأخلاق ؟ وماذا يزيد الإنسان عن الكلب ؟ أو هام صنعتها الأديان !!
الفطرة . . لا فطرة . أو إن شئت فهاتيك الفطرة . نحن نميش على الفطرة على الدوافع الفطرية . بلا كبت أو ضغط أو حرمان !

* * *

ومضت الموجة العاتية إلى قتها . . لا يضبطها شيء أو يمسكها عن تحطيم
« الإنسان » !

الحتمية . . من ذا يمكن أن يقف الحتمية ؟

ثم . . لماذا يوقفها ؟

العيش لذىذ فى ظل « التطور » . . اقلات بلا قيود . . وانطلاق
بلا حدود . متعة ..

ومن الذى يتجه إلى وقفها ؟ البنت المجنونة بالإغراء لتثبت ذاتها وتحقق
كيانها ؟ أم الولد الغارق فى المتاع الميسر اللذيذ الذى لا يكلف دراهم معدودات ؟
أم بيوت الأزياء ودور السينما والمخرجون والمفتجون وال . . الذين يعملون
فى تلك الصناعة الراجحة بالملايين ؟

أم « الأدباء » و « الفنانون » الذين تروج كتبهم وأعمالهم فى هذا
السعار المجنون ؟

أم الشياطين الذين يقودون البشرية إلى الدمار ؟

كلا !

* * *

ومع ذلك . . يقف أناس ليصيحوا صيحات النذير !
 يقف أناس ليقولوا : قد جاوزنا المدى وأبعدنا في التيه !
 يقف أناس ليقولوا : عودوا إلى « الفطرة » . عودوا إلى الأخلاق . عودوا
 إلى القرامل . فأنتم تدمرون أنفسكم . تدمرون مستقبلكم . تدمرون « البشرية » !
 أناس من أتجاهات شتى . . ليس فيهم واعظ من رجال الدين !
 رجال « علم » ورجال « سياسة » . وفلاسفة . وملحدون !
 وتتوالى الشهادات من تلك الأفواه . . أفواه القرن العشرين !

* * *

يقول . . « الكسكس كاريل » في كتابه « الإنسان ذلك المجهول » :
 « إن الحضارة المصرية تجد نفسها في موقف صعب ، لأنها لا تلائمنا .
 لقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية . إذ أنها تولدت من خيالات
 الاكتشافات العلمية وشهوات الناس ، وأوهامهم ، ونظرياتهم ورغباتهم . وعلى
 الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا، إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا [ص ٣٨]
 » يجب أن يكون الإنسان مقياساً لكل شيء . . ولكن الواقع هو عكس
 ذلك . فهو غريب في العالم الذي ابتدعه . إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه
 لأنه لا يملك معرفة عالية بطبيعته . . ومن ثم فإن التقدم الهائل الذي أحرزته علوم
 الجمار على علوم الحياة هو إحدى الكوارث التي عانت منها الإنسانية . . فالبيئة
 التي ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة لا بالنسبة لقوامنا ، ولا بالنسبة لهيئتنا . .
 إننا قوم نساء لأننا ننحط أخلاقياً وعقلياً . . إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها
 الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم ، هي على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة
 في الضعف ، والتي ستكون عودتها إلى البربرية والهجمية أسرع من عودة غيرها

إليها . . » [ص ٤٣ - ٤٤]

« إن الحضارة لم تفلح حتى الآن في خلق بيئة مناسبة للنشاط العقلي .
وترجع القيمة العقلية والروحية المنخفضة لأغلب بنى الإنسان — إلى حد كبير —
للتناقض الموجودة في جوهر السيكلوجى . إذ أن تفوق المادة ومبادئ « دين
الصناعة » حطمت الثقافة والجمال والأخلاق » [ص ١٨٤]

« لقد ارتكب المجتمع العصرى غلطة جسيمة باستبداله تدريب الأسرة
بالمدرسة استبدالاً تاماً . ولهذا تترك الأمهات أطفالهن لدور الحضانة ، حتى يستطيعن
الانصراف إلى أعمالهن ، أو مطاعمهن الاجتماعية ، أو مبادهن ، أو هوايتهن الأدبية
أو الفنية ، أو للعب البريدج ، أو ارتياد دور السينما .. وهكذا يضعن أوقاتهن
في الكسل . لهن مشغولات عن اختفاء وحدة الأسرة واجتماعاتها التي يتصل
فيها الطفل بالكبار ، فيتعلم منهم أموراً كثيرة .. إن الكلاب الصغيرة التي تنشأ
مع أخرى من نفس عمرها في حظيرة واحدة ، لا تنمو نمواً مكتملاً كالكلاب
الحرة التي تستطيع أن تمضى في إثر والديها . والحال كذلك بالنسبة للأطفال الذين
يعيشون وسط جمهرة من الأطفال الآخرين وأولئك الذين يعيشون بصحبة راشدين
أذكىاء . لأن الطفل يشكل نشاطه الفسيولوجى والعقلى والعاطفى طبقاً للقوالب
الموجودة في محيطه . إذ أنه لا يتعلم إلا قليلاً من الأطفال في مثل سنه . وحينما
يكون مجرد وحدة في المدرسة ، فإنه يظل غير مكتمل . ولكى يبلغ الفرد قوته
الكاملة فإنه يحتاج إلى عزلة نسبية ، واهتمام جماعة اجتماعية محددة تتكون
من الأسرة » [ص ٣١٨ — ٣١٩]

« من المعروف أن الإفراط الجنسي يعرقل النشاط العقلى . ويبدو أن العقل
يحتاج إلى وجود غدد جنسية حسنة النمو ، وكبت مؤقت للشهوة الجنسية حتى
يستطيع أن يبلغ منتهى قوته .. ولقد أكد فرويد ، عن حق ، الأهمية القصوى
للدوافع الجنسية في وجوه نشاط الشعور . ومع ذلك فإن ملاحظاته تتعلق بالمرضى

على الأخص .. ومن ثم يجب ألا نتمم استنتاجاته بحيث تشمل الأشخاص العاديين ،
وبخاصة أولئك الذين وهبوا جهازاً عصبياً قوياً ، وسيطرة على أنفسهم .. وبينما
يصبح الضعفاء ، المعتلوا الأعصاب ، غير المتزنين ، أكثر شذوذاً عند ما تكبت
شهوتهم الجنسية ، فإن الأقوياء يصيرون أكثر قوة ، بممارسة هذا الشكل من
الزهد » [ص ١٧٤] .

« الإنسان نتيجة الوراثة والبيئة وعادات الحياة والتفكير التي يفرضها المجتمع
المعصرى . ولقد وصفنا كيف تؤثر هذه العادات في جسمه وشعوره ، وعرفنا
أنه لا يستطيع تكيف نفسه بالنسبة للبيئة التي خلقها « التكنولوجيا » وأن
مثل هذه البيئة تؤدي إلى انحلاله . وأن العلم والتكنولوجيا ليسا مسؤولين عن
حالته الراهنة ، وإنما نحن المسؤولون ، لأننا لم نستطع التمييز بين الممنوع والمشروع .
لقد نقضنا القوانين الطبيعية ، فارتكبنا بذلك الخطيئة العظمى . الخطيئة التي
يعاقب مرتكبها دائماً ... فالحياة لا تعطى إلا إجابة واحدة حينما تستأذن في
ارتياض الأرض المحرمة .. هي إضعاف السائل .. ولهذا فإن الحضارة آخذة في
الانهيار » [ص ٣٢٢] .

* * *

ويقول «ول ديورانت» الفيلسوف الأمريكي في كتابه «مباهج الفلسفة» :
« وثقافتنا اليوم سطحية ، ومعرفتنا خطيرة ، لأننا أغنياء في الآلات فقراء
في الأغراض . وقد ذهب آيزنبرج العقل الذي نشأ ذات يوم من حرارة الإيمان
الدينى ، وانتزع العلم منا الأسس المتعالية لأخلاقيتنا ؛ ويبدو العالم كله مستغرقاً
في فردية مضطربة تمكس تجزؤ خلقنا المضطرب . إننا نواجه مرة أخرى تلك
المشكلة التي أقلقنا بالسقراط . نعى كيف نهتدى إلى أخلاق طبيعية نحل محل
الزواج العلوية التي بطل أثرها في سلوك الناس ؟ إننا نبذل تراثنا الاجتماعى لهذا

الفساد الماسج من جهة ، وبهذا الجنون الثورى من جهة أخرى ، حين نفقد الفلسفة التى بدونها نفقد هذه النظرة الكلية التى توحد الأغراض وترتب سلم الرغبات . . . » (١)

« واختراع موانع الحمل وذبوعها هو السبب المباشر فى تغير أخلاقنا . فقد كان القانون الأخلاقى قديما يقيد الصلة الجنسية بالزواج ، لأن النكاح كان يؤدى إلى الأبوة بحيث لا يمكن الفصل بينهما ، ولم يكن الوالد مسئولاً عن ولده إلا بطريق الزواج . أما اليوم فقد انحلت الرابطة بين الصلة الجنسية وبين التناسل ، وخلقت موقفاً لم يكن آباءنا يتوقعونه ، لأن جميع العلاقات بين الرجال والنساء آخذة فى التغير نتيجة هذا العامل . ويجب على القانون الأخلاقى فى المستقبل أن يدخل فى حسابه هذه التسهيلات الجديدة التى جاءت بها الاختراعات لتحقيق الرغبات المتأصلة ! ... »

« فحياة المدنية تفضى إلى كل مثبط عن الزواج ، فى الوقت الذى تقدم فيه إلى الناس كل باعث على الصلة الجنسية وكل سبيل يسهل أداها . ولكن النمو الجنسى يتم مبكراً عما كان من قبل ، كما يتأخر النمو الاقتصادى . فإذا كان قمع الرغبة شيئاً عملياً ومعقولاً فى ظل النظام الاقتصادى الزراعى ، فإنه الآن يبدو أمراً عسيراً أو غير طبيعى فى حضارة صناعية أجلت الزواج حتى بالنسبة للرجال ، حتى لقد يصل إلى سن الثلاثين . ولا مفر من أن يأخذ الجسم فى الثورة ، وأن تضعف القوة على ضبط النفس عما كان فى الزمن القديم . وتصبح العفة التى كانت فصيلة موضعاً للسخرية ؛ ويختفى الحياء الذى كان يضفى على الجمال جلالاً ، ويفاخر الرجال بتعداد خطاياهم ، وتطالب النساء بحققها فى مغامرات غير محدودة على قدم

(١) يلاحظ أن الكاتب — مع إقراره بأن حرارة الإيمان الدينى قد أنشأت ذات يوم أتراناً فى العقل — لا يدعو ولا يعمل لاستعادة حرارة الإيمان الدينى . إنما هو يلجأ إلى « الفلسفة » لتسديد أتران العقل المفقود ! والفلسفة فى تاريخها الطويل كانت حصيلة ذهنية باردة ، لم تؤثر قط فى حياة البشرية المواردة . فالحياة البشرية لا تؤثر فيها إلا العقيدة الدافعة . والسكن الكاتب الغربى — الأمريكى — لا يملك إلا هذا الحل الهزئى .. لأنه هارب من الكنيسة !

المساواة مع الرجال . وبصبح الاتصال قبل الزواج أمرا مألوفا ، وتختفى البغايا من الشوارع بمنافسة الهاويات لابرقة البوليس . لقد تمزقت أوصال القانون الأخلاقي الزراعى ، ولم يعد العالم المدنى يحكم به (١) » [ص ١٢٦ - ١٢٧]

« ولسنا ندرى مقدار الشر الاجتماعى الذى يمكن أن نجعل تأخير الزواج مسئولا عنه . ولا فى أن بعض هذا الشر يرجع إلى مافينا من رغبة فى التعدد لم تهذب ... ولكن معظم هذا الشر يرجع فى أكبر الظن فى عصرنا الحاضر إلى التأجيل غير الطبيعى للحياة الزوجية . وما يحدث من إباحة بعد الزواج فهو فى الغالب ثمرة التعود قبله . وقد نحاول فهم العلل الحيوية والاجتماعية فى هذه الصناعة المزدهرة ؛ وقد نتجاوز عنها باعتبار أنها أمر لا مفر منه فى عالم خلقه الإنسان . وهذا هو رأى الشائع لمعظم المفكرين فى الوقت الحاضر . غير أنه من المنجمل أن نرضى فى سرور عن صورة نصف مليون فتاة أمريكية يقدمن أنفسهن ضحايا على مذبح الإباحية ، وهى تعرض علينا فى المسارح وكتب الأدب المكشوف ، تلك التى تحاول كسب المال باستثارة الرغبة الجنسية فى الرجال والنساء المحرومين ، وهم فى حُسمى الفوضى الصناعية ، من حُسمى الزواج ورعايته للصحة .

« ولا يقل الجانب الآخر من الصورة كآبة . لأن كل رجل حين يؤجل الزواج يصاحب فتيات الشوارع ممن يتسكنن فى ابتدال ظاهر . ويحد الرجل لإرضاء غرائزه الخاصة فى هذه الفترة من التأجيل نظاما دوليا مجهزة بأحدث التحسينات ، ومغظما بأسمى ضروب الإدارة العلمية . ويبدو أن العالم قد ابتدع كل طريقة يمكن تصورها لإثارة الرغبات وإشباعها . » [ص ١٢٧ - ١٢٨]

(١) واضح أن الكاتب يسير هنا على هدى التفسير المادى للتاريخ ، فيفسر التحلل الخلقى « بالتطور » الاقتصادى . ولن نناقش هذه « الشهادات » هنا ، ولأننا نقلها كما هى بغير تعليق ، لأن الذى يهمنا منها هو النتائج التى يصل إليها أصحابها فى النهاية ، من القول بأن هذا « التطور » أو أيا كان اسمه ، يندثر البشرية بالانهيار . وهى نتيجة مشتركة وصل إليها « الشهود » جميعا على اختلاف مذاهبهم .

« وأكبر الظن أن هذا التجدد في الإقبال على اللذة قد تعاون أكثر مما

نظن مع هجوم دارون على المعتقدات الدينية . وحين اكتشف الشبان والفتيات

— وقد أكسبهم المال جرأة — أن الدين يشهر بملاذم التمسوا في العلم ألف

سبب وسبب للتشهير بالدين . . . » [ص ١٣٤]

« ولما كان زواجهما [الرجل والمرأة في المجتمع الحديث] ليس زواجا

بالمعنى الصحيح — لأنه صلة جنسية لارباط أبوة — فإنه يفسد لفقده الأساس

الذى يقوم عليه ، ومقومات الحياة . يموت هذا الزواج لانفصاله عن

الحياة وعن النوع . وينكمش الزوجان في نفسيهما وحيدتين كأنهما قطعتان

منفصلتان . وتنتهى الغيرية الموجودة في الحب إلى فردية يبعثها ضغط حياة المسافر .

وتعود إلى الرجل رغبته الطبيعية في التنويع ، حين تؤدي الألفة إلى الاستخفاف .

فليس عند المرأة جديد تبذله أكثر مما بذلته . . . » [ص ٢٢٥]

« لنندع غيرنا من الذين يعرفون يخبرونا عن نتائج تجاربنا . أكبر الظن

أنها لن تكون شيئا نرغب فيه أو نريده . فنحن غارقون في تيار من التغيير ،

سيحملنا بلاريب إلى نهايات محتومة لاحيلة لنا في اختيارها . وأى شيء قد يحدث

مع هذا الفيضان الجارف من العادات والتقاليد والنظم ، فالآن وقد أخذ البيت في

مدننا الكبرى في الاختفاء ، فقد فقد الزواج القاصر [المقصور] على واحدة

جاذبيته الهامة . ولاريب أن زواج المتعة سيظفر بتأييد أكثر فأكثر ، حيث

لا يكون النسل مقصودا . وسيزداد الزواج الحر ، مباحا كان أم غير مباح .

ومع أن حريتهما إلى جانب الرجل أميل ، فسوف تعتبر المرأة هذا الزواج أقل

شرا من عزلة عقيمة تقضيها في أيام لا يغازلها أحد . سينهار « المستوى المزدوج »

وستتح المرأة الرجل بعد تقليده في كل شيء على التجربة قبل الزواج . سينمو

الطلاق ، ونزدحم المدن بضحايا الزيجات المحطمة . ثم يصاغ نظام الزواج بأسره في

صور جديدة أكثر سماحة . وعندما يتم تصنيع المرأة ويصبح ضبط الحمل سرا شائعا في كل طبقة ، يضحي الحمل أمرا عارضا في حياة المرأة ، أو تحل نظم الدولة الخاصة بتربية الأطفال محل عناية البيت .. وهذا كل شيء .^(١)

[ص ٢٣٥ - ٢٣٦]

* * *

ونشرت جريدة « أخبار اليوم » في عددها الصادر في ١٢ مايو ١٩٦٢ ، تحقيقا صحفيا بعنوان « شباب العالم في طريق الضياع ! » جعلت مقدمته هكذا : « إلى أين يتجه شباب العالم ؟ في أمريكا يرتفع ترمومتر الانحراف بين الشباب .. وفي بريطانيا تتألف عصابات من المراهقين للسطو وتدخين الحشيش .. وفي سويسرا يتزايد الانحلال .. وفي روسيا يجتمع المجلس الأعلى للسوفيت لبحث مشكلة انحراف الشباب الروسى .. لقد أبرقت « أخبار اليوم » إلى مندوبيها ومراسليها في عواصم العالم وطلبت منهم صورة كاملة عن الانحراف الجارف الذى يهدد شباب العالم . ! »

وهذا هو نص التحقيق :

من لندن كتب زغلول السيد :

إن جرائم من كل نوع يرتكبها الشبان في بريطانيا كل لحظة . وهى جرائم تختلف باختلاف الطبقات . إذ أن بريطانيا هى أكثر بلاد العالم حساسية بالنسبة لنظام الطبقات . الصحف البريطانية تنشر كل يوم جرائم تقع في مختلف أنحاء البلاد . وتصور لنا هذه الجرائم تلك الجريمة التى وقعت أخيراً عندما دخل بعض الشبان السينما ، ولم يعجبهم الفيلم فأنهالوا على مقاعد السينما الوثيرة يمزقونها

(١) ألف الكاتب كتابه هذا سنة ١٩٢٩ ! وقد تحققت كل العرور التى توقعها الكاتب يومئذ ، فأصبح المجتمع الأمريكى كما توقعه بالفعل ، كما أن هذه العرور ذاتها تنتقل - بالعدوى - إلى المجتمعات « المتحضرة » التى تنقل حضارتها عن الغرب .

بالسكاكين ، ثم مزقوا الشاشة بأيديهم . وكانت النتيجة أن أغلقت السينا أبوابها . ولم يكن هذا الحادث هو الأول من نوعه . وإعما كان الثالث !

هجوم العصابات :

ومنذ أيام نظمت إحدى عصابات الشباب هجوما على عصابة أخرى وطعنت بالسكاكين عشرة من أفرادها . وقد أعد الهجوم كما تنظم الحملات العسكرية . فقد أرسلت عصابة « موسويل » بعض أفرادها للقيام بمهمة الاستطلاع ثم بدأ بعد ذلك الهجوم بالسكاكين والعصى والقضبان الحديدية والزجاجات المكسورة . وكان أفراد العصابة الأخرى يرقصون التويست في قاعة البلدية . وفاجأهم عصابة « موسويل » بالهجوم وارتفعت صرخات الفتيات اللاتي كن يشتركن في الرقص وسالت الدماء في كل مكان .

جرائم الطبقة الدنيا :

ومثل هذه الجرائم هي التي يشتهر بها أفراد الطبقة الدنيا . وهي في الواقع أفظع الجرائم وأكثرها إزعاجا . . . فالشبان المنحرفون من أفراد هذه الطبقة يتجمعون أحيانا في عصابات كبيرة ويهاجمون القرى والمدن الصغرى ويتصرفون بالطريقة التي يشاهدونها في الأفلام تماما .

٥ سبانه أمام القاضي :

وفي الأسبوع الماضي وقف خمسة شبان أمام القاضي الإنجليزي سيمور كولنز في ويست لندن بتهمة الانحراف والبطالة . قال القاضي لجون بومونت (٢٣ سنة) إنك شاب تتمتع بإمكانات طيبة . ولكنك تترك نفسك تهاوى وتزداد كسلا وخولا حتى تصل إلى مرحلة لا يستطيع أحد أن يساعدك فيها .

وقال القاضي لبول إيفا « ٢٣ سنة » هل تعتقد حقاً أن أى شخص يمكن أن يستخدمك في عمل . وأنت تترك شعرك يسترسل على جبينك ورقبتك ؟

وقال لشارلس ويستوود (٢١ سنة) يلزمك قدر كبير من المجهود لتجعل من نفسك إنساناً مهذباً .

تركت الكلية إلى السارع :

ويرد الشبان بأقوال مختلفة . فالكولم دريك (٢٣ سنة) قال : « لقد ساعدنى أبواى على تحصيل قدر كبير من التعليم . ولكن فى منتصف مرحلتى الدراسية بالسكينة بدأت أتساءل : ما الذى سأكونه فى المستقبل ؟ ورأيت نفسى مساعد صيدلى أجلس طوال اليوم وراء « البنك » وعندما تمتعت فى هذه الحياة لم أجد فيها كثيراً من السعادة . كل ما فيها مرض وأدوية وحبوب مهدئة . . ولذلك فقد تركت السكينة ، وقررت أن أحيأ طليقاً فى شوارع لندن وباريس ! »

امتقار الحياة . . بالاجتماع :

إن هؤلاء الشبان جميعاً مجمعون على احتقار الحياة ، وكان مثل هؤلاء يموتون فى الشوارع من الجوع ، أما المتعطلون فى لندن منذ ثلاثين عاماً الآن فإن المجتمع يساعدهم « على نحو ما » على الحياة .

يشرح أحدهم وهو شارلس ويستوود كيف يحصلون على نقود فيقول : « إن دخلنا الأسبوعى يتراوح بين ٣٠ و ٤٠ شلناً ، ونحن نحصل على المال من الفتيات اللاتى يشفقن علينا ، أو الفتيات اللاتى يشعرن بالسرور منا ، كما نحصل على المال من السياح الذين يريدون التقاط صور لنا ، أو من زأرى لندن الذين يريدون الاطلاع على خبايا الليل فى المدينة . أو من المثقفين الذين يقضون الليل فى مناقشتنا ، أو من الناس الذين يشعرون بالوحدة ويريدون رفيقاً . أو باختصار من أى شىء مشروع ولكن بلا مجهود أو عمل . »

ههراثم الحشيش :

وهذا النوع من الجرائم التى يرتكبها الشبان المتعلمون من الطبقة المتوسطة مثل تدخين « الحشيش » يتزايد باستمرار . ويجذب هذا النوع من الجرائم الفتيات

تماماً كما يجذب الشبان . ولكن لما كان من الصعب على الفتيات أن يحصلن على « الحشيش » فإنهن يلجأن إلى نوع من أقراص المخدرات الخفيفة . وتباع هذه الأقراص سرّاً في بعض المقاهى والبارات . وقد اكتشف البوليس في بلدة إيستبورن أن طالبات المدارس يتناولن هذه الأقراص . والسبب الذى أبعده هو « الهرب من الحياة » (١) وأسوأ مناطق الإجرام والانحراف فى لندن منطقة « سوهو » التى تنتشر فيها أوكار المخدرات وحيث ترقص الفتيات التويست طوال الليل حتى إذا طلع الصباح يكون التخدير والإرهاق قد أعياهن فلا يهتمن بعد ذلك ماذا يحدث لهن !

مواجهة الجرائم :

والسؤال الآن : ما الذى تفعله بريطانيا لمواجهة هذه الجرائم المتزايدة ؟ لقد ذهبت إلى إدارة الأحداث المنحرفين بوزارة الداخلية . وقابات مستر رومان مدير الإدارة الذى قال لى إن أسباب الجرائم تختلف من طبقة إلى أخرى . وإن أسوأ أنواع الشبان المنحرفين هم الشبان الذين ينتمون إلى الطبقات الدنيا . ولقد دل التحقيق على أن تربية الطفل مسئولة إلى حد كبير عن سلوكه . ولقد كانت الحرب مسئولة فى البداية . فقد هاجرت بعض الأسر أثناء الحرب وتركت أطفالها الذين لم يجدوا آباء أو أمهات يعتنون بهم . واتجه الكثيرون منهم إلى الجريمة .

ولاشك أن السينما والتلفزيون لهما تأثيرهما على الشبان أيضاً . لقد شفق صبي فى الثالثة عشرة من عمره صديقا له بجورب أمه . وعندما سئل عن السبب أجاب قائلا : « لقد رأيت شيئاً كهذا فى التلفزيون . »

(١) فى بحث حديث لـ دكتور ليبكن فى جريدة الصنداي تيمز الإنجليزية بتاريخ ٢٧ يناير سنة ١٩٦٣ يقول عن الشباب المنحرف الذى يتماطى المخدرات هناك : « لانهم يقولون ان الحشيش محاولة للتعبير عن أنفسهم ، ولتحديد ملامحهم فى مجتمع ضائع . فى عالم بلا شكل ! وهم يفخرون بأنهم قد فتحوا لنا باب إدراك الخيال الإنسانى ! »

العلاج :

وقد أمرت الحكومة بإجراء تحقيق خاص في مسألة الأفلام والمسرحيات العنيفة التي تعرض في التلفزيون . ولكن هذا ليس السبب الوحيد في انتشار جرائم الشباب . لقد قال لي مستر بومان إن الحكومة لم تستطع توفير التسهيلات اللازمة لكي يقضى الشبان أوقات فراغهم بطريقة مرضية ، ولذلك فإن الحكومة تشترك الآن في مشروع كبير يهدف إلى بناء مزيد من الأندية وحمامات السباحة وغير ذلك من وسائل قضاء وقت الفراغ .

وفي نفس الوقت يشترك جيش كبير من الأطباء والإخصائيين الاجتماعيين والإخصائيين في التربية في دراسة أسباب انحراف الشبان واحتياجاتهم ومشاكلهم .

صورة من سويسرا :

ومن سويسرا كتب إبراهيم سعدة :

الوقت الواحدة بعد منتصف الليل . الشوارع خالية تماما . . البرد يجمد الأطراف ويشل حركة الدم في العروق . وفجأة ظهرت سيارة قديمة مكشوفة ! . . لا تعرف لو أنها فهي مطلية بجميع الألوان الطبيعية وغير الطبيعية لوحة طائشة عبثت بها ريشة الفنان الغريب الذي يقلد بيكاسو . رسومات عجيبة . فوق هيكل السيارة . ونوافذها . وكل مكان فيها . حتى ليصعب عليك التقاط أرقامها . . أكثر من ٧ أشخاص كانوا يركبون هذه السيارة .

لا يمكنك أن تفرق بين الصبي والفتاة . الملابس واحدة . نفس البنطلون الضيق جداً الذي يحدد أكثر مما يخفى . نفس « البلوزة » الملونة بالأحمر والأخضر والمهباب مع الثبني . الشعر طويل ويصل إلى أعلى الدقن . . وإلى ماوراء القفا .

ألى داخل الشقة :

ثم وقفت السيارة أمام إحدى الفيلات المتناثرة فى إهمال أمام بحيرة جنيف .
ويبدو المفتاح المفقود فى القفل . . وتندفع المجموعة داخل الشقة — فى الدور
الثانى من الفيلا — وتضاء الأنوار . . والشموع . . وتفرقع زجاجات النبيذ
والبيرة والويسكى ثم يسكب كل هذا فى وعاء كبير لتكوين أعجب كوكبيل لم
يسمع بمثله أمهر « متردوتيل » حتى يومنا هذا ! وانسابت الموسيقى من الآلة
الصغيرة التى تدور فوقها أحدث الأسطوانات الراقصة وغير الراقصة .. واختفت
الأنوار . . واكتفت المجموعة بالشموع الملونة . . والأضواء غير المباشرة التى
تنبعث من خلف مقعد . . من وراء ستارة .. فوق دولاب ! ووضع كل « مخلوق »
سيجارة أو سيجارا أو يدبة بين شفتيه . . وبدأت حلقات وسحب الدخان المتباينة
تخلق فى سقف الغرفة الضيقة . وكان لابد من الرقص لتكتمل « الحفلة » . .
ولم تنبئه المجموعة إلى أن الساعة قاربت الثالثة صباحا . . بل اختاروا أعنف
أنغام راقصة كالروك أند رول .. وأجنها كالتويست ، وبدأوا يضر بون بأقدامهم
وأجسامهم فوق الأرض . . . ثم توزع أوراق « الكوتشينة » بالتساوى على
اللاعبين . . ثم يسحب الأول ورقة من اللاعب الثانى فإذا وجد
عنده مثلها ألقى بالورقتين على الأرض . . وهكذا حتى ينتهى الدور
بأن تبقى ورقة أخيرة فى يد لاعب فيعتبر الخاسر فى هذا الدور . . ويستحق
توقيع العقاب عليه . . والعقاب الوحيد فى هذه اللعبة هو أن يقوم الحاضر بخلع
أية قطعة من ملابسه . . فيبدأ عادة بخلع الجا كيت . . أو الكرافت . . أو
الحذاء . . وهكذا حتى تنتهى اللعبة بأن يخلع اللاعبون ملابسهم كلها ويصبحون
عرايا كما ولتهم أمهاتهم . . بين ضحكاتهم وصرخاتهم وغزاتهم . . وتزداد هذه
الصرخات فى حالة وجود فتاة أو أكثر ضمن « الشلة » . .

ومظية أخرى ..

ولم تتنبه كل العائلات إلى نداء الصحافة ! إن بعضها لم يستفد من الدرس المؤلم الذى جاء بعد القبض على « شلة » المراهقين التى كتبتها فى بداية هذا التحقيق ! الدليل . ؟ لقد عرفت سويسرا عصابات البلوفر الأسود . . إنها البدعة المستوردة من باريس .. الشباب الضائع الذى استطاع الهروب من سيطرة الآباء فعاش فى الشوارع والمقاهى والمواخير . . حياة بوهيمية لامعنى لها . . الأيام تمر وهو فى مكانه فى المقهى أو على الرصيف ، لا يشعر بها حتى تنتابه حالة من حالات الملل والضيق .. فيقرر أن يقدم على شيء يبعده عن هذا الضيق وهذا الملل ويقربه من الضياع . . أى شيء خارق للعادة ليلفت إليه الأنظار . . وتنتشر صورته فى الصحف ويقفز اسمه إلى الصفحات الأولى .. ويتحدث عنه الناس فى كل مكان .

الشباب الضائع فقد زمامه :

هذه المشكلة لا تهم سويسرا وحدها . . وإنما تعاني منها معظم دول أوروبا . بدأت الأزمة فى باريس . . فقالت الصحافة إن الشباب الفرنسى مظلوم إن السينما الأمريكية هى السبب . أفلام المغامرات والعصابات ورعاة البقر هى التى حطمت معنويات الجيل الجديد . إن المراهق الفرنسى يقلد آل كابونى .. ويحلم بالثراء بعد السطو على أحد البنوك على الطريقة الأمريكية التى يشترط فيها اختفاء جميع رجال الشرطة تماما من أمام البنك لحظة تنفيذ الخطة . آراء أخرى لا توافق رأى الأول وتقول إن السينما والأفلام الأمريكية مظلومة وبريئة من هذا الاتهام . وإن أهم أسباب انحراف الشباب فى فرنسا هو انحلال المجتمع نفسه . انعدام الروابط بين أفراد الأسرة . سياسة « عدم المبالاة » التى يطبقها الآباء فى تربية الأولاد . إن ترك المراهق وحده فى هذه الحياة المبكرة يدفعه إلى الحيرة . . والضياع . الأفلام المثيرة تؤثر فيه .. التصرف الخاطئ يجد فيه نوعا من المغامرة .

مفردات ساهرة وألوف الجنيهات :

ففى كل شهر - على الأكثر - تقام فى باريس حفلة ساهرة للشباب يقضى فيها جوفى هوليدى الذى لايزيد عمره على ١٨ سنة ومطروء من المدارس الإعدادية وصاحب مئآت الألوف من الجنيهات الآن ! ويتسابق أكثر من ١٠ آلاف مراقب ومراقبة لسماع هذا المغنى .. برغم ارتفاع ثمن تذكرة الدخول. تبدأ السهرة فى التاسعة مساء ولا تنتهى إلا بعد تدخل البوليس والمطافئ والإسعاف والآباء !
وتسيل الدماء ويسقط العشرات قتلى وجرحى !

الرقابة الرقيقة :

وعلماء النفس يطالبون أولا بالعلاج الوقائى . . يطالبون بفرض الرقابة الصارمة على الأفلام السينمائية . . سلسلة الأفلام الإباحية المنحلة التى تخرجها فرنسا وألمانيا وإيطاليا يجب أن تتوقف . . أن يمنع عرضها تماما لا أن يقتصر على تحديد سن المتفرج بعمر معين. هذه الرقصات الانحلالية يجب أن تمنع من التلفزيون ومن المحال العامة . . والقبض على المنحل جوفى هوليدى وأمثاله وإيداعهم لإصلاحيات يتربون فيها .

جرائم الأحداث فى أمريكا :

ومن واشنطنون كتب فريد زوسى :

سجلت جرائم الأحداث فى الولايات المتحدة ارتفاعا ملحوظا فى العام الماضى كمعادتها منذ ١٢ سنة على التوالى حيث بلغ عدد الأولاد الذين مثلوا أمام محاكم الأحداث حوالى المليون . بعد أن كان هناك ٧٧٣ ألف قضية أمام محاكم الأحداث فى عام ١٩٥٩ .

ومشكلة الأحداث تثير الأمة الأمريكية . ولا سيما بسبب امتدادها إلى الطبقات العليا فى المجتمع . كما أن هناك نسبة عالية من الانحراف بين الفتيات ، ويثرن مشكلة كبيرة فى كيفية التصرف معهن لأن معظم مؤسسات الأحداث خاصة بالأولاد .

وقد ألقى البوليس أخيراً القبض على مجموعة من الأولاد تتراوح أعمارهم بين ١٥ و ١٧ سنة من أغنى العائلات متهمين في ١١ تهمة سرقة وأربع تهمة اقتحام منازل ، وتهمتين بسرقة سيارة ، وعشر تهمة تخريب وتدمير . وفي نيويورك قبض البوليس على عصابة تضم ١٧ من الأحداث بتهمة سرقة أشياء ثمينة تقدر أثمانها بحوالى ١٠ آلاف دولار وبيعها بأثمان بخسة . وقد اعترفوا بأنهم يتلقون من آبائهم أموالاً كافية تجعلهم في غنى عن السرقة ، وأنهم أقدموا على السرقة لأنها « شيء مثير » . وفي ويست شستر وهي إحدى الضواحي الغنية بمدينة نيويورك اتهم المدعى العام أكثر من ٢٥٠ شاباً معظمهم من العائلات الغنية المعروفة ببيع واستخدام المخدرات . وقد تحول الكثيرون منهم إلى مدمنين وبعضهم من طلبة الجامعات .

قانون الكونجرس الأمريكي :

وقد أصدر الكونجرس الأمريكي أخيراً بعد ست سنوات من المناقشة قانون جرائم الأحداث عام ١٩٦١ وقعه الرئيس كينيدي . ويعد هذا القانون بمثابة نقطة تحول في مكافحة جرائم الأحداث ، وهو يخصص ٣٠ مليون دولار لهذا الهدف خلال السنوات الثلاث القادمة ، ولما كانت البطالة بين الشباب من الأسباب الرئيسية للانحراف ، لذلك أكدت حكومة كينيدي عزمها على القيام ببرنامج ضخم لتشغيل الشباب ، ومن مراحل هذا البرنامج إنشاء قوات السلام خارج الولايات المتحدة وفي أعلى البحار .

مسكلة دولية :

وهناك حقيقة هامة هي أن جرائم الأحداث ليست مقصورة على أمريكا ولكنها مشكلة ذات طابع دولي ، وقد أكد ذلك عدة مئات من المندوبين من جميع أنحاء العالم الذين حضروا مؤتمر الأمم المتحدة لمنع الجريمة وتقويم المنحرفين الذي عقد في لندن عام ١٩٦٠ وحضره مندوبون من الاتحاد السوفيتي أيضاً ..



وأخيراً تجيء تلك الشهادة من رئيسي أكبر دولتين في العصر الحاضر ،
الدولتين الحاكمتين بأمرهما في الأرض ، واللتين تتنازعان فيما بينهما مناطق
النفوذ في العالم أجمع .

في عام واحد ، ١٩٦٢ ، يصدر تصريحان من رجلين يباعد بينهما ما بين
الشيوعية والرأسمالية من خلاف في المذهب وخلاف في السياسة وخلاف في الوسائل .
ولكن يجمع بين تصريحيهما شبه واضح . إن كلا منهما يقدم إنذاراً للشباب
وطنه ، أنه جاوز المدى في انحلاله ، وأنه في طريقه إلى الانهيار .

قال خرشوف : إن الشباب الشيوعي قد بدأ ينحرف ويفسده الترف !
وإن من بينه « عصبجية وصيحا ! » وأنذر بأن الحكومة السوفييتية تبحث
إطلاق يد البوليس في معالجة هؤلاء « البلطجية » كما أنذر بأن معسكرات
جديدة قد تفتح في سيبيريا للتخلص من الشباب المنحرف لأنه خطر على
مستقبل روسيا !!

وقال كنيدي : إن الشباب الأمريكي مائع منحل مترف غارق في
الشهوات ، وإنه من بين كل سبعة شبان يتقدمون للتجنيد يوجد ستة غير
صالحين ، بسبب انهماكهم في الشهوات ! وأنذر بأن هذا الشباب خطر على
مستقبل أمريكا . وأهاب بالعلماء والمصلحين الاجتماعيين أن يبحثوا هذا الخطر
ويقرروا العلاج !

* * *

ولا يفوتنا أن نشير إلى الفضيحة الكبرى التي حدثت في إنجلترا منذ قريب
وأتهم فيها وزير الحرب بإذاعة أسرار عسكرية هامة تعرض وطنه للخطر في مقابل
شهوة دنسة مع فتاة ساقطة تحيط نفسها بجو من الدعارة يسقط فيه الأمراء والوزراء !
وهذا كله فوق حوادث الجنون والانتحار والأمراض العصبية والنفسية وضغط

الدم ، الآخذة في الزيادة المستمرة ، والتي لا مثيل لها في عددها وفي ضراوتها ،
في كل أجيال التاريخ !

* * *

إنها أمور خطيرة جداً تلك التي تقولها شهادة القرن العشرين !
إنها تقول أولاً : إن هذا التحلل الخلقى ليس « تطوراً » وإنما هو انحراف .
وتقول ثانياً : إنه انحراف ضار بالكيان البشرى مؤدٍ إلى الدمار .
وتقول بالتالي : إن هناك « فطرة » للإنسان ، تتأذى من كل شيء لا يلائم
طبيعتها ، وتمرض من استمرار تعاطيه .

وتقول كذلك : إن هذه الفطرة ثابتة ، فما كان يؤذيها ويدمرها قبل ألفى
عام مازال يؤذيها ويدمرها بعد مرور الأجيال الطوال ، ولم يحدث فيها « تطور »
يجعلها تصحّ على ما كانت تمرض به في تلك الأزمان . بل هي مازالت تمرض به
على نفس الصورة ونفس المقدار .

وتقول أخيراً إن الجانب الخلقى — على الأقل — من حياة الإنسان ،
ذو مقياس ثابت يقاس به في جميع الأجيال ، فما كان صواباً في علاقات الناس —
وعلاقات الجفنين بصفة خاصة — قبل ألفى عام ، مايزال هو الصواب ، وما كان
خطأً وانحرافاً في تلك العلاقات مايزال هو الخطأ والانحراف ، بعد كل « التقدم »
العلمي ، « والتطور » الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، « والتحرور » النفسي
في ألفين بل ألوف من الأعوام !

وخلاصة ذلك كله أن أي نظام لحياة البشرية ينبغي أن يحفل في حسابه ذلك
المقياس الثابت للأخلاق ، مهما كانت مرونته في الجوانب المادية والاقتصادية
والاجتماعية والسياسية ، التي ينبغي أن تنمو ، وينبغي أن يسمح لها بالنمو في ظل
أي نظام صالح للحياة . .

وهذا يقودنا إلى الحديث عن موقف الإسلام من الحياة البشرية . .

الإسلام وحياة البشرية

الإسلام دين الفطرة ..

ومزيتة العظمى أنه يساير الفطرة ويطابقها مطابقة كاملة .

وقد تحدثت في كتابين سابقين عن لون هذه المطابقة ومداها . فتحدثت في كتاب « منهج التربية الإسلامية » عن طريقة الإسلام في تربية النفس البشرية، وكيف أنه يشملها كلها من جميع جوانبها ، ويشملها كلها في آن واحد : « طريقة الإسلام في التربية هي معالجة الكائن البشرى كله معالجة شاملة لا تترك منه شيئاً ولا تغفل عن شيء . جسمه وعقله وروحه ، حياته المادية والمعنوية ، وكل نشاطه على الأرض .

« إنه يأخذ الكائن البشرى كله ، ويأخذه على ما هو عليه ، بفطرته التي خلقه الله عليها ، لا يغفل عن شيء من هذه الفطرة ، ولا يفرض عليها شيئاً ليس في تركيبها الأصيل .

« ويتناول هذه الفطرة في دقة بالغة فيعالج كل وتر منها ، وكل نفمة تصدر عن هذا الوتر ، فيضبطها بضبطها الصحيح .

« وفي الوقت ذاته يعالج الأوتار مجتمعة . لا يعالج كلا منها على حدة فتصبح النفقات نشازاً لا تناسق فيها . ولا يعالج بعضها ويهمل البعض الآخر ، فتصبح النفمة ناقصة غير معبرة عن اللحن الجميل المتكامل ، الذي يصل في جماله الأخاذ إلى درجة الإبداع » (١)

وفي كتاب « دراسات في النفس الإنسانية » عدت إلى رسم مكوّنات النفس

(١) منهج التربية الإسلامية ، ص ١٩ من الطبعة الثانية .

الإنسانية وطريقة الإسلام في معالجتها ، ووكدت بصفة خاصة حقيقة الترابط في كيان الإنسان :

« هذا الكيان الإنساني المتفرد ، لا نصل إلى كل قراره في الحقيقة حين ندرك فقط أنه كيان مزدوج الطبيعة ، ثم ندرك أن هناك امتزاجا بين عنصريه المكونين له ، يجعله - وهو يجمع بين نشاط الملك ونشاط الحيوان - يؤدي كلا منهما بطريقة الخاصة ، طريقة الإنسان ، التي تحمل مشابهة من الملك ومثابه من الحيوان ، ثم تفترق في النهاية عن الملك والحيوان .

« ليس هذا هو القرار الأخير في كيان الإنسان !

« وإنما نصل إلى قراره حين ندرك أنه في الحقيقة كيان موحد ، على الرغم مما في طبيعته هذه من ازدواج .

« كيان موحد .. كل ما ينبعث عنه من نشاط فإما يصدر عن كيانه الموحد للتشابك المعقد التركيب ا

« أعمال الإنسان كلها ذات ترابط وثيق وإن بدت منفصلة في بعض الأحيان .

« النشاط المادى والنشاط المعنوى ..

« النشاط العملى والنشاط التعبدى ..

« النشاط الاقتصادى والاجتماعى والسياسى ، والنشاط الفكرى والروحى ..

« كل لون من ألوان النشاط هذه وما شابهها قد يبدو لأول وهلة نشاطا

منفصلا ، متخصصا ، مستغرقا ، يقوم به الإنسان بجانب من جوانبه ، ولا يتصل ببقية الجوانب أى اتصال ..

« وذلك وهم ظاهرى ، كهم تجزؤ الإنسان إلى جسم وروح منفصلين .

« وهَمٌّ يغرى به بروز أحدهذه الجوانب في لحظة وتوارى الجوانب الأخرى .

مؤقتا وراء هذا البروز » (٢)

(٢) دراسات في النفس الإنسانية ، فصل « طبيعة مزدوجة »

وهنا في هذا الكتاب نبحث الموضوع من زاوية أخرى ، هي زاوية الثابت والمتطور في كيان الإنسان ، وطريقة الإسلام في معالجة النفس البشرية في هذا المقام .

إن الكيان البشري وحدة ..

وحقيقة إن فيه جوانب ثابتة وجوانب متطورة كما رأينا فيما سبق من البحث .
أو فيه - على الأصح - صور متغيرة وجوهر ثابت .. ولكن عجيبة الإنسان الكبرى أن الثابت والمتطور فيه يكونان وحدة واحدة في النهاية ، مترابطة متماسكة متحدة ، لا يمكن فصل بعضها عن بعض .

العقل البشري يتطور .. ينمو على الدوام .. تجدد له معلومات وخبرات وتصورات . ولكنه مع كل تطوره لا يقفز وحده خارج كيان الإنسان ، ويتطور بمفرده ، تاركاً بقية النفس . وإنما يتطور وينمو وهو في داخل الإطار الكلي للإنسان ، سواء في ذلك الإنسان الفرد ، أو الإنسان المتجمع في صورة مجتمع .. وكذلك النتائج العلمى أو المادى لهذا التطور ، إنه ينمو على الدوام ، ولكنه لا يستقل بنفسه عن الكيان البشري ، وإنما يأخذ حيّزه - مع تطوره الدائم - في داخل الكيان الثابت الذى يتكون منه « الإنسان » .

والنمو الاقتصادى والاجتماعى والسياسى ، والنمو النفسى كذلك . كل شيء ينمو ويتطور ، وهو في النهاية داخل في الكيان الثابت الذى لا تغير جوهره التطورات . .

ومن هذا الخيط المزدوج يأخذ الإسلام الأمر ، وعلى أساسه يقيم نظامه للحياة البشرية .

« بسم الله الرحمن الرحيم . يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » (١) صدق الله العظيم .
فى هذه الآية الواحدة العجيبة أربع قضايا متوالية تحدد الجانب الثابت من حياة البشرية !

« اتقوا ربكم الذى خلقكم » « من نفس واحدة » « وخلق منها زوجها »
« وبث منهما رجالا كثيرا ونساء »

وإنه لالون من الإعجاز أن تجتمع القضية هكذا ، أو القضايا الأربع ، بهذا التتابع السهل البسيط ، فى آية واحدة معدودة الكلمات !

آية واحدة تقص فى إيجاز معجز كل تاريخ البشرية .. !

وتجىء آيات أخرى كثيرة فى القرآن فتفصل جوانب هذه القضية تفصيلا وتزيدها بيانا . وسنستعرض بعض هذه الآيات فى أثناء الحديث التفصيلى عن تلك القضية أو القضايا الأربع المتوالية ، ولكننا نريد هنا أن نبرز اجتماعها فى تلك الآية المفردة التى تحدد فى بساطتها تلك حقائق البشرية الأساسية فى ألفاظ معدودات .

قضية الربوبية . قضية وحدة الإنسانية . قضية وحدة الجنسيتين قضية المجتمع البشرى . . أربع قضايا متوالية تحدد الإطار الذى تعيش فى داخله البشرية .

« اتقوا ربكم الذى خلقكم » قضية الربوبية والخلق . الله هو الخالق . قضية أزلية ثابتة لا تغيرها كل تطورات التاريخ ، ولا تفقدها مكانتها كل تطورات التاريخ ! ومن ثم يترتب عليها تقوى الله . . فتنشأ القضية الأولى فى حياة الإنسان : قضية العقيدة .

« من نفس واحدة » .. قضية الإنسانية الناشئة من نفس واحدة . من أصل

(١) سورة النساء [١]

واحد مشترك . من كيان واحد يضمها جميعاً . قضية ثابتة لا تغيرها كل تطورات التاريخ ، ولا تفقدها مكانتها كل تطورات التاريخ ! ومن ثم يترتب عليها أخوة البشرية .

« وخلق منها زوجها » . . قضية الجنسين ، الرجل المرأة ، أحدهما من الآخر . فالمرأة « من » ذات النفس التي هي الرجل . . قضية ثابتة لا تغيرها كل تطورات التاريخ ، ولا تفقدها مكانتها كل تطورات التاريخ ! ومن ثم يترتب عليها المساواة « الإنسانية » بين الجنسين ، وكذلك وجود علاقة ثابتة بين الجنسين . « وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء » . . قضية المجتمع المتكون من الأفراد ، الناشئين من نفس واحدة ، والذين هم إخوة في الإنسانية . قضية ثابتة لا تغيرها كل تطورات التاريخ ، ولا تفقدها مكانتها كل تطورات التاريخ ! ومن ثم يترتب عليها أن تكون تنظيمات المجتمع قائمة على هذه الحقائق : الأخوة ووحدة النشأة ووحدة « النفس » البشرية . . .

هل تتغير هذه الحقائق أو « تتطور » بتطور أساليب الإنتاج أو تقدم العلوم ؟ أم هل تتغير دالاتها ؟ !

إنها ثابتة لا تقبل التغيير ، لأنها حقائق « تاريخية » وجدت وانتهت ، ولا سبيل إلى تغيير حقائق التاريخ !

وعلى هذه الحقائق الأربع الثابتة ، تقوم حقائق أخرى ، وتشريعات وتوجيهات ، لا بد أن تكون ثابتة لأنها تتعامل مع حقائق ثابتة ، ولا بد أن تكون دائمة ما دامت الحياة البشرية على الأرض .

ونأخذ في التفصيل . . .

* * *

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم »

قضية الربوبية والخلق هي القضية الرئيسية في التصور الإسلامي ، لأنها الحقيقة الأولى التي تنبثق منها كل الحقائق التالية وتعود إليها .
إن الله هو الخالق الذي خلق الكون وخلق الإنسان . . ومن ثم فهو
 « الرب » الذي ينبغي عبادته . . وحده .

تلك حقيقة أزلية لا سبيل إلى تغييرها ! فكل التطور المادي والعلمي والاقتصادي والاجتماعي والنفسى لن يوجد خالقاً جديداً يُنسب إليه الخلق كله وخلق الإنسان خاصة ، غير الله ! وكل ما يحدثه « الإنسان » على وجه الأرض من تغيير وتطور ، وإنشاء وتعمير ، وهدم وتدمير . . كله لا يغير تلك الحقيقة الأزلية ، ولا ينشئ خالقاً في السماوات والأرض غير الله !

والملاحدون من أمثال جوليان هكسلى ، الذين يقولون إن الإنسان ينبغي أن يأخذ على عاتقه ما كان يلقيه من قبل في عجزه وجهله على عاتق الله . . يهزلون ! ولا يحترمون عقولهم . . وإن كانوا « مخلصين » في إلحادهم — كما يعتذر لهم بعض « المتقين » ! — فهم يسيئون تفسير حقائق الحياة . فالله الذي خلق الإنسان قد منحه الخلافة في الأرض : « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة »^(١) . ومن مقتضى هذه الخلافة أن ينشئ الإنسان بإذن الله أشياء وأوضاعاً وأحداثاً على وجه الأرض . أن ينتج . أن يعمل . أن يطور الموجود ليبدع منه أشكالاً جديدة على الدوام . وذلك معنى الخلافة التي جعلها الله للإنسان . . . أفذلك بغرى الإنسان أن ينسى حقيقته ويخاصم الله !! « أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ؟ »^(٢)

ماذا أحدث الإنسان على غير قانون الله ؟

أليس في كل ما يعمل وينتج وينشئ ويطور ، يعمل بمقتضى القانون

(١) سورة البقرة [٣٠]

(٢) سورة يس [٧٧]

الإلهى الذى أودعه فطرة الكون ، وكل عمله أن « يتعرف » على « القوانين الطبيعية » التى هى « سنة الله » .. يتعرف عليها بما وهبه الله من طاقة المعرفة ، ثم يحاول التطبيق عليها ، بمقتضى ما وهبه الله من قدرة على التطبيق ؟

أى شىء فى عمله كله خارج عن النطاق الذى رسمه له الله ؟
كلا ! إنهم يهزلون ولا يحترمون عقولهم . . أو يعميهم الجهل عن حقيقة الناموس . .

لا خالق إلا هو فى السماوات والأرض . . تلك هى الحقيقة « العلمية » التى تنشأ منها كل الحقائق الأخرى فى هذا الوجود .

وما دام هو الإله ، فمقتضى ألوهيته أن يقوم العباد بعبادته : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » (١).

والعبادة لفظ شامل واسع محيط . إنه ليس شعائر التعبد المحصورة المحدودة . ولكنها كل شىء . هى عمل العباد كله . فالعباد مخلوقون للعبادة . أى أن كل عملهم الذى يعملون مفروض أنه عبادة . ومن ثم يلتقى العمل بالشعائر التعبدية ويصبحان شيئاً واحداً فى عرف الإسلام .

وما دام هو الإله الواحد الأحد ، فمقتضى وحدانيته هو إفراده بالعبادة . فلا يعبد غيره فى الأرض . وليس معنى ذلك هو المعنى الضيق المحصور ، وهو ألا يسجد الإنسان لأحد ولا يركع لأحد . فهذا المفهوم لا يناسب إلا المفهوم الضيق للعبادة المحصور فى الشعائر التعبدية . ولكن العبادة بمعناها الحقيقى ، التى هى عمل الناس كله ، هى التى ينبغى أن تكون لله وحده ولا تكون لأحد غيره من الخلق . فكل العمل البشرى — وهو العبادة — ينبغى أن يكون لله وحده دون شريك .

(١) سورة الداريات [٥٦] .

فياً كل الإنسان لله ويشرب لله ويسكن ويلبس لله . وينشط نشاطه الجنسى لله . ويتلك لله . ويقاتل لله . ويبرز لله . ويحب لله ويكره لله إلخ . . إلخ وذلك هو معنى العبادة لله في نطاقها الواسع . . . نطاقها الحقيقي . ومقتضى وحدانيته كذلك أن تكون له الحاكمة وله التشريع . فالحاكمة ألوهية ، وطاعة الحاكمة عبودية . . وإن يشرع إنسان للناس — من عنده — إلا أن يكون شاعراً أن الناس ينبغي أن يطيعوه هو ولا يطيعوا سواه . أى — بمعنى من المعاني — يعبدوه ! وما دام يضع لهم عقوبات حين يخرجون على طاعته — هو — فهو يستعبدهم لنفسه ، وهم — حين يطيعونه راضين — يتعبدون له ! ويستوى أن يكون المشرع إنساناً فرداً أو مجموعة من الناس تعطى نفسها الحق في التحليل والتحریم لبقية الناس ، وترسم العقوبات للمخالفين . . لأنها تعطى نفسها حقوق الإله ، وتتطلب من الناس ما يتوجهون به إلى الله .. وهو ما لا يحق لهم ما داموا ليسوا آلهة ولا خالقين . .

تلك هي القضية الأولى في التصور الإسلامي . أن تكون العبادة لله وحده . والحاكمة لله وحده . والتشريع من عند الله وحده .

وهي قضية تقوم على حقيقة أزلية .. وحقيقة « علمية » هي أنه لا إله إلا الله . والذين يدعون إلى أن يشرع الإنسان لنفسه ، ويضع القواعد لنفسه ، هاهم أولاء في صراحة يقولون : إن الإنسان ينبغي أن يحمل على عاتقه هو ما كان يضعه على عاتق الله من قبل ، ويصبح هو الله ! (١)

ويلتقي بهذه الحقيقة الأزلية حقيقة مقابلة في الفطرة .. أن الفطرة البشرية تتجه إلى عبادة الله : « ولما أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم . ألسن بربكم ؟ قالوا : بلى ! شهدنا ! » (٢)

(١) جوليان هكسل ، كتاب « الإنسان في العالم الحديث » [وغيره كثيرون !]
(٢) سورة الأعراف [١٧١]

وتلك حقيقة علمية ، تثبتها وقائع التاريخ ..
 الإنسان في كل عصوره وكل أحواله يعبد الله . ولكنه يهتدى تارة ويضل
 أخرى . فيعبد الله على صفاء وصحة ، أو يعبدته في صور منحرفة ، أو يعبدته ويشرك
 به آلهة أخرى ..

ولكنه في كل حالة يعبد الله .. الخالق .. الذي خلقه وخلق الكون والحياة .
 ولا تحتاج الفطرة إلى من يوجهها إلى عبادة الله . فهي تعبدته تلقائياً — ضالة
 أو مهتدية — بلا تدخل . وإن كانت توقيعات مختلفة من الكون في الحس
 البشري « توقظ » الفطرة وتنبهها إلى حقيقة الله .

العجز البشري ، الذي يحسه الإنسان في أعماقه مهما وصل من القوة والمقدرة .
 العجز عن تحقيق كل ما يريد الإنسان والسيطرة على كل ما يريد السيطرة عليه .
 العجز عن الخلود . العجز عن معرفة الغيب . العجز على أن يكون الإنسان
 إلهاً ، يقوم بذاته ولا يحتاج إلى مدد من خارجه .. من غذاء أو كساء أو جنس !!
 والروعة التي يحسها الإنسان إزاء الكون .. الكون الهائل ، والكون
 الدقيق . الأجرام المروعة في ضخامتها ، والدقة المعجزة في تفصيلاتها وجزئياتها
 وتنظيماتها ودورة أفلاكها .

والموت .. الذي يروع الحس البشري ويلجئه للبحث عن واهب الحياة .
 وروعة حدوث الأحداث : الليل والنهار ، والزمان والمكان ، والموت
 والحياة ، والصحة والمرض ، والغنى والفقر ، واللذة والألم والسعادة والشقاء .. الخ
 كلها توقيعات يوقعها الكون على الحس البشري ، فتوقظ فطرته إلى الله! (١)
 والإسلام يقيم نظامه كله على هاتين الحقيقتين المتقابلتين : حقيقة وجود الخالق
 وحقيقة توجه الفطرة إليه .

(١) انظر فصل الدين والفطرة في كتاب الدراسات .

فهو يمنح الإنسان عقيدة في الله ، تلبى فطرته المتوجهة إلى الله ، وتصحيح الفطرة وتقومها من ضلالها إن ضلت عن حقيقة الله . عقيدة تلبى حاجة الإنسان الفطرية إلى الله . وحاجتها الفطرية إلى عبادته . وحاجتها الفطرية إلى التعرف على مركزها من الحياة والكون ، وعلى حقيقة الصلة بينها وبين الله .

وعقيدة — من ناحية أخرى — تنظم حياة الإنسان ، بمقتضى عبوديته لله وحاكمية الله له ، فتجعل التشريع كله والتنظيم ، مستمدا من العقيدة ، مرتبطا بها متعلقا بعبادة الله . (١)

وعقيدة — من ناحية ثالثة — تجعل التشريع والتنظيم متمشيا مع فطرة الإنسان ، في الثبات والتغير على السواء ! ومن ثم تلتقي العقيدة بالفطرة في كل اتجاه .

* * *

والنظم التي خرجت على تلك الحقيقة الأزلية ، ماذا صنعت بيني الإنسان ؟! لقد صنعت بهم شرورا كثيرة ..

استعبدتهم بعضهم لبعض .. في حدود « الوطن » الواحد ، وفي حدود العالم الكبير !

« فالطبقة الحاكمة » كما تعترف المذاهب كلها ، تشرع لنفسها ولمصالحها على حساب بقية الطبقات . أى أنها تتأله على حساب الآخرين ، وتستعبد الآخرين لحسابها ألوانا من الاستعباد .

و« الفرد الحاكم » هو الطاغية في كل أطوار التاريخ .. ذلك في حدود « الوطن » .. أما في حدود العالم الكبير ، فأمة تستعبد أمة وتذيقها العذاب ، وهذه وتلك خارجتان على الله !

واستعبدتهم لشهواتهم .. فحين ينفلت الإنسان من ضوابط العبادة الحققة لله تملكه شهواته ونزواته ، فيستعبد لها ويستذل .

(١) انظر كتاب « هذا الدين » وكتاب « المستقبل لهذا الدين »

ووضعت لهم نظماً لا تلائم فطرتهم [انظر الكسس كاريل] لأنها قائمة على الجهل المطبق بحقيقة الإنسان . وكان من جراء هذه النظم هذا الفساد الذريع والشقاء الذى يغشى وجه الأرض ..

ومزقتهم ، بين حاجتهم الفطرية إلى الله والعقيدة، وبين التنظيمات الضرورية لهم ، لأنهم وراحتهم ، والتي تستمد — فى حياتهم — من عند غير الله . فتتضارب الحاجات ، وتمزق المشاعر ، ويحدث الجنون والاضطراب ..

وفى النهاية تهدد — كما رأينا فى شهادة القرن العشرين — بتدمير البشرية ! (١)

* * *

والعقيدة فى الله أمر ثابت ، لثبات الحقيقة التى ترتكن إليها ، وهى وجود الخالق ووجود الخلق .

ومن ثم كانت العقيدة — كما أنزلها الله — ثابتة فى جميع أطوار التاريخ . لا تتبدل ولا يطرأ عليها تغيير .

« لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ، فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ... وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره .. وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره .. وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ... » (٢)

دعوة واحدة على مدار التاريخ ..

ولكن للعقيدة جانبها المتطور على مدار التاريخ ! جانب التشريع والتنظيم الذى يناسب درجة النمو التى تكون عليها الأمة وقت الرسالة . النمو النفسى والاجتماعى والعقلى ..

(١) راجع كتاب « الإسلام ومشكلات الحضارة » لسيد قطب .

(٢) سورة الأعراف .

وحين تبلغ البشرية رشدًا تجيشها العقيدة في صورتها الأخيرة الثابتة، وتحمل هذه العقيدة في الوقت ذاته كل المرونة المطلوبة لتطورات المستقبل [كما سيحيى بالتفصيل في نهاية الفصل] : « اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام دنیا » (١)

* * *

أما الذي يزعمه علم الاجتماع الغربي من « تطور » العقيدة في الله ذاتها، ليوحى إلهاء خبيثًا بأن العقيدة أمر بشري، ابتدعه البشر في جهالتهم، وينبغي أن تتبدأ منه في عصر النور (١) .. أما هذا فمغالطة لا تثبت للتمحيص إن الذي « تطور » لم يكن هو العقيدة في الله . إنما كان انحراف العقيدة في الله !

حين عبدت البشرية أبأها، وعبدت الطوطم، وعبدت الوثن، وعبدت قوى الطبيعة المفرقة . . كانت في كل ذلك تنحرف عن العقيدة الصحيحة في الله، وتتصوره تصورات شتى منحرفة، تتطور في كل مرة مع تطور « المعلومات » والتصورات البشرية، والتشابكات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . . ولكنها لم تكن في شيء من ذلك تتبع دين الله .

ومن ناحية أخرى فمن الثابت في التاريخ — الذي أغفله علم الاجتماع الغربي عن عمد — أن البشرية — فيما بين انحرافات المتكررة « المتطورة » — قد مرت بفترات فاءت فيها إلى العبادة الصحيحة — عن طريق الرسالات السماوية — قبل أن تعود مرة أخرى إلى الانحراف .

ومن ثم فإن « تطور » التصورات المنحرفة للعقيدة يفقد دلالاته التي يلصقها بها علم الاجتماع الغربي . فهو ليس دليلاً على أن الدين قد ابتدعه البشر ولم ينزله

(١) سورة المائدة [٣]

الله ، وليس دليلاً كذلك على أن العقيدة في الله عنصر متطور ، يحىء عليه وقت يزول من النفوس بحكم « التطور » . . وتستبدل به عبادة أخرى ، أو لآعبادة على الإطلاق !

بل إن هذه الانحرافات « المتطورة » لتعطى دلالة عكسية لما يقوله علم الاجتماع الذى أبدعته الشياطين !

إنها تعطى دلالة ثبات العقيدة ! ففى جميع الأجيال ، وعلى جميع المستويات توجد عقيدة فى الله !! تهتدى أو تضل ، وتأخذ صوراً شتى ، ولكنها فى النهاية عقيدة فى الله ! فهى إذن عنصر ثابت فى كيان الإنسان !

والقرن العشرون ، أو « علماءه » من الشياطين ، لا يستطيعون أن يأخذوا من هذه الانحرافات التوجيه الذى يريدونه ، وهو أن الناس فى القرن العشرين أحرار فى ألا يعبدوا الله ! أو أن الخروج من عبادة الله ظاهرة « بشرية » أن أوانها فى القرن العشرين !

كلا ! إن ما أثبتته الفطرة فى مئات الألوف من السنين . . لا يالغيه الواقع المنحرف لبعض الشياطين فى القرن العشرين ، ممن فسدت فطرتهم فارتكسوا إلى مادون مستوى الآدميين !

* * *

« اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » .
ينقل القرآن بعد ذلك إلى القضية التالية ، بعد قضية ربوبية الخالق وعبادة العباد .

« خلقكم من نفس واحدة » .
تلك الحقيقة الثابتة لا تغيرها التطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، ولا التطور فى أساليب الإنتاج ! إن شيئاً من ذلك كله لا يقول إن الإنسان يرجع فى تاريخه إلى أصول متعددة .

حتى التفسير الحيوانى للإنسان — تفسير دارون — لم يقل إن هناك أصولاً متعددة للجنس البشرى . وإنما هو أصل واحد مشترك في نهاية المطاف .

ولكن تلك الحقيقة الثابتة تعطى كثيراً من المعطيات .

إن وحدة البشرية وأخوتها حقيقة علمية . تترتب عليها أمور خطيرة في علاقات الناس بعضهم ببعض .. أمور تغفلها النظم « البشرية » كلها ، ويذكرها الإسلام .

ولا نعود إلى النظم السالفة ، التي جعلت من الناس قوماً منبوذين للاحقون لهم ، ولا كيان ، ولا « آدمية » . . إنما نتحدث عن النظم « المتحضرة » الراقية في القرن العشرين !

كيف تبدو أخوة البشرية ووحدتها في ظل « التفرقة العنصرية » التي تشوه وجه الأرض في القرن العشرين ، في أمريكا المتحضرة ، وإنجلترا [في جنوب أفريقيا] وغيرها من بلاد الله ؟ !

كيف تبدو هذه الحقيقة الثابتة في ظل النظم التي استكبرت عن عبادة الله وقالت إنها شبت عن الطوق ، ولم تعد في حاجة إلى وصاية الله أو وصاية الرسل والأنبياء .. لأنها تعيش في عصر « العلم » و « التقدم » و « المدنية » ؟ !

كيف هي حين يمسك البيض « المتحضرون » بشاب زنجي ذنبه أنه أسود اللون ، فيضربونه ويركلونه حتى الموت ، ويعلقونه في فروع الشجر زيادة في التنكيل ، ورجل البوليس الأبيض واقف ينظر ولا يتدخل حتى ينتهي الجرم البشع الشنيع !

تلك هي الحضارة ! الحضارة الراقية التي تستكبر على الدين . وتنظر إلى العقيدة في الله على أنها رجعية وتأخر وأنحطاط !

* * *

والإسلام قد راعى هذه الحقيقة الثابتة في تشريعاته وتوجيهاته :

« وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أقرّبكم عند الله أتقاكم » (١) . ولم يقل أبيضكم . ولا أكثركم « حضارة ! » من ذلك النوع الذى يبيح قتل الملونين لأنهم ملونون ، ويثور ثورة همجية حين تأمر الدولة بإعطاء أحدهم حق التعليم في مدارسهم وهو من أبسط حقوق « الإنسان » !

« لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » (٢)

« اسمعوا وأطيعوا ، ولو استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة ، ما أقام فيكم كتاب الله تبارك وتعالى » (٣)

وراعاها في واقعه التاريخي . فبلال الحبشي الأسود هو مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يظهر على ظهر الكعبة فيؤذن يوم الفتح ، وهى التى يعظمها العرب في الجاهلية والإسلام . وعمار وابن مسعود كذلك هما اللذان يجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما وبين أبي بكر وعمر — رضى الله عنهم — في حديث واحد في شأن واحد فيقول : « لئن لا أدري ما بقائى فيكم فاقفدوا بالذين من بعدى — وأشار إلى أبي بكر وعمر — واهتدوا بهدى عمار ، وما حدثكم ابن مسعود فصدقوه » (٤)

وراعاها مع غير المسلمين ، لأنها حقيقة لاتتعلق بوجود المسلمين ، وإنما تتعلق بوجود « الناس » : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » . فعامل الناس جميعاً على أساس إنسانيتهم المطلقة ماداموا لا يفسدون في الأرض ولا يحاربون المسلمين ولا يفتنونهم في دينهم : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤم وتقسطوا إليهم . إن الله يحب المقسطين » (٥)

(١) سورة الحجرات [١٣] . (٢) أخرجه الطبرى .

(٣) رواه البخارى .

(٤) أخرجه الترمذى . (٥) سورة المتعنة [٨]

بل راعاها في الحرب مع الذين يقاتلونه في الدين ! فكانت تلك المعاملة الإنسانية الكريمة التي لم يعرفها التاريخ في غير حروب المسلمين !
والذين لا يؤمنون بالله ولا يريدون أن يكونوا مسلمين في كل الأرض ،
لعلهم يستنبطون شيئا من التفسير المادى للتاريخ ، أو التفسير الحيوانى للإنسان
يبررون به وحشيتهم في السلم والحرب ، في الاضطهاد العنصرى والقتل والتدمير
على نطاق واسع ، وفي وسائل التعذيب الوحشى التي يستخدمها الطغاة من
حكامهم ليسندوا أوهيتهم الزائفة . . في عصر « الحرية » و « التقدم »
والاستكبار عن عبادة الله !

* * *

وقد انعكس هذا المفهوم الإسلامى عن وحدة البشرية وأخوتها في مجموعة
من التشريعات والتوجيهات والتقاليد ، لم يكن لها مثيل في تاريخ الأمم الأخرى
كلها ، خارج نطاق الإسلام .

فقد انبثق من هذا المفهوم بادى ذى بدء أن يكون السلم هو القاعدة الأولى
لل بشرية . فهذا هو الذى يتناسب مع أبناء « النفس الواحدة » : « يا أيها الذين
آمنوا ادخلوا في السلم كافة » (١) . « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل
على الله . » (٢) فالأمر الأول موجه إلى المؤمنين ليدخلوا في السلم كافة ، ذلك
بأن يسموا أنفسهم كلها لله ، فيسود السلام بينهم وبين فطرتهم ، وبينهم وبين
الكون من حولهم ، وبين بعضهم وبعض ، وبذلك يصبحون الأمة الراشدة التي
تشرف على بقية البشرية : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على
الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا » (٣) الأمة التي تجعل من نفسها المثال
الذى ترسمه البشرية ، فأولى بها أن تكون ترجمة صادقة لمفهوم القرآن ، وتكون

(١) سورة البقرة [٢٠٨] (٢) سورة الأنفال [٦١] . (٣) سورة البقرة [١٤٣]

خالصة لله . والأمر الثاني يحدد العلاقة بين هذه الأمة المؤمنة وغيرها من الناس . فإن جنحوا للسلم ، إن امتنعوا عن العدوان ، وأطلقوا الحرية للدعوة إلى الله بينهم ، تاركين الناس حرية اقتناعهم ، فالأمر للمسلمين أن يمنحوا هم كذلك للسلم ، وقد باتت الأبواب مفتوحة أمامهم لمزاولة الدعوة إلى دين الله في الأرض ، بلا حاجز من سلطة تحول بينهم وبين الناس ، وإقامة نظام الله في الأرض بلا مانع من سلطة تحول بينهم وبين إقامة شريعة الله ، ليسود السلام كل الأرض ، تحقيقاً لأخوة البشرية في صدورهم من « نفس واحدة » . فأما حين يقع العدوان على دعوة الله أو على المسلمين ، أو على النظام الإسلامي ، في صورة من صور العدوان ، سواء بالوقوف في وجه الدعوة ، أو محاربة النظام القائم على شريعة الله ، أو فتنه المسلمين عن دينهم ، فالحرب تقع لرد العدوان الظالم : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم . ولا تعتدوا . إن الله لا يحب المعتدين »^(١) « فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين »^(٢) .

وانبثق عن هذا المفهوم كذلك أنه « لا إكراه في الدين »^(٣) . حقيقة إن الإسلام هو الهدى . والمسلمون هم الأمة المتهتدية الراشدة . ولكن ليس لهم مع ذلك أن يُكرهوا إخوتهم في البشرية على اتباع دين الحق ! إنما عليهم أن يدعواهم إلى الهدى .. دعوة بالتي هي أحسن . كما يليق بالإخوة : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة »^(٤) « وجادلهم بالتي هي أحسن »^(٥) . وإنما تقع الحرب في الدعوة لا لإكراه الناس على الدين ، فالأمر صريح بأنه لا إكراه في الدين . ولكن لإزالة القوى الظالمة التي تحجب الهدى عن الناس . فإن جفحت تلك القوى الظالمة المعتدية إلى السلم وأبدت أنها لا تقف في سبيل الدعوة إلى الله الحق ، فلا حرب ولا عدوان .

(١) سورة البقرة [١٩٠] (٢) سورة البقرة [١٩٣] (٣) سورة البقرة [٢٥٦]

(٤) سورة النحل [١٢٥] (٥) سورة النحل [١٢٥]

وانبثق عنه أن تكون العلاقة بين المؤمنين وأصحاب الديانات الأخرى هي علاقة المودة : « وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم »^(١). فهي علاقة المواكلة والتزاوج والتزواج .. وهي أوثق العلاقات .

ثم انبثق عنها أن يقوم العدل بين البشر على أساس إنسانيتهم وحدها . بصرف النظر عن أى اعتبار آخر .. ولو كان هذا الاعتبار هو العداوة للمؤمنين ! ففي وسط الحرب الخبيثة التي كان يشنها اليهود على الإسلام في مهده ، يحاولون زلزلة المؤمنين واقتلاع العقيدة الجديدة من جذورها قبل أن ترسخ في الأرض ، والدس والكيد ونشر الأراجيف ، وتشكيك الناس بعضهم في بعض ، وإيذاء المسلمين والمسلمات في أعراضهم .. بالإضافة إلى الحرب الرسمية التي تستخدم فيها أدوات القتال ، مع الغدر في هذه الحرب ونقض المواثيق وانتهاك الحرمات .. في وسط كل ذلك لا يقبل الإسلام عدواناً وقع على واحد من اليهود ، إذ رمى بهمة ظالمة وكاد يحكم عليه من أجلها ، فيتنزل الوحي بتبرئته في هذه الآيات البينات : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيماً . واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً . ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ، إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً . يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول ، وكان الله بما يعملون محيطاً . ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل عنهم يوم القيامة ، أم من يكون عليهم وكيلاً ؟ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً . ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً حكيماً . ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل

(١) سورة المائدة [٥] .

بهتانا وإثماً مبيئاً . ولولا فضل الله عليك ورحمته هُمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم ، وما يضرونك من شيء . وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيماً» (١) . وقد نزلت هذه الآيات التسع بهذا التفصيل والبيان والتوكيد الشديد المكرر، لتحمي الرسول صلى الله عليه وسلم من الحكم على هذا اليهودى البرىء الذى كانت القرائن — الظاهرة — كلها تنميه ، وكان الحق أنه برىء من الاتهام ! ووضع الإسلام بذلك فى عالم الواقع هذا المبدأ الإنسانى الخالد.. الذى لا يوجد قط بهذه الصورة فى غير الإسلام !

ثم كانت هذه التوجيهات العامة : « ولا تلهزوا أنفسكم . ولا تنازروا بالألقاب » (٢) . « من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » (٣) [وهو مكتوب على الأمة المسلمة كذلك] « ولا يجرمناكم شأن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى » (٤) .

هكذا . . إنسانية على الاتساع ! فى السلم وفى الحرب سواء . فى الحب وفى الكره سواء !

وكان هذا فى نظر الإسلام عنصراً ثابتاً فى حياة البشرية ، لا تقلبه الظروف والأهواء ، لأنه ليس نابعاً من الظروف ، وإنما ينبع من حقيقة ثابتة لا تغيرها تطورات « الإنتاج » ولا أحداث التاريخ !

* * *

(١) سورة النساء [١٠٥ — ١١٣]

(٣) سورة المائدة [٣٢]

(٢) سورة الحجرات [١١]

(٤) سورة المائدة [٨]

والقضية الثالثة هي قضية العلاقة بين الجنسين .. وهي من أخطر قضايا البشرية .
« خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها » .

إن الزوجين — الرجل والمرأة — من « نفس » واحدة . والإشارة إلى النفس هنا ذات دلالة لا تخفى . إن المشاركة ليست في « النوع الإنساني » فقط . ولكنها أخص من ذلك كثيراً . إنها المشاركة في « النفس » . . النفس الواحدة . ومن ثم يتشاركان في الكيان الإنساني الداخلي ، الذى تشير إليه لفظة « النفس » كما يتشاركان في الإطار الخارجى للإنسان . . « فاستجاب لهم ربهم أنى لأضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض » (١) . . متداخلين متمزجين لا يتميزان من حيث الكيان الإنساني للإنسان !

وهذه الحقيقة الأولية التى وضعها الإسلام بهذه الصورة ، ورتب عليها ما يتفق معها من تشريعات ، لم تبق إلينا البشرية خارج نطاق الإسلام إلا بعد فترة طويلة جداً . . وبعد صراعات مدمرة ، حطمت الأسرة والمجتمع فى الغرب ، وحطمت الأخلاق والتقاليد ، وأدت إلى تلك الفوضى الجنسية البشعة التى ردت الإنسان حيواناً يرتكس فى سعار مجنون . بينما الإسلام قد أعطاها للمرأة تكريماً وكرماً ، مع المحافظة الكاملة على كيانها ، وكيان الرجل معها ، وكيان الأسرة والمجتمع . . وذلك هو الفرق بين دين الله ودين البشر الذين يشرعون لأنفسهم ، ويزعمون لأنفسهم حقوق الإله !

لقد رتب الإسلام على هذه المشاركة فى النفس الواحدة ، نتائجها الطبيعية ، فأعطى المرأة حق الملك والتصرف والكسب والعمل والتعليم ، والزواج وطلب الطلاق ، والمجادلة عن نفسها والمنافعة عن حقوقها . . وهى مصونة الأخلاق ، تقوم بهذه الأمور كلها على مستوى « الإنسان » الراشد العابد النظيف ، لا على

(١) سورة آل عمران [١٩٥]

مستوى الحيوان المنفلت من القيد ، ولا الشيطان القاعد للفتنة والإغراء : « الرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن » (١) « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ، ولا تعضلوهن لتذهبن ما آتيتموهن — إلا أن يأتين بفاحشة مبينة — وعاشروهن بالمعروف ، (٢) » قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ، (٣)

وفرنسا — المتحضرة — لم تعط المرأة حق التصرف المباشر فيما تملك ، وحق التعامل المباشر مع المجتمع إلا في القرن العشرين ! وأوروبا كلها لم تعط المرأة حق المساواة في الأجر على العمل الواحد إلا في القرن العشرين . وما تزال انجلترا إلى هذه اللحظة لا تراعى هذه المساواة بين الموظفين والموظفات ، بحجة أن المرأة تحمل وتلد وتطلب إجازة للوضع !

ولم تصل المرأة إلى هذه الحقوق حتى اضطرت أولاً أن تخرج للعمل لتسكفل نفسها لأنه لا عائل لها يكفلها ! واضطرت ثانياً أن تتخلى عن أخلاقها لأنها قيد يمنع حصولها على العمل ، من الرجل الحيوان الذي يريد — قبل أن يمنحها لقمة الخبز التي تريدها — أن ينال منها المتعة الحرام . ثم انتهى الأمر بها أن تقوم — غير مضطرة — بدور الفتنة في الأرض ، وتحول الحياة في الغرب إلى ماخور كبير . ثم .. ثم قال الغرب بعد هذا الصراع الحيواني كله مع المرأة : إنه لا يعطى لها هذه الحقوق لأن ذلك مقتضى الحقيقة الأولية في خلق الرجل والمرأة ، ولكن لأن « التطور » الاقتصادي قد اقتضى ذلك !! التطور « الحتمي » ! أى . . والناس راغمون !! بينما يضع الإسلام هذه القواعد مبتدئاً — بلا ضغط من الظروف الاقتصادية ولا قهر — والناس راضون ، لأنهم بذلك يعبدون الله!

(٢) سورة النساء [١٩]

(١) سورة النساء [٣٢]

(٣) سورة المجادلة [١]

ويضعها قواعد ثابتة — لأنها مستمدة من حقيقة ثابتة — تطبق في المجتمع
الرعى — الذى كان يوم نزل الإسلام — وفي المجتمع الزراعى الذى تلاه ، كما
تطبق في المجتمع الصناعى والمجتمع الذرى سواء . لا دخل لها « بتطور »
أساليب الإنتاج ولا تطور الاقتصاد والمجتمع . لأنها تتعلق بشيئ « الإنسان » ..
الإنسان من حيث هو إنسان !

* * *

وتفرع من قضية الجنسين قضايا كثيرة متشعبة ، ذات خطر كبير في
حياة البشرية :

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم
مودة ورحمة » (١)

الأزواج — كما مر بنا في الفقرة السابقة — من « أنفسكم » . من « نفس
واحدة » . ولكن الآية هنا تضيف بيان نوع العلاقة بين الجنسين واتجاهها وحكمتها .
لماذا خلق الله الأزواج ؟ إن حكمة الله واسعة شاملة . . واسكن الآية تحدد
الحكمة — أو تشير إلى بعض اتجاهاتها — « لتسكنوا إليها » ذلك هدف خلقة
الزوجين في عالم الإنسان .

والسكن علاقة واسعة يشملها السكون والراحة والاطمئنان . . وتظلها
السكينة ويرفرف عليها الهدوء . وهذا ما يريد الله من علاقة الزوجين . إنه
لا يريد لها خصاما وعراكا تفسد معه طيبات الحياة . ولا يريد لها مشغلة دأمة وهما
مقعدا مقبعا كما هي اليوم في الغرب حين انفلت من إطار الوحي الإلهي وأخلد إلى
الأرض واتبع هواه .

« وجعل بينكم مودة ورحمة » ذلك تركيب الفطرة : التجاذب بين الجنسين .
ولئن كان القرآن لم يستخدم هنا كلمة « الحب » وإنما استخدم « المودة »

(١) سورة الروم [٢١]

فلأنه — من ناحية — يريد أن يرفع العلاقة إلى أفق شفيف منير ، ولأنه — من ناحية أخرى — أكثر واقعية ! إن الوله والعشق والتطلع . . مرحلة من مراحل الدفعة الجنسية ، تقع في فورة الشباب ولكنها لا تدوم . . وليس من شأنها أن تدوم ! إنما الذي يدوم هو المودة ! إنها تشمل العلاقة كلها في جميع مراحلها ، وتبقى بعد فتور الوله والعشق والتطلع بحكم طبائع الأشياء وطبائع النفوس !

هذه القضية الثابتة ذات أطراف ثابتة ، وعلاقات ثابتة . ومن ثم ترتبت عليها أمور ثابتة في حياة البشرية !

فالقضية تقوم ابتداء على وجود « الرجل » من ناحية و « المرأة » من ناحية . وتلك حقيقة ثابتة [فيما عدا انحرافات الفطرة التي سنتكلم عنها بعد قليل] ثم على وجود تجاذب بين الرجل والمرأة من ناحية أخرى . وتلك حقيقة أخرى ثابتة . ثم على رغبة تحقيق السكن من هذه العلاقة القائمة على التجاذب من ناحية ثالثة . وتلك حقيقة كذلك ثابتة .

وإذ كانت جميع أطراف القضية ثابتة كما هو واضح . . فنتأهبها لا يمكن أن تخضع للتطور والتغيير !!

وهنا تتداخل تلك القضية الثالثة [قضية الجنسين] مع القضية الرابعة التي سنتحدث عنها تفصيلاً في الفقرة التالية ، وهي قضية المجتمع [« وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً »] فتحددان معاً كل علاقات الجنسين .

إن هذا التجاذب القائم بين الرجل والمرأة ، ووجودهما في ذات الوقت في مجتمع ، قد استلزم تنظيم العلاقة بينهما على أسس تلتقى مع فطرتيهما أولاً ، وتلتقى كذلك مع حقيقة وجودهما في مجتمع .

لو كان الأمر أمر رجل واحد وامرأة واحدة في كل الأرض . . لما احتاج إلى تنظيم كثير ! ولكن خروج النسل من هذه العلاقة بينهما أولاً ، وتحول النسل

إلى رجال كثير ونساء ثانياً ، يجعل الأمر في حاجة إلى تنظيم دقيق يحكم يمنع الخلل الذى يندشأ — كلما اتسعت الدائرة — من الفوضى التى لا يضبطها دليل .
لقد استلزم وجود رجال كثيرين ونساء — لا رجل واحد وامرأة واحدة — تنظيم صور « التجاذب » الذى يحدث حدوداً فطرياً بين الرجال والنساء . لىكى لا يصبح فوضى تصطدم فيه مختلف « التجاذبات » فتؤدى إلى ضياع « السكن » المرجو لكل نفس من جهة ، وتؤدى إلى فساد روابط المجتمع من جهة أخرى . كما استلزم وجود النسل الملبث من لقاء شقى النفس الواحدة قيام « الأسرة » وتنظيم علاقتها .

وهكذا تشعبت علاقات كثيرة مختلفة من الحقيقة الرئيسية وهى خلق الزوجين وشد بعضها إلى بعض برابط الجذب و « المودة » . ثم صارت هذه العلاقات المتشعبة ثابتة لأنها ترتكز على حقائق ثابتة .

وأمر العلاقة بين الجنسين هو أشد ما يجادل فيه المصابون بلوثة التطور فى الغرب والشرق ، وأشد ما يجادل فيه الأولاد والبنات الذين أعمتهم الشهوة المنفلتة من قيادها ، فلم تعد تبصر إلا متعة الجسد الفائر ، ولم تعد تطيق قيلاً يوضع فى طريق السعار المجنون .

ولكننا ونحن نناقش الأمور الجادة فى حياة البشرية لا ينبغى أن نغمض عيوننا عن الحقائق الثابتة « الصارمة » التى لاتلن لشهواتنا وأهوائنا ، ولا تدور معها حيث تدور . « إننا لم نستطع التمييز بين الممنوع والمستروع . لقد نقضنا قوانين الطبيعة فارتكبنا بذلك الخطيئة العظمى ، الخطيئة التى يعاقب مرتكبها دائماً . . . فالحياة لاتعطى إلا إجابة واحدة حينما تستأذن فى السماح بارتياح الأرض المحرمة . . . هى إضعاف السائل . ولهذا فإن الحضارة آخذة فى الانهيار ، [الكس كاريلى] .

لذلك لا ينبغي لنا ونحن نبحث هذا الموضوع الجاد ، أن ندور مع شهوات الأولاد والبنات ، أو نندفع وراء المصايين بلوثة التطور . . إنما ينبغي أن نبين لهؤلاء وهؤلاء حقائق الفطرة ، فيساعدتهم ذلك على مواجهه أزماتهم والتغلب عليها بإنشاء أوضاع تلائم الفطرة وتسير في اتجاهها . .

إن ثبات العلاقة بين الجنسين ، وعدم خضوعها «للتطور» أمر تمليه الفطرة التي لاحيلة لأحد فيها . والتي رأينا من شهادة القرن العشرين أنها لم تتطور في عشرين قرنا من الزمان ، ولم تعط إلا إجابة واحدة في كلتا المرتين ، وفي كل مرة استثذنت في ارتياد الأرض المحرمة !

لقد أعطت الفطرة إجابتها واضحة حاسمة جازمة في كل مرة انفلت فيها عقد « الضوابط » في علاقات الجنسين ، وانفلت فيها الأولاد والبنات وراء دفعة الجسد لا يطيقون صبرا ولا يخضعون لتنظيم .

أعطت الفطرة إجابتها في اليونان القديمة وروما القديمة وفارس القديمة . وأعطت إجابتها في العالم الإسلامي يوم انحل وركبته الشهوات . وأعطت إجابتها في فرنسا في الحرب العظمى الثانية . وتمطى إجابتها الآن على نطاق واسع في كل الأرض ، وفي أمريكا وروسيا على وجه التخصيص . .

إجابة واحدة لا تتغير : الانحلال الخلقي والإباحية الجنسية . . معناها الدمار . معناها الشقاء . معناها الضياع . لا إجابة غير هذه الإجابة في كل التاريخ !
وعبثا حاول القرن العشرون أن ينجو من قانون الفطرة الصارم . أو من عقوبة الفطرة التي تصيب مخالفها .

عبثا حاول أن يقول إنه خَلَقَ وحده لا شبيه له من قبل !

وعبثا حاول أن يقول إنه لا توجد « فطرة ثابتة » للإنسان !

وعبثا حاول أن يقول إن ما أصاب الأمم السالفة من الدمار مع النشاط الجنسي
« الحر » لن يصيبه !

وعبثا حاول أن يقول إنه سيمنع الدمار قبل حدوثه لأنه جيل واع فاهم عارف
دأرس متعلم !

وعبثا حاول أن يقول إن لديه علاجا لكل داء !
عبث . . كله !

إنها إجابة واحدة ثابتة تصدر عن الفطرة الثابتة . .
إما تنظيم علاقات الجنس بقيود من الدين والأخلاق والتقاليد . . وإما الانفلات
الحر . . والشقاء البشع والدمار الرهيب . .

تلك هي « الحتمية » الحقيقية . . لأنها حتمية الفطرة كما خلقها الله .
ما قيمة الجدل والإنكار ؟

ما قيمة دفن الرءوس في الرمال ؟

الشهوة لذيفة . نعم . والانفلات محبوب :

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من
الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . ذلك متاع الحياة الدنيا ... (١) »
ولكن العقوبة عنيفة ، هائلة . مخيفة . . .

الضغط العصبي والنفسي . الانتحار والجنون . الشذوذ والجريمة . . الدمار .
تلك شهادة القرن العشرين . .

من ذا الذي يملك عقلا في رأسه ، ثم يندفع وراء لوثة التطور ، أو وراء
شهوة الأولاد والبنات ، وهو يرى أمامه النتائج بالفعل ، مفدرة بأبشع نهاية
للبنشرية ؟ !

(١) سورة آل عمران [١٤]

بل من ذا الذى فى قابله ذرة حب لهؤلاء الأولاد والبنات ثم لايمسك بحجزهم
أن يتهاووا فى الهاوية ؟

إن علينا واجبا « إنسانيا » ضحيا ، نؤديه لأنفسنا . لإنسانيتنا . لأولادنا
وبناتنا ، أن نبصرهم بحقيقة موقفهم وحقيقة الفطرة لكي لا يذهبوا فى طريق الضياع .
وقد يكرهوننا — نعم — ونحن نبصرهم ! كما يكره الطفل الطبيب ويسبهه
ويلعنه وهو يحقنه بالدواء !

ولكن أى أحمق يلتقى الدواء من يده لأن الطفل يسبه ويلعنه ؟ أو يتركه
فى لوثة الحى لى يحبه ؟ !

كلا ! إن كنا جادين . . فامتنين حقائق الفطرة ، ونبينها للناس .

أو إن كنا لا نريد أن نتعب خواطرنا ، أو كنا نحن — كالأولاد والبنات
— نريد أن « نستمتع » . نريد أن « ننتهب لذة العيش » . نريد أن نلغ فى حمأة
الجنس . . فلنسكن صرحاء ! ولنقل إننا هكذا « مبسوطون » مرتاحون ملتذون
لا نريد أن نفیق من دخان الحشيش والأفيون . وليكن بعد ذلك ما يمكن أن يكون !!

* * *

حقائق الفطرة تقول إن هناك تجاوزا فطريا بين الجنسين . . لا بد أن يأخذ
سبيله إلى اللقاء . ففى أى صورة يكون هذا اللقاء ؟ على صورة التخصص ؟
أنثى معينة لكل رجل ، ورجل معين لكل امرأة ؟ أم على صورة المشاع :
كل أنثى لكل رجل وكل رجل لجميع النساء ؟

تجربة القرن العشرين تعطينا الإجابة الحاسمة عن هذا السؤال .

إن المجتمع الغربى — أو الشيوعى — لم يصل لصورة الفوضى الكاملة .
فما زال فيه أفراد فاضلون بل « متطهرون » . بل « متمتون » يحافظون على
التقاليد وينظرون بتقرز عنيف لتلك الفوضى الجنسية الضاربة بأطنابها هناك . . ومع

ذلك . . مع أن الفوضى لم تصل لصورتها الكاملة . . فإن بواذر الانهيار قد
بدت واضحة وصارت تنذر بانهيار المجتمع ، مع القلة القليلة الغاضلة المتبقية فيه . .
فكيف إذا زادت عن ذلك ، وهي مازال في طريقها إلى الزيادة ، لأن الشياطين
لم تشبع بعد ، ولم تزل تطلب المزيد من التدمير ؟ !

والجادلون يقولون : لا هذا ولاذاك . . لا التزمت ولا الإباحة . . شيء
وسط بين الطرفين المتطرفين !

لأنحرم كل علاقة بين الجنسين ، ولا نطلق لها العنان !
أكذوبة لطيفة مخدرة ! تريح الأعصاب من عناء التفكير والتدبير ،
وحمل الهم ، ووجع القلب !

نبيح للشبان والفتيات الاختلاط . . مع الرقابة !
الولد والبنت يشتركان في « النشاط الاجتماعي » . في الجامعة بلاشك . وفي
المدرسة الثانوية إذا أمكن . وفي الشارع . والنادي . وال . . .
تحت رقابتنا !

ماذا يمكن أن يصنع الأولاد والبنت وهم تحت رقابتنا ؟ !
ستتهذب مشاعرهم . ويذهب الجوع الجنسي الناشئ عن الحرمان من ناحية .
ويتعارف الجنسان من ناحية أخرى فلا يصير كل منهما مجهولا من الآخر
متهيئا له ، تملأ رأسه الخيالات المنحرفة عنه . .

و . . تحت رقابتنا ! ماذا يمكن أن يحدث تحت رقابتنا ؟ !
ولقد يحدث فعلا أن يميل ولد إلى بنت ، أو بنت إلى ولد . . أليس
كذلك ؟

شيء فطري . ماذا يمنع ؟ . . تحت رقابتنا !
ولقد يحدث فعلا أن يشتد الميل . . شيء فطري !
فلنكن واقعيين ! هل يمكن أن نمنع هذا الشيء الفطري ؟

فلنكن بعيدى النظر : هل الأفضل أن يتم اللقاء خلسة . . أم تحت رقابتنا؟!
ولقد يحدث فعلاً أن يطغى الميل ويشدد . .
« ياسيدى . . وماله . . بكرة يتزوجها » !
فلنكن بعيدى النظر : هل الأفضل أن يتزوج بنتا لا تعرفه أو يعرفها . .
أم بنتا تعرفه ويعرفها ؟
ضمة؟! قبلة؟ فى السينما أو فى الشارع . . فى الظلمة . . أو فى الخلوة ؟!
ياسيدى . . وماله . .
شيء من عبث جنسى ؟! لاضير البتة . . تجربة يأخذ منها خبرة . . والبنت؟
ستعرف صاحبها ! تأخذ موعظة تنفعها فى غفلتها ! هل أنت ستحرسها إن شاءت
أن تفسد؟ كلا ! فلتتركها !
ماذا يحدث حتى من غير رقابتنا ؟! !
تلك طريق الحرية فى القرن العشرين ! !
بدأت — والله ! — بهذا التفكير المخلص لا من جانب الشياطين الذين
أوحوا بلوثة التطور وأوحوا بالانفلات من القيود والانطلاق كالحیوان . . ولكن
فى أذهان المربين والآباء والأمهات ، وربما بعض « رجال الدين » المتطورين !
ثم . . كانت النتيجة التى يشكو منها المربون والآباء والأمهات والساسة
والعلماء . . . رجال الدين !
لا وسط لشهوات البشرية !
لا وسط يمكن الوقوف عنده بالإرادة الواعية أو النية المخلصة . .
إنما الوسط المتخيل الذى يراود الناس أحياناً ، فيودون — فى إخلاص —
أن يقفوا عنده ، هو مرحلة من مراحل « التطور ! » . مرحلة من مراحل
الانزلاق لا تكون قد أبعدت بعد فى الهبوط ! ولكنها مرحلة لا يمكن الوقوف
عندها أبداً . تلك حتمية الفطرة ! وتلك تجربة التاريخ !

لقد قال القرن التاسع عشر الذى بدأ تجربة الاختلاط هذه : سنقف عند المرحلة المأمونة . لن نوغل . لن نفقد أنفسنا . لن تبلعنا الهوة . . لكن لم يقدر أن يفعل ! بلعته الهوة أو كادت فى القرن العشرين !

والبطء الذى تتم فيه عملية الانهيار ، البطء الذى يجاوز أعمار الأفراد إلى أعمار الأجيال ، هو الذى يغرى الأفراد بأن يعتقدوا أن الوقفة ممكنة عند الحد الأوسط ! كلا ! وهم باطل ! لم يحدث فى التاريخ !

ليس « التطور » هو الذى يقول . ليس التفسير المادى هو الذى يقول . إنما تلك حقيقة الفطرة . وهى « الحتمية » المفردة الصادقة فى كل هذه الأباطيل . مادام قد انفلت القيد فلا وقفة !

والوقفة الظاهرية التى تستغرق جيلاً أو بضعة أجيال هى التى تخدع المخلصين فتخيل لهم أن الوقفة أمر ممكن ! إنها خدعة ! انظر إلى رقعة أكبر لى ترى حقيقة الخط الهابط ومدى الاندفاع ! إن عقرب الساعات فى الساعة بطيء الحركة فلو نظرت إليه لبضع دقائق فلن تراه يتحرك من مكانه ! ولكن انظر إليه بعد ساعة ! ثم بعد ساعات ! والساعة ذات التقويم بها خانة تبين اليوم من الشهر . بطيئة الحركة ! تتحرك مرة واحدة فى اليوم . لو نظرت إليها بضع ساعات فلن تراها تتحرك من مكانها ! ولكن انظر إليها بعد يوم كامل . ثم بعد أيام !

وانظر إلى التاريخ على نطاق واسع . انظر إلى الأجيال . فى الجيل الواحد قد لا تتغير الصورة كثيراً . وإن كانت فى هذا الجيل خاصة عنيفة التغير ، لأن الشياطين ينفخون فيها بمنف عنيف . ولكن انظر إلى رقعة واسعة لى ترى الصورة على حقيقتها . .

لا وسط لشهوات البشرية !

تلك حتمية الفطرة . . فى نهاية المطاف ! فطرة الفرد . . وفطرة الجماعات !

إن الشهوة لا تشبع بالإرواء الدائم ! بل تشتد ظمأً وتجن !
خذ أمريكا مثلاً . .

هل في المجتمع الأمريكي حواجز تمنع من إرواء الشهوة ؟ أى حواجز ؟ !
كلا ! لا شيء البتة !

ومع ذلك في هذا المجتمع ذاته ينتشر إلى حد « الشبق » عشق الصور العريانة !
وتنتشر حوادث الاغتصاب والخطف الجنسي . والقتل بعد إتمام الجريمة الخلقية !
وينتشر — أبشع من ذلك — الشذوذ الجنسي في الأولاد والبنات على
حد سواء !

وفرنسا وسويسرا وبالجيك . . نفس الصورة . . ودول الشمال « أرقى »
بلاد الأرض !

إجابة واحدة تعطىها الفطرة حينما تستأذن في ارتياد الأرض المحرمة ! إجابة
ثابتة في التاريخ !

* * *

هل معنى ذلك أن « نكبت » مشاعر الجنس ؟
أو ليست المضار الناشئة من الكبت والحرمان وبيلة هي الأخرى ؟
بلى ! وبيلة !

الحرمان الكامل طويل يفسد مشاعر النفس ويتلف الأعصاب !
والشذوذ الجنسي الذى يصاحب الحرمان الطويل معروف في التاريخ .
والخيلالات المريضة التى تشغل كل جنس بالجنس الآخر ، وتحمص تفكيره الظاهر
والباطن في مشاعر الجنس كل شيء معروف !

والحرمان الكامل الطويل مجاف للفطرة ولم يطلبه الله من البشرية !
إنما وضع نظاما « معتدلا » وسطا لا يكبت المشاعر ولا يطيل فترة الحرمان .

فالكبت بمعناه النفسى ، أى استقذار الدافع الجنسى ، أمر لوجوده فى مفهوم الإسلام ، الذى يضع علاقة الجنسنيين فى النور السكامل ، ويقول إنها فطرة . وإنها فطرة سوية . وإنها فطرة مصرح بها ومرغوب فيها ! « وإن فى بضع أحدكم لأجراً ! قالوا يارسول الله : ألأن أحدنا لياتى شهوته ثم يكون له عليها أجر ؟ ! قال : أرايت لو وضعها فى حرام أكان عليه فيها وزر ؟ قالوا : بلى ! قال : فإذا وضعها فى حلال كان له فيها أجر ! » (١)

وتطويل فترة الحرمان أمر يأباه الإسلام بكل وسائله ! فهو يدعو دعوة صريحة إلى التعجيل بالزواج . ويضع الترتيبات الاقتصادية التى تعين عليه ، بما فى ذلك إعانة بيت المال للشبان المتزوجين ! فالنظام الإسلامى نظام متوازن فى جملته تناسق فيه التصورات الاعتقادية والتوجيهات الخلقية مع التنظيمات السياسية والاقتصادية ، وتتكامل كلها وتتفاعل ، لإنشاء مجتمع كامل فاضل . ومن ثم فهو لا يكمل مسألة التبكير بالزواج لمجرد التوجيه ، ولكنه يكفل لها التحقيق بتيسير وسائل الحياة العملية فى نظامه المتكامل .

ولن نقف هنا طويلاً لنناقش إمكانية هذا الأمر فى تعقدات المجتمع الحالية ! فالبشر مطالبون أن يكتيفوا أوضاعهم على ضوء فطرتهم ، لأن يمسخوا فطرتهم على ضوء أوضاع يخضعون لها فى ذلة واستخذاء ! ثم . . إن التعقيدات الاقتصادية ليست هى السبب الحقيقى فى إطالة فترة التعطل الجنسى التى تغرى بالفساد ! فالشباب فى أمريكا يتكسب فى سن مبكرة جداً ، ثم ينفق كسبه فى المتعة الحرام ! لأن هذا هو التوجيه الذى تصبه فى أعصابه الشياطين ! ولا يعجز المجتمع الأمريكى الثرى عن تنظيم عملية الزواج للشباب لو أراد . . لو كفت عن تضليله الشياطين ! والمجتمع الشيوعى تعوله الدولة ! ولا تعجز الدولة عن تنظيم عملية

(١) رواء مسلم .

الزواج للشباب لو أرادت . . لو لم يكن في حساب القائلين عليها أن «الأخلاق»
خرافة ينبغي أن تباد ! ومع ذلك فقد سمعنا صيحة خرشوف المنذرة بالوبال !
أما نحن — المسلمين ! — فنحن لا هنا ولا هناك !^(١)

إنما يعنيننا على أى حال أن نتبين طريقة الإسلام في مسابقة الفطرة ، وتنظيم
حياة البشرية على أساسها . على الأقل . لكي نعرفها !

لا كبت . ولا حرمان . ولكن تنظيم .

تنظيم يشمل الفرد والمجتمع في ذات الوقت ، وبوسيلة واحدة مشتركة .
فالمجتمع النظيف المتوازن ، تقوم فيه الأسرة النظيفة المتوازنة ، التي تربي الفرد
النظيف المتوازن . والفرد النظيف المتوازن بدوره ينشئ الأسرة وينشئ المجتمع .
ومن ثم يعمد الإسلام إلى تنظيم ضمير الفرد ، بربط قلبه ومشاعره بالله ، وتربيته
على طاعته ، وجهه وخشيته ، وفي ذات الوقت يضع التنظيمات الاجتماعية
والاقتصادية والسياسية ، والتوجيهات الفكرية والروحية التي ترسي المجتمع على
قواعده السليمة ، التي تنشئ الأفراد المتوازنين .

وفي مسألة الجنس بصفة خاصة يكره الإسلام الاختلاط بلا سبب ، ويبيحه
في أضيق الحدود . ويمنع التبرج والفتنة ولا يبيحهما على الإطلاق ! ويكره خروج
المرأة بلا سبب ويبيح خروجها عند الاقتضاء نظيفة المشاعر نظيفة السلوك .

ويكره لها العمل الذي تشبه فيه بالرجل ، ومع ذلك يبيحه لإباحة كاملة في
حالة الضرورة . ويشجع على الزواج ويدسر وسائله ، ويدعو إلى التبكير فيه .
ويمنع إقامة علاقات جنسية خارج هذا النطاق .

(١) انظر فيما بعد فصل « نحن والغرب » !

تلك هي الخطوط السريعة لسياسة الإسلام في أمر الجنس وهي أمور سهلة
ميسرة متناسفة مع النظام الإسلامى حين يطبق في واقع الحياة ..
وكلها ترتكن إلى الفطرة ودوافعها و « حتمياتها » كما ترتكن إلى الحقائق
الثابتة في حياة البشرية .

* * *

التجاذب بين الجنسين — كما قلنا — فطرة ، حتمية الحدوث . ومادام
الجنسان ليسوا أفرادا معدودين ، ولكنهم رجال كثير ونساء ، فقد لزم تنظيم
التجاذب بينهما لكي لا يؤدي إلى الفوضى والاضطراب .
وإباحة الاختلاط بلا سبب ، وتبرج المرأة وانشغال بالها بالفتنة والإغراء
هما اللذان أفسدا الغرب وأنشأ تلك النذر التي شكها منها كنيدي وخروشوف ،
والفلاسفة والعلماء .

فالإسلام لذلك لا يبيح هذا ولا ذاك .

وليس الحجاب التقليدي هو المقصود . ولا الكبت ولا الحرمان .
لقد كانت المرأة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم تخرج وتعمل وتقاتل
وتعلم بنات جنسها . . كل ذلك بقدر الضرورة الواجبة لشخصها وللجماعة المسلمة .
نعم . وفي المجتمع المسلم تقوم بكل تلك الألوان من النشاط عند الاقتضاء .
في المجتمع المسلم . أى في المجتمع النظيف الذي يعبد الله ، ويطبق شريعته ، ويأتمر
بأوامره . أما في غير هذا المجتمع فليس لها — أولأى أحد — أن يحتج بالحقوق
أو الحريات التي أعطاها الإسلام للمرأة ! وهي — والمجتمع معها — لا يطبقان
في حياتهما هذا الإسلام .

إنه لم يقل لها — بداهة — أن تعيش وترضى بمجتمع غير مسلم ، لا يطبق

نظام الإسلام في حياته . فإذا هي قبلت أن تعيش في مثل هذا المجتمع -- غير منكرة عليه -- فما لها إذن وما للحقوق التي نظمها الإسلام للمجتمع الإسلامي ، رجاله ونسائه على السواء ؟ !

ولم يقل لها -- بداهة -- أن تخرج متبرجة شغلها الفتنة ! فإذا كانت اليوم -- بحكم العدوى الآتية من الغرب -- تصنع ذلك ، فهي وشأنها . . ولا شأن لها بالإسلام ! ولا تتمحك في الإسلام !

وما دامت تخرج -- في المجتمع المسلم -- لهذه الشئون ، فالعزلة الكاملة ليست قائمة بين الجنسين . ولكن لا تقوم العلاقات « الخاصة » بين الشبان والفتيات ، والرجال والنساء . لا يقوم نظام « الأخدان » الذي يسمى « الصداقة » في الغرب .

وهي تخرج محتشمة كشرط أساسي لقيام المجتمع المسلم . . تلك مسألة لا يمكن أن يتنازل عنها الإسلام !

ويقول دعاة الحرية ودعاة التطور ودعاة تطوير الإسلام (١) إن المسألة عادة ! فنحن حين نعتاد أن نرى المرأة الحاسرة عن شعرها وذراعيها وساقها . . لا يحدث شيء !! في مبدأ الأمر تحدث هزة . . هزة المفاجأة . ثم يصبح المنظر عادياً جداً . . لا يثير شيئاً على الإطلاق . بل يصبح -- عجيبة ! -- أقل إثارة من الفتاة المغطاة الشعر والذراعين والساقين !

وسنسلم معهم -- والله -- بكل يقولون . . ثم نظل عند رأينا . . رأى الإسلام !

إن الذين يقولون إن منظر المرأة الحاسرة لا يثير شيئاً في نفس الرجل حين يعتاد عليه . . أولئك ينظرون إلى الرقعة الصغيرة من التاريخ . . ولا ينظرون في تاريخ الأجيال ! ينظرون إلى عقرب الساعات بضع دقائق ويقولون إنه لا يتحرك من موضعه ولا يدل على شيء !

ولكن .. فلنحسب الحسبة من أولها .. لنصل منها إلى نهايتها !

لماذا حسرت أول بنت عن ساقها وذراعيها وشعرها ؟

في وقت من الأوقات كان المجتمع لا يبيع ذلك . عن إيمان . ويراعيه بدقة . ثم تنحل قليلا روابط المجتمع ، ويفتر الإيمان . . فتخرج « الحثالة » تحاول أن تنفث حين يخف عليها الضغط^(١) عندئذ تخرج أول فتاة حاضرة . ماذا تقصد ؟ تقصد بلا شك إثارة الفتنة بهذا الصنيع . وتحدث الفتنة بالفعل . وتحدث العدوى . فالمجتمع في سبيل الانحلال . وتحدث الهزة الأولى . « الطيبون » يستنكرون ، والخبيثون يمشون في الطريق على حذر في مبدأ الامر . ثم في استهتار حين تحف حدة الاستنكار ..

وتخف الهزة فعلا . يعتاد الناس على المنظر الجديد . يصبح عاديا حقا لا يثير شيئا في النفس . إنه جزء من « الروتين » اليومي يفقد دلالاته بعد حين ، لتبذل الحواش عليه . كما تبدل حتى على فعل السموم .
هذه حقيقة ..

ولكنها نصف الحقيقة . .

ونصفها الآخر هو الذي ينساه — أو يتناساه — دعاة الحرية ودعاة التطور . ودعاة تطوير الإسلام !

إن التي خرجت أول مرة تبغى الفتنة [ومثيلاتها بطبيعة الحال اللواتي تكاثرن بالعدوى] لم تعد لهن ميزة في المجتمع الجديد ، الذي قلدهن كله ، فأصبحن فيه عاديات .. لا يثرن الانتباه .

وهن لا يردن أن يكنَّ عاديات .. يردن أن يثرن الانتباه !

(١) راجع فصل « الثابت والمتطور في كيان الإنسان » ص ١٤٢ من هذا الكتاب .

فاذا كان القدر — البسيط — من العرى الذى تعرينه أصبح عاديا.. فلا بد إذن من المزيد.. بضعة سنتيمترات تعرى من أى مكان . من صدر الفستان.. من ظهره . من تحت الركبة ..

وتعود الصيحة .. والهزة .. وتعود فتفتت .. يصبح عاديا هذا القدر من « الفتنة » فلا يثير الفتنة ! يصبح من روتين اليوم المعتاد !
نعم .. ولكن لن تقف العجلة !
البت الأولى — ومثلها — لا بد ستزداد !

القصد هو الفتنة ! فاذا بطلت الفتنة بتعرية الصدر ، لأن كل الفتيات يعرين صدورهن ، والشبان اعتادوا المنظر وتبلدت حواسهم عليه ، فلا بد من شيء جديد يثير الفتنة ويزيد الإغراء .. تعرية جديدة . بدعة جديدة فى المشى.. خلاعة فى الضحكة .. تبذل فى الأخلاق .. أى إثارة .. القصد هو الفتنة !
والبركة فى « المودة » وبيوت الأزياء ! والسينما والتلفزيون ! تلتقط الخيط الهابط ، وتزيد هبوطا فى الحمأة !

لا تقف العجلة .. !

والطيبون المخدوعون . الذين يظنون أنهم يستطيعون وقف العجلة عند حد معين .. عليهم أن يفيقوا من غفلتهم ، ليروا أين : فى أى مكان فى الأرض ، وفى أى عصر فى التاريخ ، أمكن وقف العجلة عند الحد « المعقول » ! وما الحد المعقول ؟ ! وعليهم أن ينظروا فى المجتمع الحاضر من حولهم ليروا كيف ومتى يمكن وقف العجلة المندفعة فى طريق الفتنة والإغراء .. والتردى فى الفاحشة .. والتحلل من كل رباط .. ؟ !

كلا ! لا تقف العجلة .. تلك شهادة القرن العشرين ، فى كل الأرض ..
وهى كذلك شهادة التاريخ ..

إنها الحتمية الوحيدة الصادقة . لأنها حتمية الفطرة التي تقول إنه لا شبع
للشهوات إلا بالضبط وبالتقييد !

من أجل ذلك لا يبيح الإسلام الفتنة والإغراء . . ولا يبيح الفاحشة . . ويصر
على الحشمة في الزى وفي المشية وفي الحديث ، للرجل للمرأة سواء :

« قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم . ذلك أزكى لهم ،
إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن
ولا يبدین زینتهن إلا ما ظهر منها . وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدین
زینتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن ، أو أبناءهن ، أو أبناء بعولتهن ،
أو إخوانهن ، أو بنی إخوانهن ، أو بنی أخواتهن أو نساءهن ، أو ما ملكت
أيمنهن ، أو التابعین غیر أولى الإربة من الرجال ، أو الطفل الذین لم یظهروا
على عورات النساء . ولا یضربن بأرجلهن لیعلم ما یخفین من زینتهن . تو بوا إلى
الله جمیعاً ایها المؤمنون لعلکم تفلحون^(١) . » « فلا تخضعن بالقول فیطمع الذی
فی قلبه مرض^(٢) . » « ولا تبرجن تبرج الجاهلیة الأولى^(٣) »

هذا . . أو الدمار !

الدمار الرهیب الذی بدأ یهدد الغرب . . ویؤذن غدا بتدمير البشرية !

* * *

وتلك قضية نابتة لاتتمیر !

ثابتة لأنها لا تنبع من تغیر أسالیب الإنتاج ، ولا من التطور الاقتصادی
والاجتماعی والسیاسی ، ولا من التطور العلمی . . أو أى لون من ألوان التطور . .
وثابتة لأن كل « تطور » تقع فیهِ البشرية لا یحول دون نتائجها الحتمية !

(١) سورة النور [٣٠ — ٣١] (٢) سورة الأحزاب [٢٢]

(٣) سورة الأحزاب [٣٣]

إنها تنبع من الفطرة . من مكونات النفس البشرية . من قوة الجذب بين شقى الإنسانية . جذب إما أن ينظم . . وإما أن يفلت قياده بلا نظام . .
وكل دعوى التطور . . وكل النيات الحسنة التى تتعلق بأمل الوقوف عند « الحد المعقول » . . الوقوف قبل الهاوية . . الحيلولة دون الاندفاع الخطر . .
ال . . . كلها تقف مخذولة أمام شهادة القرن العشرين . . وشهادة التاريخ .
وليست الأمور بالتى . .

إن حقائق التاريخ وحقائق الفطرة أمور جادة لا تحتمل العبث . . ولا تحتمل التضليل ! وكذلك لا تحتمل المخالفة !

« سنة الله فى الذين خلوا من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا » (١)

« إننا لم نستطع التمييز بين الممنوع والمشروع . لقد نقضنا قوانين الطبيعة فارتكبنا بذلك الخطيئة العظمى ، الخطيئة التى يعاقب مرتكبها دائماً . .
فالحياة لا تعطى إلا إجابة واحدة حينما تستأذن فى السماح بارتداد الأرض المحرمة . .
هى إضعاف السائل . ولهذا فإن الحضارة آخذة فى الانهيار » [ألكس كاريل]

ينظم الإسلام اللقاء — الفطرى — بين الجنسين فى علاقة مشروعة هى الزواج . بعد تحريم العلاقات الأخرى كلها ، وتربية الفرد خلقيا ودينيا على النفور من الفاحشة والتقزز منها ، وتنظيف المجتمع من المثيرات غير العادية التى تجعل الفضيلة مستحيلة . فيمنع التبرج والرقاعة والخلاعة ولين الحديث وفنون الإغراء ، ويوجد مناس — من الجنسين — أهدافا جادة بدلا من تلك الأهداف التافهة المحصورة فى الإغراء من جانب ، والوقوع فى الإغراء من جانب آخر ، من أجل التساية والبهجة والمتاع الرخيص ! أهدافا جادة تشمل إقامة الجماعة الراشدة

(١) سورة الأحزاب [٢]

التي تنشد القيم العليا وتحاول تطبيقها في الأرض ، في عالم المادة وعالم الروح .
في التنظيمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية والروحية . . النظيفة
المتعالية . . ولسكل من الجنسين فيها نصيبه كما سيجي .

وحين ينتظم اللقاء الفطري في رباط الزواج المقدس تنشأ الأسرة .

والأسرة هي النظام الطبيعي الذي يلبي الفطرة . .

وقد أطلقها دركايم كلمة خبيثة لم يثبتها بدليل .. وإنما تركها تشكك الناس
في مقدساتهم وفي فطرتهم ، حين قال إن الأسرة ليست نظاما فطريا !!
وشهادة ألوف السنين وعشراتهما . . ليست في نظره ذات دلالة ولا تشهد
— في نظره — باتجاه الفطرة !

وما البديل ؟ ما البديل حين يصدر « العقل الجمعي » أمره — سبحانه ! —
بتحطيم الأسرة والعدول عنها ؟

البديل الوحيد هو الفوضى الجنسية . . ودمار المجتمع في آخر المطاف !

الأسرة هي التي تلبي كل دوافع الفطرة . دافع الجنس . والرغبة في النسل .
والرغبة في « الاستحواذ » . وفي « الامتداد » و « البروز » . وفي السكن
والاستقرار . .

وذلك فوق أنها ضرورة « فطرية » لتربية الأطفال ، لا تغني عنها الحاضن
ولا المدارس ولا التربية الجمعية التي تطبقها النظم الجمعية الحديثة . [راجع شهادة
ألكسس كاريل ص ١٥٩ من هذا الكتاب ، وشهادة أنسا فرويد في كتابها
« أطفال بلا أسر » حيث تتحدث عن الاختلالات النفسية والعصبية التي تنشأ
من وجود عدد كبير من الأطفال يشتركون في أم واحدة هي الحاضن المربية ،
ضد الفطرة التي تجعل الطفل في سنتيه الأوليين على الأقل في حاجة إلى أم كاملة
لا يشركه أحد فيها] .

وإذ كانت الأسرة ضرورة ثابتة للبشرية ، لاتفيتها تطورات الإنتاج ولا تطورات الاقتصاد [حتى وإن كانت تنحرف بها في عصر من العصور الفاسدة ، كما حدث في اليونان القديمة وفي الغرب الحديث] فهي في حاجة إلى نظام ثابت مثلها ينظم أركانها ويرسي قواعدها . وقد أعطاها الإسلام التشريع الثابت الذي يكفل استقرارها وتمسكها .

أعطاها تشريعات الخطبة والزواج والطلاق والحضانة والإنفاق . والصلح والخصام . والنشوز من أحد الزوجين . كما حدد حقوق الزوج وحقوق الزوجة وحقوق الأطفال المادية والمعنوية . وحدد « آداب » الأسرة ، وآداب المجتمع كله تجاه الأسرة وعلاقات الزواج . .

وأعطى ذلك كله صفة الثبات . . لأنها أمور مرتكئة مباشرة على الفطرة . على الجانب الثابت من الكيان البشري . على وجود الرجل من طرف ، والمرأة من طرف ، والتجاذب الدائم بينهما الذي لا بد أن يفضى إلى اللقاء .

و « التطوريون » يقولون إن نظم الأسرة لا يجوز أن تكون ثابتة . لأنها تتأثر بالتطورات العلمية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية . .

المرأة اليوم قد استقلت اقتصاديا . وصارت تعمل . وصارت الأدوات العلمية الحديثة تيسر لها شئون المنزل ، فلم تعد تشغل بالها ولا وقتها كما كانت من قبل ، ونشأ عندها « فراغ » لا بد أن تقضيه في « المجتمع » بصورة من الصور ، وطاقة لا بد أن توجهها للنشاط « الاجتماعي » . كما أن الاستقلال الاقتصادي لم يجعل للرجل ذلك السلطان الذي أعطاه له الإسلام [الذي نشأ في مجتمع — لانسي ! — متأخر ! بدوي رعوى !] . . الخ . . الخ .

وقد ناقشت تلك الدعاوى في كتب سابقة . ولكن لا بأس هنا بالمزيد !
إن الاستقلال الاقتصادي الذي تفرح به المرأة الغربية الحديثة ، والذي

كلفتها الحصول عليه أن تخرج من دينها وأخلاقها وتقاليدها ، كان قضية مسلمة في النظام الإسلامي لاحتاج إلى جهاد . . . لا يترتب عليها إفساد الأسرة ! وإن « العمل » الذي اضطرت إليه المرأة الغربية اضطراباً اقتصادياً ، واضطرت فيه كذلك إلى التنازل عن أخلاقها لتأكل . . . حق إعطاء الإسلام المرأة .. ولكن دون أن يضطرها إلى التبدل ، ودون أن يقبل منها — أو من الرجل — ذلك التبدل .

ولكن الإسلام لم يقيم علاقات الأسرة على استقلال المرأة الاقتصادي أو عدم استقلالها . ولا على خروجها للعمل أو عدم خروجها . إنما أقامها على أسس الفطرة . والفطرة ثابتة لا تتغير . .

إن الإسلام — رغم إعطاء المرأة الاستقلال الاقتصادي الكامل ، ورغم تقرير حقها — عند التطبيق الواقعي — في أن تعمل وتخرج إلى « المجتمع » للضرورة . . أقام الأسرة على أساس أنها « أنثى » لا رجل ! أنثى تقوم بالمهمة الفطرية للأنثى ، وتسكف نفسياً وعصبياً بهذه المهمة ، وتتخصص لها ، وتطلق فيها طاقتها الحيوية وتبذل فيها نشاطها . ثم ترعاها . ترعى نتائجها الطبيعي ، وتمنعها الجو العاطفي الذي يمسكها ويحافظ على روابطها . وكفل لها مقابل ذلك أن يعولها الرجل — لا ليسلبها حق الاستقلال الاقتصادي [فهو مكفول] ولا ليسلبها حق العمل [فهو مكفول كذلك عند الضرورة . ضرورتها هي الفردية أو حاجة المجتمع إليها] — ولكن لكي لا تشغل بالها وأعصابها بإعالة نفسها وهي متزوجة وفي كنف رجل ، حتى تتوفر لها شحنتها الكافية من أجل مهمتها المقدسة : مهمة الإنتاج البشري ورعايته . بينما ينصرف الرجل للإنتاج المادي ورعايته ، متخصصاً له ، مطلقاً شحنته العصبية فيه .

والغرب الحديث — بحكم ظروفه أو بحكم انحرافاته — قد أبى الاستماع لنداء الفطرة ، وتنظيمها الطبيعي ، وزعم أنه « سيطور » علاقات الأسرة ، ويطور

وضع المرأة ، بل يطور كيان المرأة ذاتها من الداخل لتصبح مخلوقاً جديداً متطوراً
غير ما أرادته لها عصور الظلام ! مخلوقاً « مساوياً » للرجل في كل شيء . كل
شيء على الإطلاق !

فماذا كانت النتيجة ؟

لنسمع هنا شهادة « العلم » . . . وهي جزء من شهادة القرن العشرين !

يقول ألكسس كاريل في كتاب « الإنسان ، ذلك المجهول »

« إن الاختلافات الموجودة بين الرجل والمرأة لاتأتى من الشكل الخاص

للأعضاء التناسلية ، ومن وجود الرحم والحمل ، أو من طريقة التعليم . إذا أنها

ذات طبيعة أكثر أهمية من ذلك .. إنها تنشأ من تكون الأنسجة ذاتها ، ومن

تلقيح الجسم كله بمواد كباوية محددة يفرزها المبيض . . ولقد أدى الجهل بهذه

الحقائق الجوهرية بالدافعين عن الأنوثة ، إلى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقى

الجنسان تعليماً واحداً ، وأن يمنحاً سلطات واحدة ومسؤوليات متشابهة . .

والحقيقة أن المرأة تختلف اختلافاً كبيراً عن الرجل . فكل خلية من خلايا

جسمها تحمل طابع جنسها . والأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها . وفوق كل

شيء بالنسبة لجهازها العصبي . فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة للين ، شأنها

شأن قوانين العالم الكوكبي فليس في الإمكان إحلال الرغبات الإنسانية محلها .

ومن ثم فنحن مضطرون إلى قبولها كما هي . فعلى النساء أن ينمن أهليتهن ،

تبعاً لطبيعتهن ، دون أن يحاولن تقليد الذكور . فإن دورهن في تقدم الحضارة

أسى من دور الرجال . فيجب عليهن ألا يتخلين عن وظائفهن المحددة »

[ص ١١٤]

« ... وعلى أى حال يبدو أن النساء — من بين الثدييات — هن فقط اللاتي يصلن إلى نموهن الكامل بعد حمل أو اثنتين . كما أن النساء اللاتي لم يلدن لسن متزنات توازنا كاملا كالوالدات . فضلا عن أنهن يصبحن أكثر عصبية منهن . صفوة القول أن وجود الجنين ، الذى يختلف أنسجته اختلافا كبيرا عن أنسجة الأم ، بسبب صغرها ، ولأنها — جزئيا — من أنسجة زوجها ، يحدث أثرا كبيرا فى المرأة . إن أهمية وظيفة الحمل والوضع بالنسبة للأم لم تفهم حتى الآن بدرجة كافية . مع أن هذه الوظيفة لازمة لاكتمال نمو المرأة . ومن ثم فمن سخف الرأى أن نجعل المرأة تتنكر للأمومة . ولذا يجب ألا تلقن الفتاة التدريب العقلى والمادى ولا أن تبث فى نفسها المطامع التى يتلقاها الفتيان وتبث فيهم .. يجب أن يبدل المربون اهتماما شديدا لاختصاص العضوية والعقلية فى الذكر والأنثى . كذا لوظائفهما الطبيعية . فهناك اختلافات لاتنقض بين الجنسين ، ولذلك فلامناس من أن نحسب حساب هذه الاختلافات فى إنشاء عالم متمدين » . [ص ١١٦—١١٧]

« أليس من العجيب أن برامج تعليم البنات لاتشتمل بصفة عامة على أية دراسة مستفيضة للصغار والأطفال ، وصفاتهم الفسيولوجية والعقلية؟ يجب أن تعاد للمرأة وظيفتها الطبيعية التى لاتشتمل على الحمل فقط ، بل أيضا على رعاية صغارها » . [ص ٣٦٨]

تلك شهادة عالم طبيب ، لا يستمد « رجعيته » من المفاهيم الدينية ، ولكن من حقائق العلم العملية !

وهذه شهادة طبيبة نسوية التقت بها الدكتورة بنت الشاطىء فى النساء ، ونشرت حديثها عنها فى جريدة الأهرام بعنوان « جنس ثالث فى طريقه إلى الظهور » :

« . . شامت الظروف أن أذهب فى عطلة الأحد ، لزيارة صديقة لى طبيبة بإحدى ضواحي « فينا » — بعد أسبوع مرهق قضيناه بين أوراق البردى

العربية في دار الكتب -- وكنت أحسب أن يوم الأحد هو أنسب وقت لمثل تلك الزيارة . فما كان أشد عجبى حين فتحت لى صديقتى باب بيتها معجلة ، وفي يدها « بطاطس » تقشره . ثم قادتنى فى لطف إلى مطبخها لئأخذ مجاسنا هناك .

« ولم يغب عنها ما شعرت به من دهشة فابتدرتنى قائلة :

« ما كنت تتوقعين هذا المنظر : طيبة فى المطبخ ، يوم الأحد !

« قلت ضاحكة : أما العمل يوم الأحد فرمما فهمته . وأما اشتغالك بالمطبخ مع ما أعرفه من إرهاق مهنتك ، فهذا ما لم أنتظره .

« فردت : لو عكست لكنت أقرب إلى الصواب . فالعمل فى عطلة الأحد هو المستغرب عندنا . لولا أنه فرصتى الوحيدة لسكى أقف هنا حيث ترين . وأما اشتغالى فى المطبخ ، فعلى لم أتجاوز به نطاق مهنتى . إذ هو من نوع العلاج لحالة قلق أعانيها وتعاها معى سيدات أخريات من المشتغلات بالأعمال العامة .

« ولما سألتها عن سر هذا القلق — مع استقرار الوضع الاجتماعى للمرأة الغربية — أجابت بأن ذلك القلق لا صلة له بمتاعب الانتقال المفروضة على جيل الطليعة من نساء الشرق ! وإنما هو صدى شعور يبدأ تطور جديد يتوقع حدوثه علماء الاجتماع والفسيمولوجيا والبيولوجيا فى المرأة العاملة ، وذلك لما لاحظوا من تغير بطيء فى كيانها ، لم يثر الانتباه أول الأمر ، لولا ما سجلته الإحصاءات من اطراد النقص فى المواليد بين العاملات . وكان المظنون أن هذا النقص اختياري محض ، وذلك لحرص المرأة العاملة على التخفف من أعباء الحمل والوضع والإرضاع ، تحت ضغط الحاجة والاستقرار فى العمل . ولكن ظهر من استقراء الإحصاءات أن نقص المواليد للزوجات العاملات ، لم يكن أكثره عن اختيار ، بل عن عقم استعصى علاجه . وبفحص نماذج شتى متنوعة من حالات العقم اتضح أنه فى الغالب لا يرجع إلى عيب عضوى ظاهر ، مما دعا العلماء إلى افتراض

تغير طارىء على كيان الأنثى العاملة نتيجة لانصرافها المادى والذهنى والعصبى — عن قصد أو غير قصد — عن مشاغل الأمومة ، ودنيا حواء ، وتشبها بمساواة الرجل ، ومشاركته فى ميدان عمله .

« واستند علماء الأحياء فى هذا الفرض — نظريا — إلى قانون طبيعى معروف ، وهو أن « الوظيفة تخلق العضو » ومعناها فيما نحن فيه أن وظيفة الأمومة هى التى خلقت فى حواء خصائص مميزة للأنوثة ، لا بد أن تضمر تدريجيا بانصراف المرأة عن وظيفة الأمومة واندماجها فيما نسميه « عالم الرجل » .

« ثم تابع العلماء هذا الفرض ، فإذا التجارب تؤيده إلى أبعد مما كان منتظراً ، وإذا بهم يعانون — فى اطمئنان مقرون بشئ من التحفظ — عن قرب ظهور « جنس ثالث » تضمر فيه خصائص الأنوثة التى رسختها الممارسة الطويلة لوظيفة حواء .

« واثارت اعتراضات .. منها : أن كثرة العاملات ينفرن من العقم ويشتهين الولد . ومنها : أن المجتمع الحديث يعترف بالعاملة الأم ويحمى حقها فى العمل ، ويتيح لها بحكم القانون ، فرصة الجمع بين شواغل الأمومة وواجبات العمل . ومنها : أن عهد المرأة بالخروج من دنياها الخاصة لا يتعدى بضعة أجيال ، على حين يبلغ عمر خصائص الأنوثة فيها مالا يحصى من دهور وأحقاب .

« وكان الرد على هذه الاعتراضات : أن اشتهااء الزوجة العاملة للولد يخالطه دائماً الخوف من أعبائه ، والإشفاق من أثر هذه الأعباء على طمأنينة مكانها فى محل العمل . ثم إن الاعتراف بالعاملة الأم قلما يتم إلا فى حدود ضيقة ، تحت ضغط القانون . وما أكثر ما يجد أصحاب العمل فرصتهم لتفضيل غير الأمهات . وأما قصر عهد المرأة بالخروج ، فيرد عليه بأن هذا الخروج — على قرب العهد به — قد صحبه تنبه حاد إلى المساواة بالرجل ، وإصرار عنيد على التشبه به ، مما

عجل بيوادر التغيير ، لعمق تأثير فكرة المساواة على أعصاب المرأة ، وقوة رسوخها في ضميرها .

« وما يزال المهتمون بهذا الموضوع يرصدون التغيرات الطارئة على كيان الأنثى ، ويستقرئون في اهتمام بالغ دلالات الأرقام الإحصائية لحالات العقم بين العاملات ، والعجز عن الإرضاع لنضوب اللبن ، وضمور الأعضاء المخصصة لوظيفة الأمومة » .

* * *

تلك شهادة « العلم » . . أو شهادة « الفطرة » !

إنها تقول شيئاً واضحاً محدداً . . إن المرأة ينبغي أن تكون « أنثى » . وينبغي أن تتفرغ لوظيفتها الطبيعية الأولى . . الهامة . الخطيرة . المقدسة . ولا تفتن عنها بأية وظيفة أخرى قد تستطيعها ، وقد تتقنها ، وقد تبذل فيها الرجال . . الخ ، ولكنها ليست وظيفتها ! وليس من صالحها هي - كامرأة - أن تستبدل بها وظيفتها ! كما أنه ليس من مصلحة النوع البشري أن تختل وظائف الجنسين فيه ، أو أن يختل كذلك تركيبهما العضوي ، فوق اختلال تركيبهما النفسي والعصبي !

وتنظيم الإسلام للأسرة قائم على تلك « الفطرة » . . الثابتة التي لا تتبدل إلا بالانحراف . وتلك نتائج الانحراف كما يرويها « العلم » الحامد ، الذي تشترك فيه الطبيعة مع الطبيب !

ولكن المهم أن الإسلام - وهو يجارى الفطرة في تخصيص المرأة لوظيفتها - لم يجعل ذلك - بأي شكل من الأشكال - وسيلة لاستلاب إنسانية المرأة أو تحويرها أو إهانتها . . الإسلام ! نحن نتكلم عن مجتمع يتعامل بالإسلام لا عن أي مجتمع منحرف يسيء فهم الإسلام ، أو يسيء استخدام السلطة التي

منحها للرجل في بعض المواضع ، أو لا يحترم روحه ونصوصه التي تقول :
« وعاشروهن بالمعروف » ^(١) وتقول : « بعضكم من بعض » ^(٢) . وتقول « خيركم
خيركم لأهله [أى لزوجته] وأنا خيركم لأهلى » ^(٣) .

ثم إن الإسلام ، وهو يخصص المرأة للأسرة .. لرعاية الإنتاج البشرى ..
لا يضعها هناك لأنه يهمل كيانها أو لا يحسب حسابها في تنظيم الحياة البشرية
وتنظيم « المجتمع » ! كلا ! إنه يعهد إليها بصيانة قدس من أقداس الإسلام
والمجتمع الإسلامى . فالأسرة في نظر الإسلام — وكذلك هى في الواقع — هى
الحضن الذى يتربى فيه الطفل ، ويتشرب أخلاق الإسلام وعقائده وشرائعه .
وهذه المهمة الضخمة الخطيرة الهائلة ، التى تترتب عليها كل صورة المجتمع المقبلة
— أى أخطر ما يسعى الإسلام إلى إقامته — موكولة للمرأة ، المتخصصة لها ،
المكفولة الراحة فيها ، ولذلك لا يشغل أعصابها بالمهام الأخرى ، التى يستطيع
الرجل أن يقوم بها ولا يستطيع أن يقوم بسواها ! ولا يشغل أعصابها بإعالة
نفسها وهى تقوم بهذه المهمة الخطيرة المقدسة .. ثم لا يفسد أعصابها وكيانها
بتوجيهها إلى مصارعة الرجل في المجتمع — أو حتى مصاحبتها — بالصورة التى
تحولها — كما تقول الطيبية المخلصة لبنات جنسها — إلى جنس ثالث معذب
شقى في طريقه إلى تدمير خصائصه الذاتية !

أما الفراغ المزعوم ، الذى تسعى المرأة الغربية الحديثة إلى ملئه بالعمل تارة ،
وبالنشاط « الاجتماعى » تارة . . والفساد في المنتديات وأما كن اللهو
و « الاحتفالات » تارة أخرى . . فهو فراغ مفتعل . نشأ أولاً من إقامة نظم
اقتصادية واجتماعية فاسدة ، وتوجيهات نفسية وخلقية فاسدة . تتجه كلها إلى

(٢) سورة آل عمران [١٩٥]

(١) سورة النساء [١٩]

(٣) رواه الترمذى .

تأخير الزواج وتأخير إنجاب الأطفال . ثم تقليل عدد الأطفال .. فينشأ الفراغ ..
 المنافى للفطرة . ونشأ ثانياً من الظن الخاطيء بأن أى أحد غير الأم يستطيع أن
 يقوم بالتربية ويعنى الأم منها .. فينشأ الفراغ .. المنافى للفطرة !
 إن التريية « بالجملة » فى الحاضن وما أشبهها تخرج أجيالا شاذة منحرفة ناقصة
 الآدمية .. ثم إنها تشغل فتيات بدور الأمومة الصناعية وهن محرومات من الأمومة
 الحقة ! ثم تقوم بحركة بهلوانية مجنونة غير عاقلة الهدف : تعمل المرأة لتكسب
 لتستطيع الإنفاق على الحاضنة التى تربي لها طفلها فى أثناء العمل !! وفى الطريق:
 يحرم الطفل من أمه الحقيقية ، وتحرم الحاضنة من الأمومة !!
 مجموعة مجيبة من الاختلالات .. لا تحدث إلا فى قمة « الحضارة ! » التى
 يمارسها الغرب فى القرن العشرين !!
 والإسلام — كلمة الله إلى الأرض — حاشا أن يقع فى هذه الاختلالات ،
 لإرضاء مشاعر مجنونة عند مجانين !

* * *

ننتقل الآن إلى القضية الرابعة :
 « خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء . »
 إنها قضية المجتمع المكون من رجال ونساء ، مشتقين فى الأصل من
 النفس الواحدة التى خلقها الله .
 وقد أخذنا جزءا من هذه القضية فيما سبق حين تعرضنا لعلاقة الجنسين فى
 داخل المجتمع . فالآن نكمل الحديث عنها فيما سوى علاقة الجنس .
 إن تكون المجتمع من الأفراد : من الرجال والنساء ، قضية ثابتة لأنها
 تستند إلى حقيقة ثابتة لا تغيرها تطورات العلم ولا تطورات التاريخ .
 وقد استلزم وجودها وجود علاقات معينة ثابتة بين الفرد وبقية الأفراد .
 أى بين الفرد والمجتمع .

ونبدأ بمناقشة تلك الأسطورة التي زعمها دركايم .. أسطورة «العقل الجمعي» الذي يحكم الأفراد بغير مقتضى فطرتهم ، ويفرض عليهم ما لا يرغبون فيه بطريقة القهر الاجتماعي الذي لا يملك الفرد رده ولا التصرف فيه . إنها أسطورة عجيبة إن لم نقل كذلك خبيثة فقد انتهى منها كما رأينا إلى أن الأسرة ليست فطرة [أى أن البديل — وهو الفوضى الجنسية — ممكن الحدوث بصورة طبيعية إذا أراد ذلك العقل الجمعي !] والدين ليس فطرة [أى أن البديل — وهو التحلل الديني — ممكن الحدوث بصورة طبيعية إذا أراد العقل الجمعي] وأن الجريمة ليست ظاهرة اجتماعية معتلة ! وإنما هي ظاهرة اجتماعية طبيعية ومفيدة للمجتمع ! [كتاب قواعد المنهج في علم الاجتماع (ص ١١٨ من الترجمة العربية) : « ومن ثم تكاد تكون الجريمة الظاهرة الوحيدة التي تنطوى بصفة لا تقبل الشك على جميع أعراض الظاهرة السليمة » ص ١١٩ « ولكن معنى ذلك أيضا أننا نؤكد من جهة أخرى أن الجريمة عامل لا بد منه لسلامة المجتمع . وأنها جزء لا يتجزأ من كل مجتمع سليم » !]

إن هذه الأسطورة كلها تقوم على شيء واحد : أن الإنسان الفرد يقوم في أثناء وجوده في « الجماعة » بأعمال قد لا يرضى عنها أو يرغب فيها . بل قد يستنكرها إذا خلا لنفسه فيما بعد !

وهذه — ولا شك — حقيقة ! ولكن ما دلائلها ؟ !

إن هؤلاء السادة « العلماء » الكبار يغفلون عن حقيقة « فطرية » كبيرة ، هي ازدواج الطبيعة الإنسانية^(١) ويفسرون الإنسان دائماً بأحد جانبيه دون الآخر ، ومن ثم يتمحلون الأسباب للوجه الآخر — الموحود دائماً — فيفسرونه بتفسير

(١) انظر فصل « طبيعة مزدوجة » في كتاب الدراسات .

آخر « حارج » كيان الإنسان ! فتارة يكون المادة . وتارة يكون المجتمع .
وتارة يكون ... !

إن من الخطوط المتقابلة في النفس البشرية : الفردية والجماعية . والسلبية
والإيجابية . كلاهما موجود وجوداً فطرياً في الإنسان . كلاهما أصيل . ليس أحدهما
مفروضاً على الإنسان من خارج كيانه . وكلاهما يؤثر فيه . وهو قابل للتأثر من
كلا طرفيه بصورة فطرية ، لا من طرف واحد فحسب .

والذى يجعل الإنسان في المجتمع يقوم بأعمال لا يرضى عنها كفرد ، بل
بستنكرها حين يخلو إلى نفسه ، ليس هو « القهر الاجتماعى » في كل حالة ، وإنما
هو في كثير من الحالات « المشاركة الوجدانية » ! أى الرغبة — الفطرية —
في مشاركة الآخرين ولو على حساب الكيان الفردى ، لفتره من الوقت وليس
كل الوقت !

والذى يهدم دعوى دركايم ، أن القهر الاجتماعى — وهو حقيقة في كثير من
الحالات — لا يستطيع مهما أوتى من قوة وضغط أن يلغى فطرة الفرد . فطرة
الإنسان . وإن كبتها إلى حين . فكل الضغط الذى ما رسته الشيوعية لم يستطع
إلغاء النزعة الفردية للتملك ! فاضطرت الشيوعية إلى التراجع ! كما أن « الثورات »
هى التعبير الدائم عن رفض الخضوع للقهر . ومع أن الثورة ذاتها ظاهرة « جماعية »
إلا أنها ولا شك تتجمع من نفوس الأفراد . بل قد تبدأ بفرد واحد تار ، يجمع
حوله الآخرين . يجمعهم من داخل فطرتهم . من عدم رضاهم عن القهر .

فالجماعية التى تغلف أحياناً على الفرد . والسلبية التى تسكت أحياناً على القهر ،
كلاهما نزعة فطرية . ومن ثم تصبح كل الظواهر الاجتماعية في النهاية فطرية .
سواء كانت سليمة أو معتلة . فالفطرة عرضة للانحراف وعرضة للاعتدال . ومن

اعتدالاتها وانحرافاتهما تنشأ اعتدالات الفرد وانحرافاتهما ، واعتدالات المجتمع كذلك وانحرافاتهما .

* * *

« المجتمع » جزء من الفطرة . الفطرة الثابتة . والعلاقة بين الفرد والمجتمع كذلك ثابتة في عمومها . وكونها تقلبت في شتى العصور ذات اليمين وذات الشمال ، فأخذت صورة فردية حادة أو جماعية حادة ، لا يعني أنه ليس لها مقياس من الفطرة ولا أنه مقياس غير ثابت . وإنما يعني فقط أنها — ككل شيء في الفطرة البشرية — قابلة للانحراف كقابليتها للاعتدال .

والقانون الثابت الذي ينبغي أن يحكم علاقة الفرد بالمجتمع ، هو أنها ناشئان معا من النفس الواحدة . فليس أحدهما « أقدس » من الآخر ، وليس لأحدهما حرمان أكثر من الآخر !

وعلى هذا الأساس تصان حرمان الجميع وحقوق الجميع . ومن ذلك نشأت — في الإسلام — نظرية الحدود أى العقوبات المحددة من الله . ونشأ كذلك ثبات هذه الحدود .

إن العقوبة في طبيعتها ، وفي ثباتها ، تخضع لهذه الحقيقة الثابتة : وهى أن الرجال الكثيرين والنساء [المكوّنين للمجتمع] منبثون من ذات النفس الواحدة . ومن ثم فحقوقهم « الإنسانية » جميعا واحدة وحرمانهم واحدة . حرمة الدم ، وحرمة العرض ، وحرمة المال ، حرمان متساوية . وثابتة . لا تغيرها التطورات .

وعقوبات العدوان على حرمان الدم والعرض والمال كذلك عقوبات ثابتة لا تغيرها التطورات .

ومن ثم جاءت في الإسلام عقوبات القتل [وما دونه من جراح] والزنا

والسرقة . والإفساد في الأرض الذي يشمل الجرائم السابقة جميعا ويزيد عليها فتنه الناس في أمنهم أو عقيدتهم .

أما عقوبة الردة فهي مرتبطة بالمقيدة في الله . وهي عنصر كذلك دائم وثابت في حياة البشرية .

وقد تحدث كثيرون عن « التطور » في النظر إلى العقوبة ، وتحذلق كثيرون وهم يشيرون إلى أبحاث علم النفس الحديث — والتحليلي خاصة — في طبيعة الجريمة ، وأبحاث علم الاجتماع ، وعلوم كثيرة أخرى تبحث في هذا الميدان . . . تحدثوا كثيرا وتحذلقوا كثيرا . . . وقالوا عن العقوبات الإسلامية جهالات كثيرة !

قسوة . رجعية . تأخر . عدم احترام إنسانية الفرد . النظرة الانتقامية لا النظرة العلاجية . . . الخ . . . الخ .

وفي كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » فصل كامل عن الجريمة والعقاب . وفي كتاب « قبسات من الرسول » فصل آخر بعنوان « ادرءوا الحدود بالشبهات » . ولا أملك هنا إلا تلخيص الفكرة في سطور .

إن كل « التطور » « والتقدم » « والتحضر » لم يستطع أن يضيف جديداً لفكرة الإسلام ! بل لم يصل بعد إلى عدالة الإسلام ، ونظرة التربوية والتوجيهية . إن الإسلام لا يبدأ بالعقوبة !

ولكن يبدأ بوقاية المجتمع من أسباب الجريمة !
ثم بعد ذلك — بعد أن يهيئ الوقاية المطلوبة . بعد أن لا يعود هناك دافع معقول للجريمة — يأخذ في تطبيق العقوبة !

ومع ذلك — فاحتياطاً من عدم التأكد من استحقاق المتهم للعقوبة استحقاقاً كاملاً — يقول : ادرءوا الحدود بالشبهات ، أى : يفسر الشك في صالح المتهم !

ويقول : « لأن يخطئ الإمام بالعفو خير من أن يخطئ بالعقوبة (١) » !
 فآية عدالة . . ! وماذا أضاف التطور والتقدم والتحضر إلى تلك القيم
 العالية . بل ماذا يمكن أن يضيف ؟ ! بل ماذا بلغ ، وماذا يمكن أن يبلغ ؟ !
 « روى أن غلمانا لابن حاطب ابن أبي بلتعة سرقوا ناقة لرجل من مزينة ،
 فأتى بهم عمر ، فأقروا ، فأمر كثير بن الصلت بقطع أيديهم ، فلما ولى رده .
 ثم قال : أما والله لولا أنى أعلم أنكم تستعملونهم وتجميعونهم حتى إن أحدهم
 لو أكل ما حرم الله عليه لخل له ، لقطعت أيديهم . ثم وجه القول لابن حاطب
 ابن أبي بلتعة فقال : وأمين الله إذ لم أفعل ذلك لأغرمك غرامة توجعك ! ثم
 قال : يامزنى بكم أريدت منك ناقتك ؟ قال : بأربعمائة . قال عمر لابن حاطب :
 اذهب فأعطه ثمانمائة ! »

ذلك هو الإسلام ! إنه لم يوقع العقوبة على السارق — حين رأى أن
 « المجتمع » هو الذى يدفعه إلى السرقة — بل وقع العقوبة فى الواقع على هذا
 المجتمع الظالم ممثلا فى صاحب رأس المال ! وذلك قبل التشديق بالبحوث النفسية
 والبحوث الاجتماعية والاقتصادية بأكثر من ألف عام !

وعقوبات الإسلام كلها منظور فيها هذه النظرة . وفاية المجتمع أولا من
 أسباب الجريمة . بالتشريع والتوجيه معا . ثم النظر فى كل حالة مفردة للتأكد
 من دوافع الجريمة فيها . ودرء العقوبة بالشبهة .

والمهم هنا أن تثبت أن هذه الحدود ثابتة ، لأنها ترتكز على عوامل ثابتة .
 مع مافيهام من « المرونة » الإسلامية التى تجعلها تنسج لجميع الحالات ، وتردها
 إلى مقياس العدالة الثابت فى جميع الأحوال .

(١) حديث ذكره صاحب مصابيح السنة فى الصحاح .

وقد مررنا من قبل في الحديث عن القضية الثانية : قضية وحدة البشرية وأخوتها ، كلام يدخل في قضية الفرد والمجتمع ، فيحسن أن نذكر به في ظل القضيتين المتداخلتين في حقيقة الأمر :

إن علاقة المجتمعات - الناشئة من نفس واحدة - ليست علاقة الخصام والحرب :

« وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا »^(١) فالهدف الأخير هو التعارف . هو السلم الذي يدخل فيه الناس كافة . التعارف بكل الوسائل التي تؤدي إليه . والحرمات تصان لجميع الناس لا لطائفة دون طائفة ولا لفرد دون فرد .

« من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً . . ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً »^(٢) [وهو كذلك مكتوب على المسلمين]

و ضمانات التحقيق و ضمانات العدالة في القضاء تشمل كل أبناء النفس الواحدة أيما كان دينهم أو شعبهم أو قبيلتهم . وأيما كانت العلاقة بينهم وبين المسلمين . علاقة حرب أو سلام . وقد مرت بنا الآيات التي نزلت لنصفه الرجل اليهودي . والتوجيه العام : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى »^(٣)

* * *

تلك هي الأمور الثابتة في تشريعات الإسلام وتوجيهاته ، وتنظيماته للحياة البشرية .

وهي ثابتة لأنها تقوم على جوانب ثابتة في كيان الإنسان ، لا يغير منها شيئاً كل التطورات العلمية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والنفسية .

(٢) سورة المائدة [٣٢]

(١) سورة الحجرات [١٣]

(٣) سورة المائدة [٨]

إنها أعمق في الفطرة من كل تطور . وأثبت من كل تغيير ..
ولا يجوز أن يخذعنا أنها لا تأخذ هذه الصورة الثابتة في الواقع البشرى ..
فتفسير ذلك كامن في انحرافات الفطرة لا في تطورها .
والفرق بين الانحراف والتطور يتبين من النتائج التي يؤدي كل منهما إليها .
التطور — الذي يتمشى مع الفطرة — يؤدي إلى نتائج نافعة صالحة .
أما الانحراف — الذي يسير ضد اتجاه الفطرة — فيؤدي إلى الأمراض النفسية
والاجتماعية . والعصبية والعقلية .. الخ . وإلى الدمار .
وقد قالت لنا شهادة القرن العشرين ما فيه غناء ؛ فقد بينت لنا بجلء ما نشأ
عن انحراف الفطرة في الأمور الثابتة التي لا تقبل التطور . وخاصة في علاقات
الجنس ومقاييس الأخلاق !

° * *

إلى هنا كنا نتحدث عن الجانب الثابت من الكيان البشرى، وعن التشريع
الإسلامي الذي يقابله ويغطيه ..
والآن ننقل إلى الجانب المتطور في حياة الإنسان، لنرى كيف يواجهه الإسلام .
إن « صورة » الحياة البشرية تتغير تغيراً واسع المدى في كل حين نتيجة
الاحتكاك الدائم بين العقل البشرى والكون المادى .. وينشأ عن ذلك تنظيمات
جديدة وأحوال .

وقد بينا في الفقرات السابقة أن هذا التغير — الذي نصفه بأنه واسع المدى —
لا يشمل جوانب معينة من الكيان البشرى والحياة البشرية ، لأنها ترتكز
إلى أسس عميقة في الفطرة غير قابلة للتغير .. إلا بالانحراف الذي يصيبها بأشد
الأضرار ، ويعرضها للدمار . فالآن نقول إنه يشمل كل الجوانب الأخرى
في الإنسان .

يشمل التقدم المادى والعلمى وتطور أساليب الإنتاج .
ويشمل « صورة » المجتمع .. هل هو مجتمع رعوى . أو زراعى . أو صناعى .
أو ذرى .. أو ..
ويشمل بالتالى اقتصاديات هذا المجتمع . وطبيعة الروابط والعلاقات بين
المالكين وغير المالكين .

كما يشمل الصورة السياسية للمجتمع . أى شكل الحكومة ونظمتها .
وهذه الأمور كلها مرتبط بعضها ببعض ، وإن لم يكن — كما أثبتنا من
قبل — ترابط السببية المباشرة . وإنما ترابط المواقبة والمصاحبة والتأثير المتبادل .
ولكنها كلها متغيرة .. هذا هو الطابع الذى يشملها جميعاً .
العلم يكتشف ويخترع على الدوام . ولم يكف عن هذه المهمة أبداً منذ مولده
إلى هذه اللحظة . فهو ينمو نمواً دائماً — إلا فى فترات الانحراف حين يخمل
ويعقم ويكف عن التجدد — ويضيف دائماً حصيلة جديدة من المعرفة .
وباخترعاته واكتشافاته يطور الآلات والعدد والأدوات . . أى أساليب
الإنتاج . وتلك — كما رأينا من كلام جولييان هكسلى — فطرة . ولكن
« الصورة » التى تؤدى إليها هذه الفطرة متغيرة على الدوام .
وحين تتطور أساليب الإنتاج تنشأ نظم اقتصادية جديدة . وصورة جديدة
من المجتمع . وصورة جديدة من الحكومة . . ويسير كل ذلك على سنة النمو
الفطرية فى كيان الإنسان .

ولكن .. لا ينبغي أن ننسى أن إنشاء نظم اقتصادية جديدة لا يتوقف
حتماً على تغير أساليب الإنتاج كما زعم التفسير المادى للتاريخ . فقد رأينا كيف
أنشأ الإسلام نظاماً اقتصادياً متفرداً ، غير مسبوق من قبل ، وهو فى الوقت ذاته
غير قائم على أى ضرورة اقتصادية ولا على أى تطور فى أساليب الإنتاج !
وكذلك أنشأ صورة جديدة للمجتمع ، وصورة جديدة للحكومة . .

إنما يحدث — في المعتاد — أن تتواكب التطورات كلها وتتصاحب . .
وينشأ عنها تغيرات دائمة في صورة الحياة البشرية . وهذا هو الذي نناقشه في هذه
الفقرة ، لنرى موقف الإسلام من هذه التطورات .

* * *

كما واجه الإسلام الجانب الثابت من الكيان البشرى بتشريعات وتوجيهات
تناسبه وتتلاقى معه ، بحيث ينطبقان انطباقاً كاملاً في كل لحظة [فيما عدا حالات
الانحراف بطبيعة الحال : حيث تفترق الصورة المطلوبة عن الصورة الواقعة بسبب
الانحراف لا بسبب التطور . وينبغي في تلك الحالة إعادة الأمر إلى وضعه الصحيح] . .
كذلك يواجه الإسلام الجانب المتطور بتشريعات وتوجيهات تناسبه وتتلاقى معه ،
بحيث ينطبقان انطباقاً كاملاً في كل لحظة . . ما عدا حالات الانحراف !

إن عملية النمو العالمى والمادى ، والاقتصادى والاجتماعى والسياسى ، عملية
فطرية . والتغير الدائم فيها فطرى وطبيعى . ولكن ليس معنى هذا أن كل
تغير يحدث يكون طبيعياً وملائماً للفطرة ! فالفطرة عرضة دائماً للانحراف حين
يساء توجيهها [أو حين تترك بلا توجيه صالح !] وعندئذ تنمو حقيقة ، ولكنها
تنمو نمواً منحرفاً . كالطفل الذى ينمو بساق معوجة . إنه ينمو — كما تقتضى
الفطرة أن ينمو — ولكن من يقول إن نموه سليم ؟

إنهما أمران معاً في ذات الوقت : النمو . . واستقامة النمو على الفطرة . وهذا
ما يراعيه الإسلام !

* * *

بيننا من قبل في فصل « الثابت والمتغير في كيان الإنسان » حقيقة هامة
نحتاج هنا إليها حاجة شديدة ، هى أنه — حتى في الجانب المتغير من الإنسان —
تتغير « الصورة » ولا يتغير « الجوهر » . ومؤدى ذلك أن « التطور » لا يكون

سائياً منفلتاً من كل رباط ، يتجه بحسب هواه ، أو بحسب ما تقوده الظروف .
إنما ينبغى أن يكون له رباط من الفطرة . رباط يحمل له هدفاً صالحاً راشداً بانياً
يتفق مع اتجاه الفطرة السوية . رباط يمنع الخلل والانحراف في أثناء عملية
النمو الفطرية .

التقدم العلمى تدفعه الرغبة الفطرية في المعرفة . والعقل البشرى يكتشف
ويخترع بمقدار ما يوفقه الله ويفتح عليه من طاقة المعرفة . ولكن التطبيق العلمى
لحقائق العلم المحايدة . . ليس أمراً محابداً ! فالتطبيق يمكن أن يتجه إلى الخير ،
ويمكن أن يتجه إلى الشر . والفطرة السوية تستخدم العلم في سبيل الخير فقط ،
ولا تستخدمه في سبيل الشر . لأن الشر لا يخدمها .

والنمو الاجتماعى والاقتصادى والسياسى نمو فطرى . ولكن له وجهين
متقابلين . أو جوهراً شتى تندرج تحت اتجاهين . أحدهما للخير والآخر
للشر . والفطرة السوية تنمو في سبيل الخير وتأبى النمو المنحرف في سبيل الشر .
والنمو النفسى كذلك .

كل حركات النمو هذه فطرية ، فينبغى أن تحكمها الفطرة السليمة . ومن
ثم ينبغى أن يكون هناك «إطار عام» يشمل عملية النمو ، ويمنعها من الانحراف .
وذلك بالضبط ما يصنعه الإسلام !

* * *

إن الإسلام كلمة الله النهائية للبشرية : « اليوم أكملت لكم دينكم ،
وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً »^(١) . ولم يكن لمجتمع الجزيرة
العربية وحدها . ولا لعهد الرسول وحده صلى الله عليه وسلم . ولا لأى بيئة أو
جيل محدد على وجه الأرض .

(١) سورة المائدة [٣] .

وإنما للبشرية كافة . وفي جميع أعصرها : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »
و « العالمين » لفظ يشمل الزمان والمكان على أقصى اتساع . بلا حدود !
لذلك لم يضع الإسلام — في الأمور المتغيرة — أحكاما تفصيلية .
لقد وضع التشريعات التفصيلية الثابتة في الأمور الثابتة في أعماق الفطرة .
التي لا تتغير . أى لا يفتنى أن تتغير . لأن كل تغير فيها هو انحراف ضار بحياة
البشرية [راجع شهادة القرن العشرين !]
أما الأمور المتغيرة — ولو أن مبادئ الشريعة العامة تحيط بها وتشملها —
فلم ترد فيها أحكام تفصيلية عرضة لأن تتحطم عند أول نمو يحدث في المجتمع . .
وهو حادث لا محالة !

لوضع تشريعات اقتصادية تفصيلية ثابتة للمجتمع الرعوى القبلى ، لحطما
النمو الزراعى ، ثم النمو الصناعى ، وجعلها غير صالحة للاستعمال . وكان ذلك
فى الوقت نفسه قيذا يعوق المجتمع عن النمو الفطرى الصحيح .
ولو وضع صورة محددة لشكل الحكومة ، مفصلة على قد حكومة « المدينة »
مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو على قد الجزيرة العربية القريبة العهد بالنظام
القبلى ، لما صلحت هذه الحكومة للمجتمع الجزيرة العربية ذاته بعد جيل واحد من الزمان ،
بعد الفتوح والامتداد ، والاحتكاك بشقى النظم والحضارات ، ونمو الحاجات . .
وحاشا لله أن يكون نظامه الدائم عرضة لهذه الاضطرابات ..
وإنما كان موقف الإسلام من هذا الأمر ، هو موقفه فى كل أمر ..
المطابقة الكاملة مع الفطرة !

« إطار » ثابت يسمح بكل أنواع النمو الفطرى الصحيح . وأسس عامة
تحدد الاتجاه وتعين الطريق وتمنع الانحراف . وتسمح بأشكال متعددة تقوم كلها
على القواعد الكلية والمبادئ الثابتة ، كما تقوم على الخصائص المميزة للنظام
الإسلامى ، التى تفرقه وتميزه عن الأنظمة التى وضعها البشر لأنفسهم .

وسنرى ، بشيء من التفصيل ، كيف كان موقف الإسلام من النمو العلمى ، والنمو الاقتصادى والاجتماعى والسياسى . والنمو « الحضارى » على وجه الإجمال .

* * *

فأما النمو العلمى ، فلم يكن القرآن — كما يحلو لبعض ذوى النوايا الطيبة فى هذه الأيام أن يتصوروا! — لم يكن ليحوى « نظريات » علمية ، فى الطبيعة والكيمياء والفلك والذرة والصواريخ . وليس من شأنه أن يفعل !! إنما شأنه أن يوجه النمو العلمى بما ينفع الفطرة ويلائمها .. وذلك ما حدث بالفعل .

لقد أشار القرآن إلى طاقة المعرفة : « وعلم آدم الأسماء كلها » (١) وأشار إلى وجوب التعلم : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » (٢) ثم أوجب تدبر آيات الله فى الكون والتعرف عليها : « إن فى خلق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجري فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، لآيات لقوم يعقلون » (٣)

وأوجب المشى فى الأرض والبحث عن رزق الله فيها : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » (٤) وأعلم الإنسان — فى ظل هذا التوجيه كله — أن السماوات والأرض — بما تحويان من موجودات وطاقات — مسخرة للإنسان بأمر الله : « وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعاً منه » (٥) . فعليه إذن أن يسعى إلى تحقيق

(١) سورة البقرة [٣١] (٢) سورة العلق [١ — ٥] (٣) سورة البقرة [١٦٤]

(٤) سورة الملك [١٥] (٥) سورة الجاثية [١٣]

هذا التفسير بالفعل : بالعلم [التعرف على قوانين الكون التى يسيرها الله بمقتضاها]
والتطبيق [المشى فى مناكب الأرض والأكل من رزقه] .

ومن تلك النقطة . من هذا التوجيه . انطلق العقل المسلم يرتاد الكون .
العقل الذى كان فى جاهلية العرب لا يتجه إلى العلم إطلاقاً .. كل همهم أن
ينظم شعراً جزلاً مصقولاً رصيناً ، يضمه على الأكثر بعض « الحكم » النظرية ..
انطلق فى عالم الواقع ينشئ أكبر حركة علمية فى تاريخ الأرض إلى ما قبل العصر
الحديث .. ويكفى أن يكون هو الذى أنشأ المذهب التجريبي الذى تقوم عليه كل
فتوحات العصر الحديث ! :

يقول « بريفولت » فى كتاب « بناء الإنسانية » Making of Humanity :
« لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية ^(١) على العالم الحديث ،
ولكن ثماره كانت بطيئة النضج .. إن العبقرية التى ولدتها ثقافة العرب فى
أسبانيا ، لم تنهض فى عنفوانها إلا بعد وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة
وراء سحب الظلام ؛ ولم يكن العلم وحده هو الذى أعاد إلى أوروبا الحياة . بل
إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعها
إلى الحياة الأوروبية . فإنه على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي
الازدهار الأوروبى إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة
قاطعة ، فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون ، وأهم ما تكون ، فى نسأة
تلك الطاقة التى تكون ما للعالم الحديث من قوة متميزة ثابتة ، وفى المصدر القوى
لازدهاره : أى فى العلوم الطبيعية ، وروح البحث العلمى .

(١) يقصد الحضارة الإسلامية كما قال فيما بعد . ذلك أن التاريخ لم يعرف للعرب حضارة
متميزة ، لا بالإسلام . كما أن الحضارة الإسلامية لم تكن قط حضارة للعرب كجنس . إنما كانت
نتاج الإسلام ذاته من جميع العناصر المسلمة التى دخلت فى الإسلام . وهى تحمل طابع الإسلام
لا طابع العرب . والعرب عنصر واحد من العناصر السكانية التى صنعت هذه الحضارة .

« » وإن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه إلينا من كشف مذهبة لنظريات مبتكرة . بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية [يقصد الإسلامية !] بأكثر من هذا : إنه يدين لها بوجوده نفسه . فالعالم القديم — كما رأينا — لم يكن للعلم فيه وجود . وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوماً أجنبية ، استجلبوها من خارج بلادهم ؛ وأخذوها عن سواهم ، ولم تتأقلم في يوم من الأيام ، فتمتزج امتزاجاً كلياً بالثقافة اليونانية . وقد نظم اليونان المذاهب وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات . ولكن أساليب البحث في دأب وأناة ، وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها ، والمناهج التفصيلية للعلم ، والملاحظة الدقيقة المستمرة ، والبحث التجريبي . كل ذلك كان غريباً تماماً عن المزاج اليوناني . أما ما ندعوه « العلم » فقد ظهر في أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة ، واطرق من الاستقصاء مستحدثة ، من طرق التجربة والملاحظة والمقاييس ، ولتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها اليونان . وهذه الروح ، وتلك المناهج العلمية ، أدخلها العرب إلى العالم الأوربي (١) »

ويقول المؤلف نفسه :

« وإن « روجر بيكون » درس اللغة العربية والعلم العربي في مدرسة « أكسفورد » على خلفاء معلمي العرب في الأندلس . وليس « روجر بيكون » ولاسميه « فرنسيس بيكون » الذي جاء بعده ، الحق في أن ينسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي ، فلم يكن روجر بيكون إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوربا المسيحية . وهو لم يعمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه اللغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة . والمناقشات التي دارت حول واضع المنهج التجريبي هي طرف من التحريف الهائل لأصول (١) عن كتاب « تجديد الفكر الديني في الإسلام » تأليف محمد إقبال ورجة عباس محمود ص ١٤٩ — ١٥٠ .

الحضارة الأوروبية . وقد كان منهج العرب في عصر «بيكون» قد انتشر انتشارا واسعا ، وانكب الناس في لطف على تحصيله في ربوع أوروبا .

« ومن أين استقى « روجر بيكون » ما حصله من العلوم ؟

« من الجامعات الإسلامية في الأندلس . والقسم الخامس من كتابه (Cepus Majus) الذي خصصه للبحث في البصريات ، هو في حقيقة الأمر نسخة من كتاب المناظر لابن الهيثم ^(١) » .

ويقول دبرير الأستاذ بجامعة نيويورك في كتابه « النزاع بين العلم والدين : « تحقق علماء المسلمين من أن الأسلوب العقلي النظري لا يؤدي إلى التقدم ؛ وأن الأمل في وجدان الحقيقة يجب أن يكون معقودا بمشاهدة الحوادث ذاتها . ومن هنا كان شعارهم في أبحاثهم الأسلوب التجريبي والدستور العملي الحسي .

« وإن نتائج هذه الحركة العملية تظهر جلية في التقدم الباهر الذي نالته الصنائع في عصرهم ، وإننا لندعش حين نرى في مؤلفاتهم من الآراء العلمية ما كنا نظنه من نتائج العلم في هذا العصر . ومن ذلك أن مذهب النشوء والارتقاء للكائنات العضوية — الذي يعتبر مذهباً حديثاً — كان يدرس في مدارسهم . وقد ذهبوا فيه إلى أبعد مما وصلنا إليه . وذلك بتطبيقه على الجوامد والمعادن ^(٢) . . . وقد استخدموا علم الكيمياء في الطب ، ووصلوا في علم الميكانيكا إلى أنهم عرفوا وحددوا قوانين سقوط الأجسام . وكانوا عارفين كل المعرفة بعلم الحركة . ووصلوا في نظريات الضوء والإبصار إلى أن غيروا الرأي اليوناني القائل بأن الإبصار يحصل بوصول شعاع من البصر إلى الجسم المرئي ، وقالوا بالعكس . وكانوا يعرفون نظريات انعكاس الأشعة وانكسارها . وقد اكتشف « الحسن ابن الهيثم » الشكل المنحني الذي يأخذه الشعاع في سيره في الجو .

(١) المصدر السابق ص ١٤٨ .

(٢) راجع الهامشة في ص ٣٩

وأثبت بذلك أننا نرى القمر والشمس قبل أن يظهر حقيقة في الأفق ، وكذلك نراهما في المغرب بعد أن يغيبا بقليل (١) »

* * *

وهذا يكفي لإثبات طبيعة الحركة العلمية التي نشأت في ظل الإسلام ، والتي حوى القرآن «إطارها» التوجيهي، ولم يكن ليحتوى تفاصيلها لأنها متغيرة على الدوام. إنما يهمنا فيها أن نشير إلى أن الإسلام كان يوجه الحركة العلمية في طريق الخير ، ويعصمها من الانحراف الذي يمارسه العلم في ظل الحضارة الغربية ، حيث تستغله الشياطين في إفساد أخلاق الأمم والأفراد ، وتدمير مقدساتهم ، وحل روابطهم وإشاعة التفاهة في نفوسهم ، بتأثير السينما والإذاعة والتلفزيون والصحافة . ثم يستغل في إنتاج الدمار على نطاق واسع ، بينما العالم يهدده الفناء بالجوع ، والطاقة الذرية — التي تستخدم للدمار — هي وحدها — في الوقت الحاضر — التي كان يمكن أن تزيد إنتاجية الأرض من الغذاء لسد الأفواه الجامعة المسكينة !

* * *

وفي النمو الاجتماعي والاقتصادي والسياسي كذلك . .
إطار عام يسمح بانفساح الصورة . ولكنه لا يسمح بانحراف الصورة !
أشار القرآن إلى نمو « الأمة » الإسلامية من قبائل متفرقة متناحرة إلى « أمة » موحدة الهدف مترابطة الكيان :

« واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا . واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها . كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون (٢) »
وأشار إلى مقومات هذه الأمة ، وأسس حياتها وخصائص نظامها .

(١) عن كتاب الإسلام دين العلم الخالد لفريد وجدى .

(٢) سورة آل عمران [١٠٣]

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر
وتؤمنون بالله (١) »

« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر
وأولئك هم المفلحون (٢) »

« وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان (٣) »

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله والرسول وأولى الأمر منكم (٤) »

« إنما المؤمنون إخوة (٥) »

« وأمرهم شورى بينهم (٦) »

« وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا (٧) »

« وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم (٨) »

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون (٩) »

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكوك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم
حرجاً مما قضيت ، ويسلموا تسلياً (١٠) »

ثم لم يحدد « صورة » الأمة كيف تكون . تكون مرة مجتمعاً رعوياً .
ومرة مجتمعاً زراعياً . ومرة مجتمع مدينة ، ومرة مجتمع تجار . أو صناع . ومرة ..

(١) سورة آل عمران [١١٠]

(٢) سورة آل عمران [١٠٤]

(٣) سورة المائدة [٢] .

(٤) سورة النساء [٥٩]

(٥) سورة الحجرات [١٠]

(٦) سورة الشورى [٣٨]

(٧) سورة الحشر [٧]

(٨) سورة المائدة [٤٩]

(٩) سورة المائدة [٤٤]

(١٠) سورة النساء [٦٥]

ومرة . . لا يتقيد المجتمع في نموه بصورة معينة ، ولا يجحد عائناً واحداً يعوقه عن النمو ، إنما يجحد دائماً توجهات توجهه في عملية النمو وتمنعه من الانحراف .

ثم يشهد التاريخ أن النمو الاجتماعي والحضارى في المجتمع الإسلامى قد بلغ الذروة — في عصره — فلم يأل المسلمون جهداً في الاستفادة بكل التنظيمات الإدارية التى وجدوها عند الأمم المفتوحة . ولا الحصيلة الحضارية التى وجدوها عندهم سواء في مصر أو الشام أو فارس، فيما لا يعارض عقيدتهم وتصورهم الخاص لغايات الحياة الإنسانية . كما اطلعوا على أسس الحضارات الرومانية والإغريقية والهندية، واقتبسوا بحرية كل ما لا يتعارض مع الأصل الذى ابتعثهم الله ليقروه في الأرض ، جاعلين عقيدتهم وتصورهم الميزان الذى يقبلون على أساسه ما يقبلون ويرفضون ما يرفضون .

وقد كان المجتمع الإسلامى — رغم كل ما أصابه من تدهور لأسباب مختلفة — قمة عالية أيام الحروب الصليبية نشأ من احتكاك الصليبيين بها كل ما حدث من تقدم فكرى واجتماعى وحضارى في الغرب الحديث ، بشهادة من مرت شهادتهم من الكتاب الغربيين .

* * *

أما النمو الاقتصادى فقد وضع القرآن له إطاراً ثابتاً ، ثم تركه ينمو بحرية داخل الإطار ، دون أن يضع له صورة معينة ، أو يعوقه بقيد واحد عن النمو الصالح الرشيد .

النظرية العامة للاقتصاد الإسلامى تقوم على أساس أن الله سبحانه استخلف الإنسان — كنوع — في الأرض ، وأن المال فيها مال الله ، والجماعة الإنسانية مستخلفة فيه ، وفق شروط الله الواردة في شريعته ، سواء في صورة مبادئ

كلية أو تشريعات جزئية - والأولى هي الأكثر - وأن الفرد موظف في هذا المال ، تقوم وظيفته فيه على أساس الملكية الفردية لجانب من هذا المال مقابل جهد يبذله ، وبشرط حسن التصرف في هذه الملكية - بما يعود على نفسه وعلى الجماعة كلها بالخير ، وفي حدود شروط الله التي بدونها لا يتحقق الخير . فإن هو سفه وأساء استخدام حق الملكية قيد حق التصرف ، وعاد حق التصرف هذا إلى الجماعة ، صاحبة الحق الأول المستمد من خلافتها عن الله في الأرض . وهذا لا يخل بقاعده الملكية الفردية التي يقوم عليها نظام الإسلام كله - لا النظام الاقتصادي وحده - ولكنه فقط يحيط هذه القاعدة بالقيود التي تكفل حسن التصرف في هذه الملكية ، ويحفظ للجماعة حقها المقرر في مال الأفراد بالزكاة وغيرها من التكاليف بقدر حاجة الأمة وبحسبها ، مع الإبقاء على ملكية الأفراد ، فيما عدا بعض الموارد العامة التي تبقى ملكية عامة :

« آتوهم من مال الله الذي آتاكم » (١)

« ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما » (٢)

ثم يجعل هناك قاعدة عامة لتوزيع المال في الجماعة :

« كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » (٣)

فلا ينبغي أن تحتكره أيدي الأغنياء في أية صورة . يجب أن توزع ملكيته في الأيدي الكثيرة كي تتداوله ، وكي تتم دورة المال الطبيعية في أيدي أكبر عدد من الأمة .

وهناك حق الموزين والمحرومين ، تتقاضاه الجماعة حقا مفروضا ، وتوزعه على المحتاجين إليه :

(٢) سورة النساء [٥]

(١) سورة النور [٣٣]

(٣) سورة الحشر [٩]

« وفي أموالهم حق للسائل والمحروم » (١)

هو حق الزكاة . ووراء التكاليف الطارئة التي يؤخذ بحسبها كلما وجدت من أموال الأغنياء .

ثم هناك قواعد لكسب المال والتعامل فيه . فلا يحىء هذا الكسب ، ولا يتم هذا التعامل بطريقة فيها مضارة من أى وجه لفرد أو أكثر في الجماعة . ومن ثم يحرم الفصب والنهب والسرقه والغش والاحتكار . كما يحرم الربا وهو أبشع هذه الوسائل جميعاً :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله . وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » (٢) ، « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس . ذلك بأنهم قالوا : إنما البيع مثل الربا . وأحل الله البيع وحرم الربا . فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله . ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يمحى الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم » (٣)

وهناك أمر بالمعاونة « النظيفة » . « فإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ، وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون » (٤) .

تلك قواعد عامة . وذلك هو الإطار الذى ينمو فيه الاقتصاد الإسلامى بلا عائق . . إلا العوائق التى تمنع الانحراف .

(١) سورة النازيات [١٩]

(٢) سورة البقرة [٢٨١]

(٣) سورة البقرة [٢٧٥ — ٢٧٦]

(٤) سورة البقرة [٢٨٠]

ولقد نما الاقتصاد الإسلامى فى ظل هذه المبادئ العامة نموا مطردا من الرعى إلى الزراعة إلى التجارة إلى الصناعة [البسيطة] إلى تداخل هذه الأنواع جميعاً فى وقت واحد . ونما معه الفقه الإسلامى فى جوانب « المعاملات » نموا هائلا حتى كون ثروة تفخر بها البشرية . وفى الوقت ذاته حالت تلك المبادئ العامة دون كثير من الانحرافات التى أصابت الاقتصاد الغربى . فحالت دون الإقطاع فى صورته الأوروبية البشعة التى كانت تستعبد الفلاح للأرض ، ولهووى السيد الذى كانت تجتمع فى يده فى وقت واحد السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية . . . مما لم يكن له مثيل فى الإسلام . وكان قينا أن يحول دون بشاعات الرأسمالية لو بقى حياً عاملا فى الأرض ، ولم توجه إليه الضربات القاصمة من كل مكان ، ولم يتهاون أهله فيه كما حدث فى القرون الأخيرة على وجه التحديد .

وهنا قد يبدو لبعض الناس أن الإسلام - وهو يحرم الربا - يضع قيوداً على « النمو » الاقتصادى ، تمنع التقدم والانطلاق . . . وقد كانت تلك الشبهة تلذع بعض المسلمين فى مبادئ هذا القرن فيسعون إلى الاعتذار عن الإسلام فى هذا الأمر ! أو يسعون إلى الإفتاء بجواز الربا للضرورة أو جوازه لأنه اليوم شئ آخر غير المنهى عنه فى القرآن ! وما زالت الشبهة تلذع بعض المسلمين حتى اليوم فيصنعون هذا وذاك !

ولا نحتاج - فى هذا العصر خاصة - أن نطيل الحديث فى ويلات الرأسمالية ، وهى النظام الذى يقوم على الربا أساسا ، ويضيف إليه أو ينتهى إلى الاحتكار .

إن بشاعات الرأسمالية الربوية غنية عن البيان . وقد قال فيها أعداؤها - بل أصدقائها أنفسهم - ما فيه الكفاية . ولا يطلب عاقل من الإسلام أن يبيح الأدوات التى تتسبب فى كل هذا الظلم وكل هذا الدمار !

أما كيف يدار الاقتصاد المسلم بغير الربا في ظل التقدم الصناعي فمبحث متخصص لا نتعرض له هنا . وقد ألف فيه بعض العلماء المسلمين . فألف السيد أبو الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية بباكستان ثلاثة بحوث رئيسية : « أسس الاقتصاد الإسلامي » و « الربا » و « ملكية الأرض في الإسلام » . وألف سيد قطب كتاب « العدالة الاجتماعية في الإسلام » . ونشر غيرهما بحثاً متفرقة عن الموضوع في أولها بحوث الأستاذ عيسى عبده إبراهيم في صحف شتى ، وما زال الأمر متسعاً لمزيد من البحث . . ولكن الأمر الذي ينبغي أن يستقر في أذهاننا بدءاً أنه لا يمكن أن يحرم الله شيئاً فيه مصلحة للناس لا تتحقق بغيره . وقد أثبت التطبيق العملي صدق ذلك مرة بعد مرة . وكلما تقدم العلم وتقدمت تجارب البشرية [وانحرافاتهما] ظهرت أسباب كانت مجهولة ، توجب تحريم ما حرم الله ! ثم بعد ذلك على المسلمين أن يستنبطوا النظم والتنظيمات التي تنفع الناس ولا تحل ما حرم الله . لأنه حرمة لسبب . لأنه يريد للناس الخير ولا يريد بهم الضرر ويريد بهم اليسر ولا يريد لهم الحرج : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم »^(١) « وما جعل عليكم في الدين من حرج »^(٢) .

وكذلك قديقان إن الإسلام يضع قيوداً على « النمو » الاقتصادي لأنه لا يرحب كثيراً بخروج المرأة للعمل ؛ « والتقدم » الصناعي الحديث ، قد استوجب ذلك . وقد بينا من قبل أن الإسلام لا يمنع خروج المرأة للعمل عند الاقتضاء ، وإن كان حقيقة لا يرحب بذلك كثيراً في غير الوظائف النسوية الخاصة .

ولكننا نضيف هنا : أنه تبين لنا أولاً مدى الضرر الذي يصيب المرأة من

(١) سورة المائدة [٦]

(٢) سورة الحج [٧٨]

تحويلها إلى رجل يعمل في السوق وفي المصنع ... ضرر لا يوازي قط أى زيادة في الإنتاج المادى يمكن أن يحدثها اشتراك المرأة في العمل .

وتبين لنا ثانياً مدى الضرر الأخلاقى الذى أصاب المجتمع الغربى في مقابل تلك الزيادة في الإنتاج . وهو ضرر يوشك أن يدمر الدنيا كلها .. فلا تستفيد حتى بذلك الإنتاج !

ثم .. إن الإنتاج في سبيله أن يتولاه الإنسان الآلى والمخ الإلكترونى والآلة الضخمة السريعة الإنتاج . فما الحاجة غداً — في الغد القريب — إلى إشراك المرأة في العمل .. إلا شهوة الإشراك ؟ ! وحتى من قبل ذلك ، فما نحن أولاء نرى الرجال يتعطلون بالألوف والملايين ، بينما تفتح الأبواب لتشغيل النساء . فهل هى مصلحة الإنتاج التى تحتم أن يتعطل الرجال ويضطلع النساء بالعمل ؟ أم إنه أمر آخر تعرفه بروتوكولات صهيون ؟

والإسلام يبيع النمو الطبيعى الصالح الراشد البنّاء .. ولكنه ليس مسئولاً أن يبيع انحرافات البشرية !

* * *

وفي الكيان السياسى وضع الإسلام القواعد العامة ، وترك التفاصيل للنمو الدائم الذى يلائم كل مرحلة من مراحل النمو العلمى والحضارى والاجتماعى والاقتصادى .

- « إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم » (١)
 « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » (٢)
 « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » (٣)

(١) سورة يوسف [٤٠]

(٢) سورة المائدة [٤٤]

(٣) سورة الحشر [٧]

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم . فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » (١)
 « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » (٢)
 « وأمرهم شورى بينهم » (٣)

هذه القواعد : الحاكمة لله وحده . والحكم بشريعة الله دون سواها . والعدل من الحكام . والطاعة من المحكومين في حدود شريعة الله . والشورى بين المحكومين والحكام .. هي أسس الحكم في الإسلام . أما شكل الحكومة فهو متروك بكلية للأمة المسلمة تقرره في حدود هذه القواعد . فكل حكم بغير شريعة الله فهو حكم غير إسلامي . وكل حكم بغير شورى فهو حكم غير إسلامي . وكل حكم لا عدل فيه فهو حكم ينكره الإسلام .

وربما لم يكن التطبيق الواقعي في عالم السياسة والحكم كاملاً إلا في فترة الخلافة الراشدة ، التي وضعت القواعد السليمة للحكم : « إذا أحسنت فأعينوني وإذا أخطأت فقوموني » [أبو بكر] . « أطيعوني ما أطعت الله فيكم . فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم » [أبو بكر] .. ثم في فترات متقطعة أخرى . ولكن الفقه الإسلامي على أي حال قد شهد في عصوره المختلفة « نمواً » ضخماً في النظرية السياسية ، استفاد فيه من كل ما وجد على المجتمع الإسلامي من أطوار ، واستنبط لكل ما وجد أحكاماً من الإسلام .

والذي يعيننا هنا أن نثبت المرونة الكبيرة التي يتسم بها التشريع الإسلامي في السياسة ، مع الحيلولة دون الانحراف [في الأصول الشرعية . أما أسباب

(١) سورة النساء [٥٩]

(٢) سورة النساء [٥٨]

(٣) سورة الشورى [٣٨]

الانحراف في التطبيق فليس هنا مجالها . وهي انحراف على أى حال ! [والقيمة الكبرى هي أن يضع الإسلام الموازين التي يتبين في مواجهتها كل انحراف عند التطبيق ، ويوصم بأنه انحراف !

* * *

ذلك موقف الإسلام من الجانب المتغير في حياة الإنسان .
لا يعوق التقدم ؛ بل يدفع إليه . ولكنه يضع المبادئ التي توجه إلى الخير وتمنع الانحراف . فيتمثل فيه الثبات والتطور في وقت واحد . ثبات القواعد وتطور الأشكال . . .
وقد رفضت أوروبا وصاية الدين على التطور العلمي والتطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي . فماذا كانت النتيجة ؟

تقدم العلم حقا تقدما باهرا في ظل النهضة الأوروبية اللادينية . ولكن لا لأنها لا دينية !! وإنما لأن الدين الكنسي هناك كان يحارب العلم ويفرض القيود على العقل ليستديم الجهل أطول مدى مستطاع ! ولكن هذا التقدم العلمي ذاته مأخوذ — كما مر بنا من شهادة بريقولت ودريپر وغيرهما — من المسلمين ، الذين كانوا يضعون العلم — والحياة كلها — تحت وصاية الدين ، ويستمدونها من قواعد الدين . .

ثم . . ؟

ثم انطلق العلم — المنفلات من وصاية الدين — بلا ضابط فوق في غواية الشياطين . . يفسدون به الأخلاق ، ويحلون روابط المجتمع ، ويشيعون به التفاهة والسطحية والضحالة . . ويدمرون به وجه الأرض .

أما الاقتصاد . . فيسكنى الإقطاع والرأسمالية ثم الشيوعية لبيان الفساد الذي حل بالاقتصاد الأوربي حين أبى وصاية الله عليه ! فساد يحيل البشر إلى سادة وعبيد ، مع اختلاف فقط في صورة السيادة وصورة الاستعباد !

وفي الاجتماع .. تكفي المفاصد الاجتماعية والخلقية التي يعانيها المجتمع الغربي ،
والتي ردهته مجتمعا حيوانيا هابطا لا يفيق من متعة الجسد ولا يشبع . ولا يتعاطف
بنوه كما يتعاطف بنو الإنسان . وإنما يعيش الغرب في فردية بغیضة كريمة . فردية
افصالية لا تجمع شتات أمه « تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى »^(١) . ويعيش الشرق
الشيوعي في جماعية آلية لا تعرف طعم المودة الإنسانية الحقيقية ، وإنما تحكمها
الدولة بالإكراه ، في الزارع الجماعية والمصانع الجماعية التي يسيطر عليها الإرهاب .
وفي السياسة .. تكفي المظالم التي تملأ وجه الأرض اليوم .. من استعمار
واستغلال واستعباد . ومن دكتاتوريات بشعة تستخدم الحديد والنار والتجسس ،
وأبشع أنواع التعذيب التي يتصورها العقل ، لتحفظ سلطانها الجبري على
الجمهير .. تكفي هذه المظالم ، فهي ليست في حاجة إلى بيان .

أما الإسلام — في هذه الأمور كلها — فهو « المحجة البيضاء » كما عبر
رسول الله صلى الله عليه وسلم . المحجة التي تفرق النور عن الظلمة ، والصلاح
عن الفساد .

المرونة الكاملة التي تسمح بالنمو . والصلابة الكاملة التي تمنع الانحراف .
وهو يستمد مزيته الكبرى في هذا الشأن من مطابقته التامة للفطرة الثابتة
الجوهر ، المتغيرة الأشكال .

* * *

ذلك موقف الإسلام من الثابت والمتطور في حياة الإنسان .. موقف لا يصدر
إلا عن تدبير إله !

فكل النظم التي صدرت عن تدبير البشر انحرفت ذات البين وذات
الشمال . ولم تهتد إلى الصواب .. لأنها لم تهتد إلى « الفطرة » ...

(١) سورة الحشر [١٤]

جهلتها - كما قال ألكسس كاريل - جهلاً مطبقاً ، ثم راحت - بهذا
الجهل - تشرع للإنسان !

والإسلام - كلمة الله إلى البشر - يقف موقفاً فريداً في كل مفاهيم
البشرية وتصوراتها ، وتطبيقاتها العملية لهذه المفاهيم والتصورات .

إنه يشمل جوانب الفطرة جميعها فلا يركز على جانب ويهمل بقية الجوانب .
ويسائر الفطرة في جميع جوانبها ، ويعطيها غذاءها الحق . فما كان منها
ثابتاً ، أعطاه التشريع الثابت ، وما كان منها متغيراً سمح له بالتفسير المطلوب .
وبذلك فهو دين الفطرة . .

وهو كذلك دين البشرية كلها في جميع عصورها وجميع «تطوراتها» .
دين يدفع بذاته إلى التطور الصاعد الراشد البناء . ولا يقف من التطور
الحق موقف الجود والرجعية . إنما غيره من النظم المنحرفة ، التي تضيء على
الانحراف ثوب التطور ، هي التي يمكن بحق أن تسمى رجعيات !

الإسلام والرجعيات

كل انحرافات البشرية التي تلبس ثوب التطور .. هي رجعيات جاء الإسلام ليقومها ويصححها !

ولأول وهلة قد تبدو هذه القضية بعيدة عن التصديق !
كيف ؟! وهذا « التقدم » كله الذي أحرزه العلم ؟ و « النمو » و « التطور »
الذي حدث في النفس والمجتمع ؟
كيف يكون هذا كله رجعية ؟ وكيف يكون الإسلام — السابق في
الزمن — قد جاء ليقومها ويصححها ؟ !

* * *

من أجل الحكم في تلك القضية الغريبة المظهر ، ينبغي أن نضع مقياسا
للتقدم والرجعية .

هل هو مقياس الزمن وحده ؟ كل « جديد » تقدم ، وكل « قديم » رجعية ؟ !
إن هذا المقياس يصلح حقا لقياس التقدم العلمي . فكل جديد في دنيا
العلم يمثل خطوة تقدمية لأنه يبدأ من الخطوة السابقة ويضيف إليها .. وإن لم
يضيف إليها فإنه يفقد مبرر وجوده .

أما بقية أنواع التحول .. الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، والنفسى
والخلقى .. فهل ينطبق عليها المقياس ذاته ، فيصبح الزمن وحده هو المقياس ؟
نريد أن نرد الأمور إلى مقياسها الصحيح .

هل التلابة الكهربائية والطائرة والصاروخ والمخ الإلكتروني هو مقياس
التقدم .. أم « الإنسان » هو المقياس ؟ !

سيقول قائل : أوليس الإنسان هو الذي صنع الطائرة والصاروخ والمخ الإلكتروني ؟
بلى . ولا شك . ولكن : كيف يستخدمها ؟ هذا هو المقياس .

يستخدمها ليرتفع بها؟ يشعر بمشاعر « إنسانية » أكثر؟ ليكون شعوره بأخوة البشرية أعمق؟ ليكون شعوره برباط « النفس الواحدة » أشد؟ ليحب أخاه؟ ليكون إنسانا مع عدوه؟ أم ليصبح وحشا ساحقا ماحقا يحكمه البغض وتوجهه الأنانية وتعميه وحشية الصراع . . أو تفاهة الصراع ؟
أيهما المقياس ؟

الآن . . هل اتضحت الفكرة أكثر؟ هل بدا لنا — كما ينبغي أن يبدو — أن التقدم العلمى فى ذاته لا يرفع إنسانا ولا يخفضه . إنما الروح التى يستخدم بها الإنسان ثمار العلم هى التى تخفض وترفع ، وتقربنا من الحيوان أو تقربنا من الإنسان ؟
الآن . . هل اتضح لنا المقياس ؟

هل نعتبر حرب الإبادة حضارة ؟ والفرقة العنصرية حضارة ؟ والاستعباد حضارة ؟ والقوضى الخلقية حضارة ؟ والجنون والمرض والانتحار حضارة ؟ ونحطم الأسرة والمجتمع حضارة ؟ والشقاء الشامل حضارة ؟ !
أى خير قدمه العلم للبشرية فى النهاية ، فى ظل التوجيه الفاسد والنظرة المرتكسة إلى « الإنسان » ؟ !

* * *

ولن نلغى العلم بطبيعة الحال ، ولن نسقطه من ميزان التقدم . .
ولن نلغى النمو الاجتماعى والاقتصادى والسياسى . . والنمو النفسى . .
كل واحد منها له وزن فى الميزان . .
لكن . . فى الكفة الأخرى نضع « الإنسان » . . وموازن الإنسان .
ننظر هل يهدف هذا العلم وهذا التطور الاجتماعى والاقتصادى والسياسى إلى رفع « القيم الإنسانية » أم إلى تحطيمها وإبادتها . . ؟
وننظر فى مجموع الأمر . لا فى جزئيات متفرقة .

فالطب تقدم ولا شك . والعلم بمخترعاته وكشوفه قد يسر كثيراً من
« الخدمات » وحقق خيراً كثيراً للناس . وكل ذلك ينبغي أن نحسب حسابه
ونحن نقوم هذه الحضارة في الميزان .

لكن من .. يرجع ؟ هذا الخير على كثرته ؟ أم ذلك الشر الواغل في الأعماق ؟
كيف نهرب من شهادة القرن العشرين ؟ كيف نلوى عيوننا عن
مواجهة دلائلها ؟

نعم . من ذا الذي يقول : إنه إما أن نقبل هذه الشرور كلها ، ليتحقق لنا
قدر من الخير .. وإما لاخير على الإطلاق ؟

من قال إن الخير ضريبته التدمير ؟ وضريبته إفساد الأخلاق ؟ وضريبته
إشقاء البشرية ؟ !

إن هذه هي الصورة « الغريبة » للحضارة .. ولكنها ليست الصورة
« البشرية » للتقدم !

والمطلوب أن نبقي كل الخير الذي حققه العلم والتقدم ، ونقوم في ذات الوقت
بما أحدثه التوجيه الفاسد من شر .

ذلك شأن « الإنسان » الحق . . وذلك مقياس الرجعية والتقدم !

* * *

المقياس هو « الفطرة » !

المقياس هو الإنسان !

« يجب أن يكون الإنسان مقياساً لكل شيء . ولكن الواقع هو عكس ذلك .
فهو غريب في العالم الذي ابتدعه . إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه ، لأنه
لا يملك معرفة عملية بطبيعته . . ومن ثم فإن التقدم المائل الذي أحرزته علوم
الجماد على علوم الحياة ، هو إحدى الكوارث التي عانت منها البشرية . . إننا
قوم تمساء ، لأننا ننحط أخلاقياً وعقلياً . . إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها

الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم ، هي على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة في
الضعف والتي ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها »
[ألكسس كاريل] .

شهادة واضحة حاسمة لاحتاج إلى تعليق .

« الإنسان » هو المقياس الذي ينبغي أن نقيس به التقدم والرجعية . فكل
نظام يرفع « الإنسان » فهو نظام تقدمي . وكل نظام يرتد بالإنسان إلى الوراء
من حيث كيانه الإنساني فهو رجعي أي كانت درجة الحضارة المادية التي يشتمل
عليها ، وأي كانت الآلات التي يستخدمها من الدقة والجبروت !
وحقا إن استخدام العدد والآلات والسعى إلى تحسينها مزية إنسانية أصيلة .
ولكنها وحدها لا تنشيء الإنسان ! ووحدها لا تصلح مقياسا لتقدم الإنسان !
ماذا لو تضخمت يد الإنسان جداً ، وأصبحت لها قوة جبارة . . . وبقيت
الجسم كسيح مقعد لا يستطيع أن يتحرك من مكانه ؟ ما قيمة اليد القوية الجبارة
وهي لا تستطيع أن تمتد بقوتها خطوات ؟ !

ذلك وضع التقدم العلمي والصناعي والحضارة المادية في القرن العشرين ! يد
جبارة في جسم مقعد كسيح ! وفضلا عما في هذا الوضع من اختلال بالنسبة
لمجموع « الإنسان » ، فإنه — في النهاية — يذهب بالفائدة العملية من هذا
التقدم الجبار .

ولكن هذا القول المجمل يحتاج إلى تفصيل .

ماهي مواضع الاختلال في الكيان الإنساني في القرن العشرين ؟ ما انحرافات
التي ترجع به إلى الوراء في سلم « الإنسانية » وتجعل حصيلته « رجعية » في
نهاية المطاف ؟

أو . . . من ناحية أخرى : ما خصائص « الإنسان » التي ينبغي أن يحافظ
عليها ، ورؤاؤه الرئيسية التي دمرتها حضارة القرن العشرين ؟

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها
وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » (١) من عجب أن تكون كل القضايا الثابتة
هى التى اختلت وانهارت فى هذا القرن العشرين !
قضية العقيدة . قضية النفس الواحدة . قضية الجنس . قضية الإنسانية
الواحدة . . . تلك بالذات التى حدث فيها الاختلال . . . وتلك بالذات التى تنذر
اختلالاتها بتدمير البشرية !

* * *

حين انحرف الناس عن العقيدة فى القرن العشرين . حين جعلوها وراء
ظهورهم . حين نحوها من حياتهم العملية تنحية كاملة ، وصارت — فى أحسن
حالاتها — ظلا باهتا فى ضمائر الناس . . هل ارتفعوا فى سلم الإنسانية أم انحدروا
هابطين ؟ !

إن العقيدة المدركة الواعية — كما رأينا فى بحثنا من قبل ، وكما رأينا من كلام
جولييان هكسلى نفسه وهو ملحد — (٢) ركيزة من ركائز « الإنسان » تميز بها
عن الحيوان (٣) . . فإلغاؤها — أو إهمالها — ارتداد عن خاصية إنسانية بحتة ،
ورجعة إلى الوراء !

وقد لمسنا بالفعل آثارها فى حياة هذا الجيل من البشرية .
فقد أنتجت — أول ما أنتجت — ذلك التمزق فى نفس الإنسان . التمزق بين
حاجة النفس الفطرية إلى خالقها ، وحاجتها إلى الأمن الاجتماعى والسياسى
و « الحضارى » . . الذى يأبى الغرب فى موجته الملحدة الكافرة اليوم أن
يربطه بالعقيدة فى الله !

وأنتجت — فيما أنتجت — ذلك القلق النفسى والروحى الذى يفسد أعصاب
الناس فى الغرب . ففى وسط هذا الصراع المدمر الرهيب الذى يخوضه الناس فى

(١) سورة النساء [١] .

(٢) س ١١٢ من هذا الكتاب (٣) انظر كتاب الدراسات .

كل لحظة وفي كل جانب من جوانب الحياة : صراع في عالم المادة وصراع في عالم الأفكار وصراع في عالم السياسة وصراع في داخل المجتمع وصراع في داخل النفس المفردة .. في وسط هذا الصراع المدمر الرهيب يحتاج الإنسان إلى سند . يحتاج إلى قوة ثابتة يرتكن إليها . يحتاج إلى من يمسح على قلبه المتعب وضميره الخيران . يحتاج إلى اليد الحانية التي تمسك به في أزمنته وتقوده إلى الطمأنينة والهدوء ..

يحتاج إلى الله ...

و « الحضارة » الغربية تنهـاء — بتوجيهاتها وتنظيماتها — أن يلجأ إلى الله ! تنهـاء أن يلجأ إليه في السياسة ، أو يلجأ إليه في الاقتصاد . أو يلجأ إليه في تنظيم المجتمع . أو يلجأ إليه في وضع دستور للآداب والأخلاق والسلوك . أو يلجأ إليه في الفن ... وإنما يلجأ إليه — إذا شاء بعد هذا كله — في سويعة عابرة في الصلاة في الكنيسة . ثم يعيش بقية يومه وبقية عمره في جو مضاد للعقيدة ، واقف لها بالمرصاد !

فيتمزق ويقلق .. ويضطرب ويحتار ..

ويهبط في ميزان « الإنسان » ..

وليس هذا وحده .. فحين لا يؤمن الناس بالله الإيمان الحق ، ولا يؤمنون باليوم الآخر .. فليس في حسبهم إذن إلا هذه الحياة الدنيا .. ينتهبون لذائدها في الفرصة المتاحة التي لن تنكرر .. ولن تعود ! ويتكالب الناس على متاع الأرض .. متاع الجنس ومتاع الحس . ومتاع القوة ومتاع السلطان ..

وتنقلب حياتهم — بدلا من المتعة الزائدة المرجوة — إلى جحيم من العذاب . عذاب القلق الدائم على الفرصة الذاهبة . وعذاب السعار الذي لا يشبع لأنه متلف على الدوام !

ويهبط الناس في ميزان « الإنسان » ..
يهبطون إلى مستوى أدنى حتى من الحيوان . فالحيوان يملك الضوابط
الفطرية الغريزية التي تقف به قبل نقطة الهلاك وتصون طاقته عن الدمار ..
والإنسان — بلا عقيدة — يترد أسوأ من ذلك الحيوان . لأنه يصبح
بلا ضوابط .. ولا أهداف :

« لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها .
أولئك كالأنعام بل هم أضل . أولئك هم الغافلون (١) .
إنها نكسة .. رجعية ! ومع ذلك .. فبمقياس الزمن ذاته .. هل هي حقاً
« اختراع » جديد في القرن التاسع عشر أو العشرين ؟ !
كلا ! ما أقدمها في التاريخ !

ليست أول وثنية ! ليست أول كفر بالله وإلحاد .. ما أقدمها !
ما الدليل على وجود الله ؟ كيف يرسل الله الرسل ؟ كيف ينزل الوحي ؟
كيف يبعث الموتى ؟ كيف .. ؟

« وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية ؟ كذلك قال الذين
من قبلهم مثل قولهم . تشابهت قلوبهم . قد بينا الآيات لقوم يوقنون » (٢)
« وقالوا : ما هي إلا حياتنا الدنيا . نموت ونحيا . وما يهلكنا إلا الدهر » (٣)
« وإذا كنا عظاما ورفاتا .. أننا لمبعوثون ؟ » (٤)

بل أبلغ من ذلك وأدق ! إنك حين تقول للناس اليوم في القرن العشرين إنه
ينبغي توحيد الألوهية . فلا يكون إله للعبادة . وإله للعلم . وإله للاقتصاد . وإله
للسياسة .. يستنكرون ! ويقول القرآن حكاية لقول الكفار القدماء :

« أجعل الآلهة إلها واحداً ؟ ! إن هذا لشيء عجاب ! » (٥)

- | | |
|------------------------|-----------------------|
| (١) سورة الأعراف [١٧٩] | (٢) سورة البقرة [١١٨] |
| (٣) سورة الجاثية [٣٤] | (٤) سورة الإسراء [٤٩] |
| (٥) سورة ص [٥] | |

وهذه الرجعية التي يمارسها القرن العشرون في عالم العقيدة ، هي ذاتها التي جاء الإسلام ليصححها ويقومها ، ويرد البشرية فيها إلى الصواب . . وما زال موقفه منها هو ذات الموقف في القرن العشرين !

* * *

وقضية الجنسين . . بما فيها « الأخلاق » . . لقد تحدثنا عنها بما فيه الكفاية . . ولا نحتاج إلى حديث جديد . . لاعتنا طبيعتها ولا عن آثارها في حياة البشرية . . فهذا الشقاء البالغ الذي أحدثته في نفوس الشباب من الجنسين . . هذا الشرود الخطر الذي لا يحمل أحداً يستقر . . هذا التدمير في الأسرة والمجتمع والنفوس . . وهذه الحيوانية التي يأنف منها الحيوان . . وهذا السعار المجنون الذي لا يشبع . .

إنها ردة بمقياس « الإنسان » . . فما خلق الله الإنسان ليهبط هذا الهبوط كله ، ويشرد ويقتل ويحل به الدمار ، وما كان « التقدم » ليصيب الناس بكل هذا الشر ، الذي رأينا أمثلة بارزة منه في شهادة القرن العشرين . . إنما الشر ينتج من الانحراف . من الابتعاد عن الفطرة . من عدم ملائمة هذا النظام « للإنسان » . .

ومع ذلك . . فبمقياس الزمن ذاته . . هل هو تقدم أم رجعية ؟ ! لقد قال القرن العشرون إنه « يتطور » في مسائل الأخلاق والجنس . ويحدث حديثاً لم تعرفه البشرية من قبل . ثم قالت شهادة التاريخ إنه أمر قديم جداً موغل في التاريخ . . عرفته اليونان القديمة وروما القديمة والهند القديمة وفارس القديمة . .

عرفته على نفس الصورة . . أو في صور مختلفة . . لا فرق ! لا فرق من الداخل في نفس « الإنسان » . ولا فرق من الخارج في واقع البشرية . . انحراف

لابد أن يؤدي إلى نتائج المحتومة لأنه يخالف الفطرة . . . وهي الحقيقة الحتمية الوحيدة في تاريخ الإنسان . . . عنها تتفرع كل الحتميات !
إنه ذات الرجعية التي جاء الإسلام ليصححها ويقومها ، ويرد البشرية فيها إلى الصواب .

إنها الجاهلية التي كانت تتبرج فيها المرأة وتقعدها لفتنة الرجل وإغرائه ، ويشغل فيها الرجل بتلك الفتنة والإغراء ، سواء في الجزيرة العربية أو في خارجها . وجاء الإسلام ليرفع الناس من بهيميتها ، ويقر في ضمائر الناس قيا عليا ترفع علاقة الجنس عن أن تكون بهيمية جسد مسعور . يرفعها إلى السكن والمودة والرحمة : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها . وجعل بينكم مودة ورحمة » . ويرفعها إلى « التنظيم » الذي يليق بالإنسان .
وهذا الذي يصنعه القرن العشرون ، سواء بمقياس « الزمن » أو بمقياس « الإنسان » لا يزيد على أن يكون رجعية هابطة ، يصححها الإسلام !

وقضية النفس الواحدة . وقضية الإنسانية الواحدة . .
إن القرن العشرين ينحرف فيها انحرافات شتى . من أبرزها : انحراف الفردية الطاغية التي تطغى على المجتمع ، وانحراف الجماعة الطاغية التي تطغى على الفرد ، وانحراف العدوان المستمر من بني الإنسان على « إخوتهم » في البشرية .
انحراف الفردية الطاغية يمثلها اليوم النظام الرأسمالي الذي يقول عنه الغرب إنه « تطور » ! ويمثله الدكتاتوريون الطغاة في كل الأرض . . فهل هو « تطور » لا مثيل له من قبل ؟

من حيث « الصورة » نعم . . أما من حيث الجوهر ؟
إن « رأس المال » في صورته الصناعية الجديدة تطور في نوع الملكية وتطور في صورة الاستغلال . لكن طغيان المالك واستغلاله لمن لا يملك . . هل هو

جديد حقا على البشرية ؟ ١٩ أو ليست هي ذات « الدوافع » في النفس البشرية المنحرفة ، وتؤدي إلى ذات الظلم ؟ هل كان الغنى في الجزيرة العربية . . أو في الدولة الرومانية أو الفارسية شيئاً آخر في معدنه غير الرأسمالي الحديث الذي يطنى بسلطان رأس المال ؟

أو ليس هو الانحراف ذاته الذي جاء الإسلام لتصحيحه ؟ جاء ليأخذ السلطان الطاغى من هذا الفرد ، بسلبه حق التشريع الذي يستعبد به الناس . ورد التشريع إلى الله الذي لا يحابى أحداً من البشر . فلم يعد الحاكم يشرع لنفسه ولا يطبقه كما يحدث في العالم الرأسمالي . . وفي كل مكان في الأرض لا يقوم على هدى الإسلام . .

فالفردية الرأسمالية الطاغية - رغم صورتها الظاهرية الجديدة - رجعية كانت موجودة قبل الإسلام في صورة من الصور ، وجاء الإسلام ليصححها ويقوّمها . وما زال وضعه منها اليوم هو وضعه منها قبل مئات السنين !

أما فردية الدكتاتور الطاغية - التي عرف هذا القرن العشرون نماذج طاغية منها - فقد عرفتها البشرية كثيراً قبل الإسلام . وجاء الإسلام ليرفع هذا الطغيان عن كاهل البشرية بأن يجعل العبودية واحدة لله وحده ، ولا عبودية لأحد من البشر على الإطلاق . ومن ثم عاد الطغاة المقدسون بشراً عاديين بلا قداسة . وصار الحكم أشخاصاً عاديين لا سلطان لهم إلا تنفيذ شريعة الله . فأما إن اعوجوا فلا طاعة لهم على الناس . وإنما التقويم أشد التقويم : قال سلمان الفارسي لعمر ابن الخطاب ، أعدل حاكم في تاريخ الأرض : « والله لو وجدنا فيك اعوجاجاً لقومناه بحد السيف » فقال عمر : الحمد لله الذي جعل في رعية عمر من يقوم عمر بسيفه !

ذلك موقف الإسلام من الطغيان من قبل . . وهو موقفه منه حتى اليوم . الطغيان في أية صورة من صور رجعية ترجع بالبشرية إلى ما قبل الرشد .. الذي

يحدده في تاريخ البشرية مولد الإسلام . وقد جاء الإسلام ليصحح وضع البشرية من هذا الطغيان . .

أما الطغيان الجماعى الذى تمثله اليوم الشيوعية — آخر « تطور » فى عالم الاقتصاد والاجتماع — فهو صورة جديدة . نعم . أما الجوهر ؟

هذا الطغيان الذى يذيب كيان الفرد . ويجعله مجرد واحد من القطيع . . يتبعه أين يسير . . لا رأى له فى تقويمه ، ولا الإشراف عليه ، ولا له كيان متميز يحس بذاته فى وقت من الأوقات . . هل يختلف من حيث الجوهر عن طغيان « القبيلة » قبل الإسلام ، ذلك الطغيان الذى أنطق الشاعر الجاهلى بهذا البيت :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت . . غويت وإن ترشد غزية أرشد ؟ !

ثم جاء الإسلام . . جاء ليرد « للفرد الإنسانى » كيانه إزاء طغيان المجموع . بأن يجعله — وهو الفرد — قوة هائلة حين يتصل بالله ، ويعبده حق عبادته ، ويستلهم هداه . قوة توجه المجتمع إلى الصلاح وتصدّه عن الفساد . « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » (١) وتوجه الحاكم إذا عوج ، وتُشأور فى شأن الحكم وسياسة المجتمع . . ومن ثم يرفع عنها العبودية للمجموع .

وهذا الطغيان الجماعى الجديد الذى تمارسه الدول الجماعية ، لا يزيد على أن يكون رجعية من تلك الرجعيات التى جاء الإسلام ليصححها ويقومها . وما زال موقفه منها اليوم كموقفه منها يوم جاء !

إن الإسلام ينصب الميزان الحق بين الفرد والمجتمع . لا هذا يطغى ولا ذاك . ويستمد ميزانه من الحقيقة الثابتة : « خلقكم من نفس واحدة » . .

(١) سورة آل عمران [١٠٤] .

و بذلك يقوم الرجعية .

* * *

أما العدوان المستمر الذى يمارسه القرن العشرون .. عدوان البشر على البشر ..
فى الحرب وفى السلم . عدوان أمم على أمم وأمم على أفراد . وأفراد على أفراد ..
التفرقة العنصرية . والاستعمار والاستعباد . والتعذيب الوحشى الذى يمارسه الطغاة
ليسندوا حكمهم ضد ثورة الجماهير . ما اسمه ؟ ما اسمه فى ميزان « الإنسان » ؟ تقدم
أم رجعية ؟ هل فيه جديد إلا الزيادة فى الوحشية والضاوة فى القتل والتعذيب ؟
ولقد واجه الإسلام يوم جاء صنوفاً مختلفة من هذا العدوان . فجاء ليصحيحها
ويقومها . بهذيب الضمير البشرى من ناحية ، ووضع التشريعات التى تمنع
العدوان من ناحية أخرى . نظف النفس من « الغل » الأحمق البشع الذى
يدفع إنساناً إلى قتل أخيه الإنسان أو تعذيبه أو العدوان عليه . وجعل الحرب
الوحيدة التى يبيحها هى الحرب لله . لإعلاء كلمة الله لا كلمة بشر من الناس .
وبشروط « إنسانية » تمنع القتل الوحشى والتثيل والتعذيب .

إن ما يمارسه « التقدم » العصرى فى القرن العشرين ، هو الرجعية ذاتها
التي جاء الإسلام ليصحيحها ويقومها .. وما زال موقفه منها اليوم كموقفه
منها يوم جاء !

وهكذا .. كلما تبعنا شيئاً من « تطورات » الغرب وجدنا أنها ليست
تطوراً فى الحقيقة . وإنما هى انحراف ورجعية . انحراف بمقياس « الإنسان »
ورجعية بمقياس الزمان .

لأنها نكسة حيوانية إلى الوراء ..

وموقف الإسلام منها هو موقفه من الرجعية جميعاً : موقف التقويم
والتصحيح .. موقف القوة التقدمية الهادية التى تشير للناس إلى الطريق الصحيح .
وهكذا كان ينبغى أن يكون موقفنا نحن من الغرب ..

ولكن .. أين نحن ؟

نحن والغرب

حين تكون المقدمات كلها صحيحة ، فينبغي أن تؤدي إلى نتيجة صحيحة . .
وما دام الإسلام هو القوة التقدمية الهادية المرشدة إلى الطريق الصحيح . .
وما دامت الحضارة الغربية تشتمل على كل هذا القدر من الانحراف والردة إلى
عالم الحيوان . . فقد كان ينبغي أن نكون نحن — المسلمين — في مقعد القوة
والتمكن والتقدم والحضارة والسلطان ، والنظافة الكاملة في التعامل والأخلاق ،
والترابط في المجتمع ، ويكون الغرب في مكان الضعف والذلة والهوان . . ولكن
الأمر الواقع هو العكس . فالغرب ليس قوياً فقط ، وليس « متحضراً » فحسب ،
بل إنه في معاملاته الفردية نظيف نظافة ملحوظة ، مستقيم استقامة واضحة . .
قلما يخذع الإنسان منهم غيره ، أو يغشه ، أو يحاوره أو يداوره . أو يكذب عليه
في مجال التعامل اليومي ، وفوق ذلك يخلص في عمله ويتقنه ويضع فيه كل
جهده . . بينما نحن — المسلمين ! — نفش ونخذع ، ونحاور ونداور ، ونكذب
وننافق ، ولا نخلص في عملنا ولا نتقنه ولا نضع جهدنا الحقيقي فيه .

دين بلا نظافة . . ونظافة بلا دين !

تلك هي الصورة التي تربك أفهام الأجيال الناشئة في العالم الإسلامي فتصرفها
عن الإسلام !

وهي لاتنصرف عنه تلقائياً . . وإنما بذل جهد جهيد خلال القرن الماضي
كله وما يزال يبذل في هذا القرن للوصول إلى هذه النتيجة . .
جهد جهيد بذله المبشرون والمستشرقون . . ثم تلقفه منهم « تلاميذهم »
المسلمون (!) في الشرق الإسلامي ، فأخذوا يرددون الاسطوانة ذاتها ، ولا يملون
من ترديدها ليصلوا في أذهان الأجيال الناشئة إلى الربط بين هذه « الحقائق »
الظاهرية . . لتصل إلى النتيجة المطلوبة . .

المبشرون بادىً ذى بدء كانوا يقولون إن الإسلام رجعى متأخر .. بدليل التأخر والرجعية الخيمة على أهله . والمسيحية تقدمية متحضرة .. بدليل الحضارة والتقدم الموجود فى الغرب المسيحى .

والمستشرقون على آثارهم [وهم بقية منهم لبسوا مسوح البحث « العلمى » ليخفوا وراءها مسوح التبشير] قالوا إن سر التأخر والرجعية كامن فى الإسلام ذاته . فهو — بذاته — الذى قاد أهله إلى الانحطاط والتأخر ، لأنه جامد لا يتطور ولا يسمح بالتطور ! [ولعلمهم يقولون أيضاً إنه يدعو إلى الجهل وعدم الأخذ بأسباب القوة !!]

ثم جاء تلاميذهم من « المسلمين » . من « قادة » الفكر والصحافة والأدب والسياسة يقولون : هلم ننبذ تماثيل هذا الدين الرجعى الجامد المتأخر .. لى ننحضر . لى نصبح مثل أوربا لى ننال العلم والقوة والتقدم والسلطان . والتقت تلك الإيماءات السامة كلها فى نفوس الأجيال الناشئة فى العالم الإسلامى ، لتؤدى إلى نتيجة معينة : نحن متأخرون لأننا مسلمون وأوربا متحضرة لأنها ليست مسلمة !

ثم دار الزمن دورة واختفت من الأفق أقوال المبشرين المباشرة .. فقد احتجبوا عن العمل المباشر بعد أن اطمأنوا إلى قيام تلاميذهم « المسلمين » بالدعوة بدلا منهم ، واطمأنوا إلى سياسة الدولة التعليمية التى أوحوا بوضعها عن طريق الاستعمار الذى كان بيده مقاليد الحكم والتوجيه .. سياسة لا تعلم الناشئة شيئاً عن حقيقة الإسلام ، وإنما تعلمهم بدلا منه أوربا وحضارتها وتفوقها الساحق .. وتعلمهم كذلك شبهات حول الإسلام يتسرب إلى أفهامهم تأثيرها المسموم بوعى أو بغير وعى . واطمأنوا كذلك إلى دور المدارس الأجنبية وما تحمته من آثار سامة فى تحطيم عقائد المسلمين ، ولّى أعناقهم إلى أوربا و « الحضارة » الأوروبية .. واطمأنوا أخيراً إلى تكبير تلاميذهم وتضخيمهم حتى يصبحوا هم

قادة الفكر والتوجيه و يصبح في أيديهم من السلطان ما يكفي لتثبيت ذلك التوجيه ..
واختفت كذلك من الأفق حملة المستشرقين المباشرة على الإسلام ، التي
كانت على أشدها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، إذ ظهر للمستشرقين
بالتجربة العملية أنها أدت إلى عكس القرض المطلوب ، إذ أيقظت المسلمين من
سباتهم ، ووجهت مشاعرهم وعقولهم وأقلامهم إلى الدفاع عن الإسلام . فظهرت
عشرات من الكتب أو مئات تدافع عن الإسلام . وكان في هذا خطر عظيم
على الهدف المنشود من وراء حركة الاستشراق . خطر صرح به المستشرق
المعاصر « ولفرد كانتول سميث » في كتابه « الإسلام في التاريخ المعاصر
Islam in Modern History » حيث يقول في أكثر من مكان في كتابه : إن الحركة
المتحررة التي قادها الكتاب المتحررون ، والتي اتجهت إلى نقد الدين ، كانت
كفيلة بأن تؤتي ثماراً طيبة . لولا أن حركة « الدفاع » عن الإسلام قد حالت
دون هذه الثمار ! !

لذلك اتجه المستشرقون إلى وسيلة أخبت ، تنوم المشاعر لاسموم بدلا من
أن توقظها للخطر المائل ، وهي البدء بتمجيد الإسلام وتعظيمه ، وإعطائه حقه
المنصف ، حتى إذا استرخت أعصاب القارئ المسلم على المديح ، واطمأنت نفسه
إلى « نزاهة القصد والضمير العلمي ! » في هذا المستشرق أو ذاك ، دس له السم
في العسل ، ووضع في خلال المديح والتمجيد ما يشاء من التشويه والتشكيك ،
وهو مغمض إلى مفعوله الأكيد ! ثم .. الإيحاء — بل التعريض — بأن الإسلام
كان عظيما ونافعا وتقدميا أيام زمان ! أما اليوم فهو عقبة في سبيل التقدم ،
ولا مجال لهذا التقدم إلا بالأخذ بوسائل الغرب في كل شيء [انظر كل كتب
المستشرقين المعاصرين ! وبصفة خاصة كتاب « جب » « الاتجاهات الحديثة
الإسلام Modern Trends in Islam » وكتاب « جرونيباوم » « الإسلام
كتاب سميث المشار إليه « Islam in Modern History »]

اختفت الحملة الأولى والثانية وظهرت في الأفق دعوة جديدة ، هي التي
ما تزال قائمة حتى اليوم ، على يد أولئك « التلاميذ » المخلصين من « المسلمين »

إن أوروبا اليوم متقدمة . . . وهي ليست متدنية !

لقد طرحت الدين جانبا فتقدمت وتحضرت ووصلت إلى القوة والسلطان !

ونحن متدينون (!)

وفي الوقت ذاته متأخرون !

فينبغي أن نسلك الطريق القويم . . . نُبذ ديننا — كما فعلت أوروبا —
فنتقدم ونتحضر ونصل إلى القوة والسلطان ! وليس من الضروري أن نكفر
ونلحد ! إنما يجب أن نسارع إلى فصل الدين عن كل ما له علاقة بواقع المجتمع
وواقع الحياة !

وتلك هي خلاصة السموم كلها التي وضعها التبشير والاستشراق والاستعمار !!

* * *

ولكن . . . بغض النظر عن هذه القصة الطويلة التي استغرقت قرنين من
الزمان ، فإن هناك واقعا ملموسا ينبغي تبين أسبابه : واقع القوة والتمسك
و « النظافة » الحسية والمعنوية في الغرب في المعاملات اليومية [بصرف النظر
عن شئون الجنس !] ووقائع الضعف والتخلف و « القذارة » الحسية والمعنوية
في الشرق « الإسلامي » [بالإضافة إلى انتشار الفساد الخلقي في شئون
الجنس !]

هذا واقع ينبغي تبين أسبابه ، لتتضح القضية في أذهاننا على حقيقتها ، وتتضح
الصلة بين المقدمات التي قدمناها كلها وبين الواقع . . . وإلا فقدت دلالتها الحقيقية
وأصبحت غير ذات موضوع !

* * *

هذا الواقع . . حقيقة مضللة !

وظاهر هذه الحقيقة يقول : هناك دين بلا نظافة [في الشرق] ونظافة بلا دين [في الغرب] .

وباطن الحقيقة ليس كذلك !

والمرجع هو التاريخ . . .

إن أوروبا اليوم ليست متدينة . . بمعنى أن الدين لا يحكم الحياة . لا يحكم واقع المجتمع ، ولا يحكم الاقتصاد والسياسة ، ولا يحكم التعليم ، ولا يحكم التوجيه الفكري للناس . وإن كان — فيما عدا هذا — قد يسيطر على مشاعر الناس لحظات في داخل الكنيسة ، أو الاحتفال بقديس من القديسين أو . . في التأثر ببعض الأساطير !!

ولكنها دون شك لم تكن كذلك قبل قرون . .

يومئذ كانت العقيدة في النفوس أرسخ ، وتوجيهها للحياة أشد . .

وربما لم تكن أوروبا في يوم من الأيام مسيحية بكل معنى الكلمة . فقد ظلت في أعماق الضمير الأوربي — تحت القشرة المسيحية — رواسب عميقة من آثار الفكر اليوناني القديم والحضارة الرومانية الوثنيين ، يوجهان جوانب من الحياة الأوربية بوعي أو بغير وعي . . ولكن هذا لا ينفي أن العقيدة المسيحية كانت هي الغالبة في القرون الوسطى .

ثم ضاق الناس بكنيستهم لأسباب عدة :

كانت الكنيسة قوة طاغية غاشمة تفرض على الناس الإتاوات والعشور وترهقهم من أمرهم عسراً .

وكانت تفرض عليهم الخضوع المذل لرجال الدين .

وتفرض عليهم أفسكاراً « علمية » مزيفة ، باسم أنها كلمة السماء . فإذا أثبت العلم التجريبي والنظري كذبها راحت الكنيسة تحرق العلماء وتعذبهم كما فعلت

بكوبرنيكوس وجاليليو وجوردانو برونو لأنهم لم يوافقوا على نظريتها في شكل الأرض ومركزها من الكون .

إلى جانب ذلك مهزلة صكوك الغفران التي تحول الدين إلى سخرية لاهية ضخمة ، وتنزع عنه كثيراً من جديته وقداسته . . وكذلك الفساد الخلقى الذريع الذى كان يمارسه « رجال الدين ! » متسترين وراء مسح الرهبان ، مما يعف عنه الفرد العادى غير المتمسك بأهداب الدين !

كل ذلك أحدث انفصاماً بين الدين وحياة الناس . . وعزل الدين من الواقع الحى إلى داخل الوجدان .

ثم حدث حادث ضخم فى الحياة الأوربية ترتبت عليه آثار فى غاية الخطورة . وهو الحروب الصليبية .

ففى تلك الحروب التى انهزم فيها الأوربيون — المسيحيون — فى كل حرب تقريباً ، وفى النهاية الحاسمة كذلك — تيقظ أولئك الغربيون إلى أمر حاسم : لا بد أن يكون فى حياتهم أخطاء واختلالات أدت بهم إلى الهزيمة المنكرة ، ولا بد أن يكون فى حياة المسلمين من أسباب السلامة والقوة ما مكّنهم من الانتصار . ومن هذه اليقظة تولدت « النهضة » الأوربية . . فى كل مجال .

نهضة علمية ، واجتماعية ، وسياسية ، واقتصادية ، وفكرية ، وروحية . . الخ . « لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية (١) على العالم الحديث ، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج . . إن العبقرية التى ولدتها ثقافة العرب فى أسبانيا ، لم تنهض فى عنفوانها إلا بعد وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام . ولم يكن العلم وحده هو الذى أعاد إلى أوروبا الحياة .

بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية . فإنه على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي

(١) راجع الهامشة ص ٢٣٦ من هذا الكتاب .

الازدهار الأوربي إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة ، فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون ، وأهم ما تكون ، في نشأة تلك الطاقة التي تكون ما للعالم الحديث من قوة متمايزة ثابتة ، وفي المصدر القوى لازدهاره : أى في العلوم الطبيعية ، وروح البحث العلمى .

[بريفولت فى كتاب « بناء الإنسانية Making of Humanity »] .

وعلى الرغم من اهتمام الرجل بالعلوم ، وروح البحث العلمى - وما لهذا من دلالة فى النهضة الأوربية المعاصرة - فإنه لم يغفل الحقيقة الأوسع مدى وهى أنه « ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوربي إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة » .

وليس هنا مجال التفصيل فى هذا الشأن . . فذلك تتولاه بحوث التاريخ .

ولكننا نقول فى إيجاز شديد إن الحروب الصليبية هى التى وجهت أوربا إلى إنشاء نظام « الأمة » بعد أن كانت إقطاعيات يحكم كلا منها إقطاعى تتمثل فى شخصه السلطة التشريعية والقضائية والتنفيذية ، ويستعبد الناس فى الأرض . . وقد وجد الصليبيون فى العالم الإسلامى « أمة » تحكمها حكومة مركزية موحدة ويسرى فيها قانون واحد يطبق على الجميع بالسوية . . فنتقلوا هذا النظام إلى بلادهم فصارت أمما ودولا بعد أن كانت إقطاعيات . وتحطم النظام الإقطاعى وتحرر عبيد الأرض ليصيروا أحراراً كالمسلمين

والحروب الصليبية وما تلاها من الاحتكاك بالفكر الإسلامى والثقافة الإسلامية هى التى أدت إلى الثورة الدينية على الكنيسة ، التى قام بهامارتن لوثر وكالفن فى أوربا . وهى كذلك التى أدت إلى الحركات التحريرية الكبرى ومن بينها المجنا كارتا وإعلان حقوق الإنسان . .

وكانت - إلى جانب ذلك - ذات أثر كبير فى الأخلاق الأوربية . فقد

أخذ الصليبيون - المنهزمون - عن المسلمين - الظافرين - كثيراً من أخلاقهم الشخصية من صدق وأمانة وإخلاص وتماسك وترايط وتحاب ومودة وتعفف عن الدنيا .. وقد كانوا - في أثناء إقامتهم مع المسلمين في الشام - يرون كيف كان التاجر المسلم إذا جاء وقت الصلاة يترك متجره - مفتوحاً - ويذهب إلى المسجد يؤدي فريضته ثم يعود فلا يسرقها سارق ! ويرون كيف يحترم الصغير الكبير ، وكيف يتفشى « السلام » بين الناس سواء بالتحية بالغم أو في واقع المجتمع .. كما كانوا يرون دقة أصحاب الصنایع وإتقانهم أعمالهم والإخلاص فيها ، وكيف كانت « ذمة » التاجر المسلم رأس ماله الأول ، يعد ويقي ويضبط الميعاد ! بهذه الأمور كلها تأثرت الحياة الأوربية إلى جانب الحركة العلمية الكبرى التي نشأت من انتقال المذهب التجريبي من مدارس الأندلس ومدارس المشرق إلى الغرب الأوربي ...

وخلاصة هذا الأمر أن الأخلاق الأوربية ذات أصل ديني مسيحي وإسلامي

على السواء !

... ولقد وقعت الجفوة بين الدين والحياة في أوروبا .. للأسباب التي ذكرناها . وكانت جفوة تدريجية بطيئة استغرقت بضعة قرون حتى وصلت ذروتها في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . وفي أثناء هذه الجفوة تذكر الناس للدين ، وفصلوه عن كل القيم النافعة في الحياة ! فصلوه عن العلم . فنشأت حركة إحياء العلوم على أساس لاديني . . بل على أسس مناهضة للدين .

وفصلوه عن المجتمع .. لجاء النمو الاجتماعي الحديث على أساس لاديني (secular) إن لم يكن على أسس معادية للدين .

وفصلوه عن الأخلاق !

قالوا : إن الأخلاق جميلة نعم .. ولكن ليس من الضروري أن نأخذها

من تعاليم الدين فلنجعلها قائمة بذاتها ، تستمد من « الواقع » أو من « العقل »
أو من « الضمير الاجتماعى » . أو من أى معين إلا الدين ! [ولا يدخل فى
هذا الشأن الأخلاق الجنسية . فهذه قضوا عليها نهائياً بتوجيه الشياطين !]
وهكذا بقيت لأوروبا أخلاق . . لكن بغير عنوان الدين !

وقد كانت الجفوة من الشدة والعنف بحيث لم تفصل فقط بين الدين
والأخلاق ، بل قد نفّرت الناس تنفيراً من أن يربطوا أى ربط بين الدين
والأخلاق . . بل إلى إنكار وجود رابط بينهما على الإطلاق . . بل إلى
الإصرار على رفض الأخلاق إن كانت تلبس ثوب الدين ، وعدم قبولها إلا إن
كانت مفصولة عن الدين واقعة له بالمرصاد !

نعم ، يجب أن تكون لنا أخلاق .. ولكن حذار حذار من ربطها بالدين .
ولما تركناها لكم بأجمعها وصرنا لا أخلاقيين ! كما أصبحنا من قبل لادينيين !
وزيادة فى التحذير والتنفير تنشأ « مذاهب » كالوجودية تناقش « الأخلاق »
من حيث المبدأ ، وتقول : لا أخلاق ! فما أراه « أنا » خيراً فهو خير . . وما أراه
شراً فهو شر !

* * *

ولكن هذه مرحلة فى « التطور » !
والذين يظنون أنها يمكن أن تقوم إلى الأبد هم الذين ينظرون إلى رقعة صغيرة
من التاريخ ! الذين ينظرون إلى عقرب الساعات فى الساعة بضع دقائق ، ثم يقولون
إنه لا يتحرك من مكانه ولا يريم !

لقد بقيت الأخلاق الأوروبية — النابعة من المعين الدينى — بقيت فترة من الزمن
وهى منفصلة عن معينها الأصلى ، تسير بقوة الدفع الذاتية ، بغير عنوان الدين .
ظلت أوروبا فترة من الزمن « نظيفة » الأخلاق ، تتعامل على استقامة . .
لا يخدعك الغربى ولا يفشك فى المعاملات اليومية الفردية . لا يقول لك كلاماً

ويقصد كلاماً آخر . لا يقدم لك البضاعة المزورة . لا يعطيك الوعد ويخلفه ...

إلا في السياسة !

وقال الناس — هنا في الشرق الإسلامي —: لا تحتجوا على الغرب بالسياسة.. فالسياسة خدعة ! ولكن انظروا إلى التعامل الشخصي . إنها بالضبط الأخلاق التي تنسبونها للإسلام ! ولكنها هناك واقع على . يربي عليه الطفل فيتمشربه ، ويربي عليه المجتمع فيصونه ! إنها ليست نظريات كالتى تقدمونها باسم الإسلام ! ليست مواعظ ! إنها حقائق تربوية ضخمة . يبذل فيها جهد دائب لتربية الطفل عليها منذ مولده . يريه عليها والداه في المنزل ، والمدرسون في المدرسة ، والواقع الخارجى في المجتمع .. فتتأصل .

والوالدان بذاتهما قدوة .. لا تكذب الأم أمام الطفل ولا الأب فلا يشاهد الطفل الكذب أمام عينيه . فيتعود الصدق من الواقع الموجود فى الأسرة . ثم يذهب إلى المدرسة فلا تكذب عاينه المدرسة ولا المدرس . ويخرج للمجتمع فيجد الصدق حقيقة .. فينشأ صادقاً لا يكذب .

والأمانة كذلك . لا تغش الأم ولا الأب . ولا المدرسة ولا المدرس . ولا الناس فى المجتمع . فتصبح الأمانة فى نفس الطفل حقيقة .. حقيقة ذات رصيد من الواقع . وكذلك كل آداب السلوك ..

وبهذه الصورة تنشأ كل « الفضائل » التي نفتقدها فى الشرق « الإسلامى » . إنها هناك حقيقة ولدينا نحن خواء ومواعظ دينية !

وهم هنالك يصنعونها لا باسم الدين .. وتفلح ! ونحن هنا نعظ إليها باسم الدين .. فلا تنجح !

حقاً .. هذا هو الوجه الظاهر من القضية . .

ولكن هذه كما قلت مرحلة من مراحل « التطور » ! .. ولها بعد نتائجها .. الحتمية !

لقد انفصلت الأخلاق في الغرب عن معيها الأصلية . معين الدين . فكيف صارت ؟

قامت السياسة بادية ذى بدء على غير أساس أخلاق !

في الداخل .. صارت « الطبقة » التي تحكم تشريع لصالحها هي على حساب بقية الطبقات . وظن « علماء » السياسة والاقتصاد هناك أن هذه حتمية « اقتصادية » ! وليست حتمية اقتصادية في الواقع . ولكنها تصبح حتمية حين تنفصل السياسة عن مبادئ الدين . فتصبح السياسة بلا أخلاق ! وحين كان المسلمون مسلمين لم تكن هناك طبقة حاكمة تشريع لصالحها . وإنما كان الحكماء ينفذون مبادئ الدين التي تقضى بالمعاشرة بين الجميع !

وفي الخارج .. كانت السياسة الغربية كلها خداعا واحتيالا وغشا ونسبا وسرقة وغصبا وامتصاصا للدماء ! وظن « علماء » السياسة والاقتصاد هناك أن هذه أيضاً حتمية اقتصادية ! وإنما هي نتيجة حتمية لانفصال السياسة عن مبادئ الدين ! وحين كان المسلمون مسلمين كانت « السياسة » الخارجية هي الصدق والأمانة في السلم وفي الحرب سواء . ومحافظه المسلمين على عهودهم وموائيقهم مضرب المثل في التاريخ ! يقول « ت . و . أرنولد » في كتابه « الدعوة إلى الإسلام » [ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين ، ص ٥٨ من الترجمة العربية] : « كذلك حدث أن سجل في المعاهدة التي أبرمها أبو عبيدة مع بعض أهالي المدن المجاورة للبحيرة : فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا » ثم قال : « . . فلما علم أبو عبيدة قائد العرب بذلك (أي بتجهيز هرقل لمحاربته) كتب إلى عمال المدن المفتوحة في الشام يأمرهم بأن يردوا عليهم ما جئ من الجزية من هذه المدن ، وكتب إلى الناس يقول : إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجوع . وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم ، وإنا لا نقدر على ذلك . وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم . ونحن لسكم على الشرط وما كتبنا بيننا إن نصرنا الله عليهم » . وهذا هو الإسلام !

ثم انفصل السلوك الجنسي عن الأخلاق ! وقال الناس هنا وهناك إن هذا تطور ، ا

وقد بينا في كل الفصول السابقة أنه ليس « تطوراً » وإنما هو انحلال . ولا نحتاج أن نعيد هنا ما قلناه من قبل من آثار الهبوط الجنسي والإباحية الحيوانية في المجتمع الغربي . . فيكفينا في هذا شهادة القرن العشرين ، التي أدلى بها الغربيون أنفسهم ، وشكوا فيها من انحطاط تلك « الأخلاق » . إنما يعيننا أن نبرز حركة « التطور » المستمرة ، الناشئة من انفصال الأخلاق في الغرب عن معيها الأصلية . . معين الدين . وكيف يشمل الفساد جزءاً منها بعد جزء . . لسبب واحد . . هو أنها انفصلت عن ذلك المعين !

إن الذي يزيغ أبصار الناس هنا وهناك . . أن هذا الفساد الخلقي في شئون الجنس — الذي نشأ من ابتعاد المفاهيم الخلقية عن مفاهيم الدين — قد وقف عند هذا الحد ، ولم يسر إلى بقية شئون الأخلاق ! فماذا علينا إذن — مادام هذا — ولنسمه الفساد — تطوراً « حتمياً ! » ، ماذا علينا أن نبيح هذا الفساد الذي لن نستطيع أن نقومه أو نقف في وجهه ، مادامت بقية الكيان الخلقي مازالت سليمة ، والتعامل مستقيماً ونظيفاً لم يمسسه سوء ؟ !

إن الشاب والفتاة في الغرب منحلان خلقياً في شأن الجنس [بمقاييسنا نحن !] ولكنهما مازالا نظيفي التعامل . لا غش . ولا كذب ولا خداع . واستقامة في الخلق والضمير . وإخلاص في العمل وإتقان . . فإذا نخسر لوجارياتهم وماذا نكسب من دعوى الرجوع إلى الدين ؟ !

حتى في هذا . . نعود إلى شهادة القرن العشرين !
أين هي « الأخلاق » في الجيل الناشئ في الغرب اليوم ؟ !
عصابات الخطف والنهب والسرقة والإجرام . . وعصابات الحشيش والافيون .
هل هذه هي الأخلاق ؟ !

عصابات تيسير الطلاق ، التي توقع الأزواج أو الزوجات في جريمة الزنا ،
ثم تضبطهم متلبسين ، لتيسر على الطرف الآخر أن يطلب الطلاق ويقدم الأسباب .
والتي يقوم بها أطباء ومحامون . . هل هذه هي الأخلاق ؟ !
بيع أسرار الدولة العسكرية لأعدائها مقابل تلبية الشذوذ الجنسي . . هل
هذه هي الأخلاق ؟ !

إنها ليست « حالات فردية » مما يوجد في كل مجتمع ولا يلفت إليه الأنظار !
إنها ظاهرة اجتماعية تجتمع لها المؤتمرات لتدرسها وتحققها . وتنبه إلى خطورتها !
ثم . . هي آخذة في الازدياد !

حتى الأخلاق « البسيطة » جداً . . التي كانت مضرب الأمثال في الغرب :
« الأمانة » في الترام والأنويس وعدم « التزويغ » من دفع أجرة الركوب ! حتى
هذه ! صار الجيل الناشئ في أوروبا يهرب منها ويخالفها !
قالوا . . هذا أثر الحرب !

وربما كان كذلك ! وحقاً إن هذه ليست — بعد — الصورة الغالبة للمجتمع
الغربي ! ولكنها في طريقها إلى الازدياد . . ومن هنا خطورتها . ومن هنا دلالتها .
كلا ! ليست الحرب !

لقد خاض العالم الإسلامي حروباً جمة . . ولقد عاش نصف القرن الأول في
حرب دائمة لا تفتر ! ومع ذلك فقد كان نصف القرن هذا بالذات هو الفترة التي
ترسخت فيها أخلاق الإسلام ، وانتشرت في كل مكان وطنته جنود الإسلام !
ليست الحرب ! إنما هو الابتعاد عن الدين ! هو فصل الأخلاق عن معينها
الأصلي الذي لا معين لها سواه !

لقد خُذع الناس في الغرب خديعة ماكرة حين ظنوا أنهم يستطيعون أن
يظلوا بعيداً عن الدين ، ثم يظلوا ناجحين ، ويظلوا على خلق قويم !

إنها مرحلة من مراحل «التطور» .. لا تثبت ! كيف يثبت الناس على المنزلق !؟

لقد بدأ الفساد بالسياسة . ثم شئون الجنس . ثم بقية « الأخلاق » .

نتيجة حتمية .. لأنها سنة الله ! وسنة الله هي الحتمية الوحيدة في كل الكون !

ومظاهر القوة والتماسك والصعود والتقدم التي تزيع أبصار الناس في الشرق

وفي الغرب ، فيحسبون أنهم يستطيعون أن يبتعدوا عن قانون الله في أى شيء

ثم يظنوا ناجحين .. هذه المظاهر خداعة ماكرة ! ولنسأل كنيدي ..

ولنسأل خروشوف !

إنهما يخشيان نتيجة الانحلال الحالى على مستقبل أمريكا وروسيا ! وهما

ليسا طفلين صغيرين . وليساهازلين .. إنما هما جادان أشد الجد .. يبصران

مالا يبصره هنا الكتاب المزيفون .. التقدميون التطوريون .

إن الغرب يملك قوة حقيقية جبارة وهائلة .. لأنه ما زال يملك رصيدها

من « الأخلاق » التي كانت في أصلها مستمدة من الدين .. ولكنه — حين

فصلها عن معين الدين — بدأ يهبط .. في كل مجال . ووصل الهبوط إلى الحد

المُنذر بالخطر .. الذى أطلق الصيحة على لسان كنيدي وخروشوف .

... ولن ينهار الغرب غداً .. في أيام أو سنوات !

لا تقاس أعمار الأمم بالأيام والسنوات ! وإنما تقاس بالأجيال !

ولكن يتضح الخط الصاعد والخط الهابط من خلال الأجيال !

وشهادة القرن العشرين تقدم لنا الجواب ! إنها تقول في أوضح صورة : هذا

الجيل في طريقه للانحدار !

كلا .. لانظافة بلادين !! إنما هي مرحلة من مراحل الانزلاق .. لم

تصل بعد إلى القذارة الكاملة ، لأن الأمم تنزلق في بطن شديد .. في أجيال

وقد بدأ الغرب في المهبوط على المنزلق .. وشهد بذلك الناس هناك !

* * *

أما نحن .. فلسنا مسلمين !

كل دعوى بأننا مسلمون .. باطلة !

مسلمون بأسمائنا ؟! مسلمون بسكنائنا في الأرض التي « كان » يسكنها المسلمون ؟!

أين نحن من الإسلام ؟! ماذا فينا يحكمه الإسلام ؟!

الإسلام لا يحكم واقع حياتنا كله .. ولا سلوكنا الفردي .. فكيف

نكون مسلمين ؟!

ولقد كتبت كتابا كاملا سميته « هل نحن مسلمون ؟ » بينت فيه كيف

بعدنا عن الإسلام وجايفناه . وما أحتاج أن أعيد هنا في هذا الكتاب !

ولكني فقط أقول هذه البديهية التي يستطيع أن يراجعها كل إنسان في

نفسه : ماذا فينا يحكمه الإسلام ؟!

إن تلك البقية الباقية من العقيدة الإسلامية في صورة « عبادات » . في صورة

صوم وصلاة ومساج ، و « حج مبرور » .. كلا ! ليست إسلاما !

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب . ولكن البر من آمن

بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين ، وآتى المال على حبه ذوى

القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة

وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين

البأس . أولئك الذين صدقوا . وأولئك هم المتقون » (١) « فلا وربك لا يؤمنون

حتى يحكوك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلووا

تسلوا » (٢) .

(٢) سورة النساء [٦٥]

(١) سورة البقرة [١٧٧]

الإسلام هو أن نكون مسلمين في كل لحظة وكل عمل . كل شئون المجتمع .
كل شئون الحياة . كل التعامل الفردي . كل السلوك الشخصي . .
وإلا فلسنا بمسلمين .

الإسلام أن يحكم الإسلام أخلاقنا وسلوكنا ؛ وواقعنا ومجتمعنا ؛ واقتصادنا
وسياستنا . . وإلا فاسنا بمسلمين .

ونحن ضعاف متخفون . . كذابون منافقون . . مخادعون غشاشون . .
لأننا غير مسلمين .

ويوم كنا مسلمين . . لم يكن شيء من ذلك كله في واقعنا ولا في أخلاقنا !
ولم تكن « الأخلاق » يومئذ وعظا باسم الدين ! إنما كانت تربية كاملة
في ظل الدين . تربية ينشأ عليها الطفل منذ مولده ، ويجد قدوتها في والديه ،
ورصيدها الواقعي في المجتمع .

ولكننا انحرفنا عن الإسلام في المدى الطويل . . !

وما بي هنا أن أدافع عن الإسلام أو أدافع عن الغرب ! إن حرباً واحدة
أو حربين متلاحقتين أفسدتا من المجتمع الغربي ما أفسدناه في كل مجال . . حتى
الأخلاق الفردية التي كان يفاخر بها الغرب ! والعالم الإسلامي قد لاقى صنوفاً من
الويلات : اليهود والتتار والصليبيين والمستعمرين والمبشرين والمستشرقين ،
وتلاميذ المبشرين والمستشرقين . والحكام الطغاة من الداخل ، والأعداء من
الخارج . . وظل متمسكاً ألف سنة . . حتى أخذ في الانهيار بعد كل هذه الويلات !
والموجود عندنا اليوم على أي حال ليس ديناً بلا نظافة . . وإنما هو لادين !
فقد انحرفنا عن كل مفاهيم الدين ، وكل مقومات الدين !

ومع ذلك . . فهناك فرق رئيسي بين انحرفنا وانحراف الغرب !

انحرافنا وانحرافهم

لقد انحرف الغرب . . وانحرفنا ! وطال علينا الأمد في الانحراف . . عدة أجيال !

وحالنا ولاشك أسوأ من الغرب . . فهم على الأقل ما يزالون يستمسكون بعدة فضائل — وإن كانت في طريقها إلى التفكك والانحلال بعد الحرب الثانية على الخصوص . . ولكنها لم تتفكك بعد على تمامها . مازالوا يستمسكون ببعض الفضائل الفردية في التعامل : من استقامة وصدق وبعد عن الغش والنصب والاحتيال . وبعض الفضائل الجماعية في « التنظيمات » المختلفة التي يقوم عليها المجتمع الغربي . . وفي « العمل » بصفة خاصة ، فالعامل أو الموظف يعمل ثمانى ساعات متوالية (مع فترات من الراحة القصيرة تبلغ في مجموعها ساعة أو أكثر) بجد كامل وإخلاص ، لا يتحدث ، ولا يقص القصص ، ولا يتشاغل عن عمله في صورة من الصور . ومن أجل ذلك كله يملك الغرب القوة « المادية » والقوة العلمية والقوة التنظيمية التي يملكها اليوم . .

ونحن لم تعد لدينا فضائل . . .

لافضائلنا نحن الإسلامية الأصيلة . . ولافضائل الغرب الذي نقلده اليوم كالقروود تارة وكالعبيد تارة !

لأننا في تعاملنا الفردى نصدق أو نخلص أو يستقيم لنا وعد أو نية . . ولاتنظيماتنا تماسك إلا بمقدار ما نحشى السلطة القائمة عليها ، وسرعان ما تترأخى اليد الممسكة بالسلطة ، وسرعان ما تتفكك التنظيمات ! وحالنا في « العمل » و « الإنتاج » هو حالنا في التنظيمات والتعامل الفردى : لاصدق ولا إخلاص ،

ولا صبر على عملية الإنتاج . ومن أجل ذلك تتخلف في عملية السباق الجبار الذي يصطرع فيه العالم الحديث . .

ومع ذلك . : فانحرفهم أخطر من انحرافنا وأمن في الضلال !

* * *

وللهولة الأولى لن تصدق هذه الحقيقة !

فقد ربانا الاستعمار الصليبي في الجيل الماضي على أن أورا باعلاق ضخم لا ينهار ولا يقهر . . ولا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه . فكل ما يفعله صواب ، وكل ما يأتى من عنده فضيلة . . ومن أجل ذلك انسقنا في التقليد . . كالقروء والعبيد . . فقلدناهم في الانحلال الخلق والتفاهات « والتقاليع ! » . . في « موزات » الأزياء وموزات الأفكار سواء . ولم نقلدهم في الصبر على العمل والصبر على التنظيم ، لأن « العبيد » لا يقلدون « السادة » فيما يحتاج إلى الهمة والجهد ، إنما يقلدون في مظاهر الأشياء . . التي تناسب العبيد !

نم ولد جيل جديد ظللنا نقول له إننا نحررنا من سيطرة الاستعمار ، وصرنا « سادة » . . ولمس هذا الجيل بالفعل بعض مظاهر القوة وبعض مظاهر السيادة . . ولكنه رأى بعينه أننا نأخذ وسائل الحياة الغربية كلها دون تمييز ، ونتخلى عن مكوناتنا كلها دون تمييز . . نتخلى عن مقدساتنا لنصبح تطوريين . . أى أننا في الحقيقة نستعبد أنفسنا للغرب ، حتى ونحن نصطرع معه على السيادة ؛ ندخل في نطاق تأثيره حتى ونحن نحاول التحرر منه . . وفي النهاية لا نفال الفرض الحقيقي على تمامه : وهو احتذاء الغرب في القوة المادية والقوة العلمية والتنظيم . . لأننا مشغولون في عملية تحطيم الدين والأخلاق والتقاليد ، وشبابنا مستنفذ الطاقة في السينما والتلفزيون ، وأقاصيص الجنس المحموم !

لذلك لن يصدق هذا الجيل أذاك لأول وهلة هذه الحقيقة : أن انحراف الغرب أخطر من انحرافنا ، رغم أننا الضعفاء وهم الأقوياء !

* * *

حياتنا وحياة الغرب قائمتان على أسس منحرفة .

لكن الفرق بين انحرافنا وانحرافهم ، أنهم لا يملكون أساسا للتقويم ، ونحن نملك هذا الأساس !

نحن نملك الأساس السليم للقوة والتقدم والحضارة « الإنسانية » الحقيقية والرفعة والصعود . . وعيننا أننا لا ننشئ حياتنا وحضارتنا على ذلك الأساس السليم . . وذلك سر تخلفنا ، وسر ما فينا من ضعف وانحراف .

أما الغرب فلا يملك أساس التقويم . . عيبه ناشئ من حضارته ذاتها . . فكلما سار فيها شوطا ، على خطوطها للمنحرفة ، زاد في الانحراف . بل كلما زاد في القوة — على خطوطها للمنحرفة — زاد في الهبوط !

« إننا قوم تعساء ، لأننا ننحط أخلاقيا وعقليا . إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم ، هي على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة في الضعف ، والتي ستكون عودتها إلى البربرية والمهجية أسرع من عودة غيرها إليها ، ولكنها لا تدرك ذلك » . [الكسيس كاريل] .

إن الحضارة الغربية ذاتها هي المنحرفة . . والناس هناك لا يفسدون لأنهم ينحرفون عن الخطوط الأصلية للحضارة الغربية ، ولكن لأنهم — على وجه الدقة — يسرون على خطوط تلك الحضارة ، ويتبعونها بصدق وإخلاص !

نحن المسلمين انحرفنا عن الإسلام . . ففسدنا وضعفنا وتخلفنا . . أما الغربيون فلم ينحرفوا عن وحي حضارتهم . لقد اتبعوها صادقين ، فكانت هي السبب في انحرافهم ، وانحدارهم — كما يقول « كاريل » — إلى البربرية والمهجية والضياع .

الانحراف الغربي الأكبر ، أنه لا يدرك ما في حضارته من انحراف !

* * *

تقوم الحضارة الغربية الحالية على أسسها الإغريقية الرومانية القديمة ، بنفس الأهداف ونفس الروح . .

الحضارة الإغريقية مدتها « بالأفكار » . . التجريدية بصفة خاصة .
والحضارة الرومانية مدتها « بالتنظيم » ، والبحث عن الفائدة العملية ،
والبحث عن المتاع .

ولقد أخذت عن العالم الإسلامي « المذهب التجريبي » في العلم ، الذي قامت
عليه كل الحركة العلمية الحديثة ، كما أخذت عنه كثير من الأفكار والاتجاهات . .
ولكنها مزجت ذلك كله بالروح الإغريقية الرومانية الوثنية ، لأنها قامت —
بادى ذى بدء — على عدااء مع الكنيسة ونفور من الدين . .

لذلك انحرفت . . بادى ذى بدء !

وظل الانحراف يزداد !

لقد فصمت هذه الحضارة — ابتداء — ما بين السماء والأرض من روابط ،
ففصمت — مقابلها — جانبيين متمزجين في كيان الإنسان ، فجعلت كلا منهما
على حدة ، ثم كتبت أحد الجوانب بكل وسائل الكبت ، ونمت الآخر بكل
وسائل التنمية !

تلك هي الخطيئة الأولى في هذه الحضارة ، التي تلتها الخطايا الأخرى متتابعات .

إن النفس البشرية وحدة . والسماء والأرض وحدة . وفصل السماء عن الأرض
في الحس البشرى ، وما يقابله من فصل الجانب الروحي عن الجانب المادى من
الإنسان ، لا بد أن تترتب عليه نتائج « الحتمية » . فكل الحائنين المعزولين ،

سواء الذى كبت منذ البدء ، والذى عمى أكثر من طاقته .. لا بد فى النهاية أن يذبل مَعاً . . لأنهما منفصلان ! وذلك مغزى الكلمة الصادقة التى يقولها ألكسس كاريل ، ويؤكددها فى كتابه بشتى أنواع التوكيد « العلمى » القائم على الدراسة والمشاهدات .

فصمت الحضارة الغربية ما بين الإنسان والله . فإذا كانت النتيجة ؟
تقدم العلم . ونظمت الحياة على الأرض أرقى أنواع التنظيم . . وخيل للناس هناك أن هذا التقدم والرقى هو حصيللة ذلك الفصام^(١) !

ذلك وهم أنشأته الظروف والملايسات هناك !
فالتقدم العلمى ليس عدواً للدين . وكذلك تنظيم الحياة على الأرض !
فد يكون هذا وذلك عدواً للمفهوم الكنسى للدين أول رجال الدين والكنيسة .
ولكنه ليس عدواً « للدين » ذاته . ليس عدواً للدين الله . فدين الله لا يمكن أن يقف فى سبيل البشر ، وهو الذى نزل لإصلاح البشرية .
والدليل هو الإسلام !

فالحركة العلمية الكبرى التى نشأ عنها المذهب التجريبى . . أو العلم الحديث فى أوروبا ، قد نشأت فى ظل الإسلام ، بل نشأت من وحى الإسلام وتوجيه الإسلام !
فالعرب — من قبل — لم يكونوا أهل علم . والعلوم اليونانية التى أخذ المسلمون عنها وتعلموها عليها بآدى الأمر لم تكن فى ذاتها تفحوا نحو التجريب ، كما قال بريفولت ودريبر^(٢) ، ولم تكن — بذاتها — تحدث تلك النهضة . إنما التوجيه الإسلامى هو الذى حولها من التأمل إلى التجريب . ومن ثم تقدمت تقدماً كبيراً بحسب ذلك الزمان .

(١) اقرأ فصل « الفصام الكبد » فى كتاب « المستقبل لهذا الدين » .

(٢) راجع ص ٢٣٦ — ٢٣٨ .

و « التنظيم » بكل أنواعه أخذ المسلمون أشكاله وأجهزته من الحصارات السابقة في ظل المبادئ الإسلامية الثابتة ، ومزجوه بروح الإسلام وأضافوا إليه ، فلم تـم العداء بينه وبين الدين . بل كان الخليفة الراشد عمر بن الخطاب هو الذى سارع - بروحه المسلم المتمكن فى الإسلام - إلى « تدوين الدواوين » .
فالوهم الباطل الذى خيل للغرب أن التقدم العلمى والتنظيم الحضارى هما حصيلة الفصل بين الدين والحياة العملية . . وهم أنشأته ملابسات خاصة هناك ، وليس حقيقة بشرية !

ولكنه كان أخطر ما جنت به الحضارة الغربية على أجيال البشرية !
لقد أنشأ مسخاً مشوهاً فى مكان « الإنسان » !
مسخاً تمت فيه الجوانب الفكرية والجوانب المادية إلى أقصى حد .. وضمرت فيه الجوانب الروحية إلى أقصى حد .. فصار كريبها منفراً مخيفاً . . ينذر بالضيايع والدمار !

هذا المسخ المشوه قد أغلق على نفسه نوافذ المعرفة كلها إلا ما يدخل من نافذة « الذهن » ونافذة « الحس » . وألقى ما يدخل من نافذة « الروح » .
والإنسان - إذا شبهناه مؤقتاً بعمل هائل دقيق التركيب - لا بد أن تدخل الأضواء إلى ظلماته من جميع النوافذ فى آن واحد . . ليستطيع أن يقوم « بالتمثيل الضوئى » الخاص به على طريقة الإنسان ! وكل خلل يصيب جهازاً من أجهزته ، أو كل نقص يصيب « الضوء » النافذ إلى ظلماته ، يجعل الحصيلة النهائية ناقصة ، وقد يجعلها تنتج مركبات خطيرة . . سامة . . مدمرة لكيان الإنسان !

وهذا المسخ المشوه الذى لا يؤمن إلا بما تدركه الحواس ويدركه الذهن .
يصاب - أول ما يصاب - بالعمى النوعى . فلا يبصر أمامه إلا جانباً من الشاشة .
جانباً من الحياة . وبقية الشاشة فى نظره مظلم . . أو لا وجود له على الإطلاق .

وتأثير ذلك في إدراكه وفي سلوكه خطر وشديد الخطورة !
فهو يدرك الأشياء ناقصة ، وتتكون في حسه الصورة مشوهة . . ثم يسير
في حياته على هدى هذه الصورة المشوهة ، فإذا كل خطوه اضطراب .
ولا يحتاج هنا أن نعيد كل شهادة القرن العشرين . . وإنما نحتاج أن نشخصها
لنعرف علاجها .

فحين نسمى روح الإنسان عن حقيقة الحياة والكون ، ولا ترى منها إلا الجانب
الظاهر للحس . . يختل التوازن في داخل كيان الإنسان كما يختل مسار الكوكب
لو حجب عنه فجأة بعض عناصر الجاذبية وترك لبعضها الآخر ! وقد اختل بالفعل
توازن الإنسان في هذا العصر ، فجذبته الأرض بكل عنفها ، حين انقطع عن
جاذبية السماء !

نشاط الروح . . في اتصالها بخالقها ، واستمدادها النور منه ، والاتصال بروح
الكون اتصال المحبة والتفاهم والتعاون ، والاتصال بروح البشرية على إخاء .
هذا النشاط لم يودعه الخالق كيان الإنسان اعتباطاً ، تعالى الله عن العبث وعدم
القصد : « وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين » (١) « ألخسبتم
أنما خلقناكم عبثاً ؟ » (٢) . وإنما أودعه كيان الإنسان ليعادل به جواذب الأرض
وهوائها ، وهي عنيفة شديدة تحتاج دائماً إلى ما يوازنها ويعادلها .

فلما حدث « الفصام النكد » في الغرب بين الإنسان والله . بين الدين
والحياة . . انكفأ الإنسان على وجهه يهيم في الأرض . . باحثاً عن اللذة والمتعة
والقوة . . بلا هدى يعصمه من السعار .

والسعار الحموم الذي يغشى المدينة الغربية اليوم هو النتيجة الحتمية لذلك الفصام .

(١) سورة الدخان [٣٨] .

(٢) سورة المؤمنون [١١٥] .

إنه ليس انحرافاً عن أصول الحضارة الغربية .. إنما هو الحضارة الغربية ذاتها في ذروة اللمعان ! إنه لا يمكن أن يُتقى .. مادام الأساس ذلك الأساس ! و « الطيبون » الذين يظنون أنهم يستطيعون أن يأخذوا الحضارة الغربية - على أصولها الغربية - ثم يحولوا دون انحرافاتهما .. أو يمتنعوا عن أضرارها .. هم « طيبون » جداً . مضللون جداً .. لأنهم يتخيلون شيئاً لا يمكن أن يحدث .. شيئاً ضد طبائع الأشياء !

هذا السعار المحموم الذي يتجلى في « الإغراق » في كل شيء .. الإغراق في المادية . الإغراق في الآلية . الإغراق في وحشية الصراع . الإغراق في متاع الجنس . الإغراق في البحث عن السلطان .. إنه ليس شيئاً عارضاً نشأ عن مخالفة الناس في الغرب لأصول الحضارة الغربية ، إنما هو شيء في صميم تلك الحضارة ، ونتيجة حتمية من نتائجها .

نتيجة حتمية لطمس الجانب الروحي في الإنسان !

ولقد سخر الغرب كله بحقيقة الروح .. سخر منها التفسير المادي للتاريخ [وهو ليس ملكاً للشيوعية وحدها في الحقيقة ، فقد رأينا أن الغرب الرأسمالي محكوم بمفاهيمه ^(١)] وسخر منها التفسير الجنسي للسلوك البشري . وسخر منها التفسير الجمعي للإنسان [دركايم] وسخر منها طائفة كبيرة من الكتاب والعلماء والصحفيين والفنانين .. أو في القليل تجاهلوا فلم يجعلوها في الحساب !

وكانت النتيجة الحتمية هي ذلك الانحراف المجنون .

حين لا يؤمن الإنسان بالله واليوم الآخر .. أو لا يؤمن بهما إيماناً جاداً يحكم السلوك والمشاعر والحياة العملية .. فالنتيجة الحتمية هي أن يرى هذا العالم

(١) راجع شهادة ول ديورانت الأمريكي في فصل شهادة القرن العشرين .

وحده .. عالم الأرض .. وأن يعبد شيئاً من القوى الأرضية : يعبد الدولة . أو يعبد المجتمع . أو يعبد المادة . أو يعبد ذاته . أو يعبد الشيطان !

ثم .. يتكالب على متاع الأرض كله .

يتكالب على الفرصة الوحيدة المتاحة للمتاع ..

ومن هنا لا يكون شيء من التكالب الذى يدمر البشرية اليوم أمراً عارضاً فى الحضارة الأوروبية يرجى له الصلاح . إنما هو شيء فى صميمها ، ونتيجة حتمية من نتائجها !

تكالب الفرد الرأسمالى فى الغرب على تركيز المال فى يده ، وتركيز السلطة الناشئة من المال .. وما يتبع ذلك من استقلال بشع ، وامتصاص دماء ، واستعمار وطفيان .. إنه ليس خلافاً اقتصادياً فى الحضارة الغربية . إنه نتيجة «التفرغ» لهذه الأرض .. والانصراف عن هدى الله .

وتكالب الدولة الشيوعية على تركيز المال فى يدها وتركيز السلطة الناشئة من المال .. وما يتبع ذلك من استعباد الدولة للناس ، وإذلالهم ، ونزع آدميتهم ، وتحويلهم إلى آلات .. ليس مجرد اختلال اقتصادى ، مقابل لاختلال الرأسمالية . إنه مثلاً تماماً ، اختلال فى تصور الكون والحياة وتصور الإنسان .. اختلال نشأ من التفرغ لهذه الأرض .. والانصراف عن هدى الله .

وتكالب الشرق والغرب على القوة ، بالصورة التى تنذر بالتدمير .. ليس اختلالاً سياسياً عارضاً .. وإنما هو اختلال أصيل فى النظرة إلى «القيم» التى تحكم الحياة

والتكالب الجفسى .. لا يحتاج إلى تعليق !^(١)

(١) أقرأ فصل «تخبط واضطراب» من كتاب «الإسلام ومشكلات الحضارة»

كلها اختلالات !

اختلالات لها ظروف محلية في أوروبا . . ولكنها نشأت بادی بادی بدء
من ذلك الفصام النكد بين الدين والحياة .
هذا الفصام هو الذى أتاح للتوجيه اليهودى أن يدخل المعركة لتدمير المسيحية،
وتدمير « الأميين » بصفة عامة .

وهذا الفصام هو الذى أقام الانقلاب الصناعى فى صورته المادية الخالصة
التي لا تراعى قواعد الأخلاق ولا قواعد « الإنسانية » .

وهذا الفصام هو الذى أخرج المرأة من وظيفتها الفطرية الأولى إلى المصنع
والتاجر والطريق . . وأخرجها للإغراء والغواية . . لتتخبط ما بقى فى الحياة من
علوية ورفعة . . والهبوط بها إلى حمأة الجنس المسعور .

وهذا الفصام هو الذى سخر العلم فى طريق الشر [إلى جانب ما يؤديه من
خدمات للبشرية] فأفسد الأمم والأفراد .

وهذا الفصام هو الذى جعل صورة « الإنسان » مشوهة ممسوخة . . فقامت
نظم الترية ونظم السياسة ونظم الاقتصاد ونظم المجتمع والفنون تغذى هذه الصورة
الممسوخة وتمد لها فى التشويه !

وفى اختصار هو الذى أنشأ كل ما فى الغرب من الفساد !

* * *

وهو فساد خطر لأنه لا يملك السبيل إلى التوقف أو العلاج !

لا يملك مقياس الحكم الصحيح على الأشياء . .

لو كانت للحضارة الغربية مقياس « إنسانية » صالحة ، انحرف الناس عنها ،
لكان هناك الأمل فى عودة الناس إلى المقياس « الصحيحة » ، ورجوعهم
عن الفساد .

ولكن ما هي المقاييس « الصحيحة » لهذه الحضارة ؟ !
لقد « قالت » هذه الحضارة كلاماً كثيراً عن « حقوق الإنسان » و « الحرية
والإخاء والمساواة » و « الكرامة الإنسانية » و « الرفعة الإنسانية » و « العظمة
الإنسانية » . . . و . . . و . . .

ثم عملت هذه الحضارة — مخرصة — على خطوطها الأصلية — لتحقيق
هذا الكلام !

عملت — مخرصة — وهو ترى « الإنسان » في الحقيقة في صورة « الحيوان » !
وهي تفصل الإنسان عن الله . وتفصل الحياة عن الدين . وتفصل المادة عن
الروح . وتفصل الدنيا عن الآخرة !

وكانت النتيجة أن عملها أوصلها إلى غايتها المحتومة !

فاقلبت حقوق الإنسان . والحرية والإخاء والمساواة ، والكرامة الإنسانية ،
والرفعة الإنسانية ، والعظمة الإنسانية ، . . إلخ . إلخ إلى هذه الصورة البشعة
التي لمسنا جانباً منها في شهادة القرن العشرين . ولمسنا جانباً منها في هيروشيما
ونجازاكي ، وجانباً منها في التفرقة العنصرية في أمريكا وأفريقيا . . وجانباً
منها في كل مجال وفي كل مكان !

لم ينحرف الناس عن « أصول » الحضارة الغربية ! إنما اتبعوها فأوصلتهم
إلى البوار !

و « الطيبون » الذين يرون الوجه اللامع من الحضارة الغربية ، والبقية الباقية
من الفضائل الموجودة في الغرب ، عليهم أن يروا كذلك الوجه الأسود الكالح
لهذه الحضارة ، ثم يتذكروا شهادة كاريل :

« إننا قوم تفساء ، لأننا ننحط أخلاقياً وعقلياً . إن الجماعات والأمم التي
بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم ، هي على وجه الدقة الجماعات والأمم

الآخذة في الضعف ، والتي ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها .

إنها نهاية الخط . . خط الانحراف .

ولكنه انحراف أصيل في هذه الحضارة لم يطرأ عليها من خارجها . لم يطرأ من انحراف الناس في تصور مفاهيمها أو تمثل حقائقها . وإنما نشأ من طبيعة قيامها منذ أول لحظة على أساس معادٍ للدين ، شارك من الله .
ونحن — كما أسلفنا — أسوأ من الغرب في وضعه الراهن . .

نحن أضعف منه قوة وعلماً وتنظيماً . . وكذلك نحن فاسدو الأخلاق .
أخلاقنا هي الغش والنفاق والكذب والخديعة . . وهي النفور من المسؤولية وعدم الصبر على التنظيم وعدم الجد في الإنتاج .
وأخلاقنا في شئون الجنس لم تعد في شيء أنظف من الغرب ! والبركة في التوجيه المستمر من الصحافة والإذاعة والسينما والتلفزيون وكتاب القصة «الفنانيين» «الموهوبين» «المبدعين» !

ولكننا مع ذلك نملك السبيل إلى التقويم ، بصرف النظر — مؤقتاً — عن اتجاهنا أو عدم اتجاهنا إلى السبيل !
نحن نملك الإسلام . .

نملك أكبر قوة إصلاحية على وجه الأرض . .
وانحرافاتنا كلها هي الانحراف عن الإسلام . .
وطريقنا للقوة والصعود والتمسك والتقدم والحضارة والإنسانية . بل طريقنا لإتقان البشرية كلها . . هو الرجوع إلى الإسلام .
أما الغرب . . فلا طريق أمامه — على خطوطه الحالية — إلا طريق الضياع والدمار . .

فأي الطريقين هو الذي يكتب مستقبل البشرية ؟

مستقبل البشرية

حين أطلق الفيلسوف المعاصر « برتراند راسل » نبوءته الصادقة سنة ١٩٥٠ :
 « لقد انتهى العصر الذى يسود فيه الرجل الأبيض . وبقاء تلك السيادة إلى
 الأبد ليس قانوناً من قوانين الطبيعة . وأعتقد أن الرجل الأبيض لن يلقى أيما
 رضية كتلك التى لقيها خلال أربعة قرون . . » حين أطلق نبوءته الصادقة هذه
 لم يكن يشير إلى ملابسات « سياسية » معينة تنهى دور الرجل الأبيض فى تاريخ
 الحضارة البشرية . . فالسياسة فى الحقيقة إن هى إلا المظهر الخارجى لحقيقة الأوضاع
 الداخلية للأمم : الأوضاع الفكرية والروحية والنفسية والاجتماعية والعلمية
 والمادية . . سواء ! وإنما كان الرجل — الفيلسوف — يدلى — على طريقته
 الفلسفية — بنصيبه فى شهادة القرن العشرين !

انتهت سيادة الرجل الأبيض . لأن حضارته قد وصلت إلى غايتها — على
 خطوطها المنحرفة — فأخذت فى الانهيار . . تلك شهادة القرن العشرين من
 جميع جوانبها ، ومن بينها نبوءة ذلك الفيلسوف .
 وليس أمام الرجل الأبيض طريق — من حضارته الحالية — ينقذ به نفسه ،
 وينقذ البشرية التى يتولى اليوم قيادتها ، ويتولى كذلك هلاكها (١) !
 فطريقه الذاتى مملوء بالحفر للمدمرة . . وهو منطلق بأقصى ماوسعه من طاقة
 فى هذا الطريق . . طريق الشيطان !

* * *

ومع ذلك فلسنا متشائمين بمستقبل البشرية !

(١) اقرأ فصل « انتهى دور الرجل الأبيض » فى كتاب « المستقبل لهذا الدين » .

ولسنا نبني تفاؤلنا — بطريقة صبيانية — على التقدم العلمى الجبار الذى سيسير الحياة فى المستقبل ، وسيصنع الأعاجيب ! ولا على دعاوى « الإنسان » فى السيادة على البيئة والتحكم فى الظروف والتحرر من العجز والتحرر من القيود .. إلى آخر هذه الدعاوى الفارغة التى يرددها كتاب الغرب المفتونون وتلاميذهم فى الشرق ، الذين يحسبون أنفسهم من « الرواد » حين يكون هذه الأفاويل . . . فقد رأينا من شهادة ألكسيس كاريل أن التقدم العلمى ذاته — على خطوته الحالية — هو الذى سيسرع بالناس إلى العودة للبربرية والهمجية ، وأن تحكم الإنسان فى البيئة وسيادته عليها — بتصوراته الحالية — هو ذاته الذى يجعله ينشئ حضارة لا تلائمه ، وتؤدى به إلى الدمار !

وإنما نبني تفاؤلنا على الواقع السىء الذى تعيشه البشرية اليوم فى ظل الحضارة الغربية ! والذى يأخذ طريقه إلى الازدياد !

فهذا الواقع السىء هو الذى سيهدى البشرية إلى الصواب !

* * *

لم يعد لدى حضارة الغرب رصيد طيب تعطيه . . !

إن التقدم العلمى هو الرصيد الوحيد الذى سيسلمه الغرب للبشرية . . وهو من الأصل رصيد البشرية كلها على مدار الأجيال . بدأه المصريون القدماء والإغريق والهنود . . وأخذته المسلمون منهم وأضافوا إليه . . وسلموه لأوروبا ففتحت فيه فتوحاً واسعة . . وستسلمه أوروبا غداً لمن يحمل الراية فى المستقبل .. دورة دائمة تتداولها الأجيال .

ولكن الغرب — فيما عدا هذا — لا يملك الكثير !

هناك فضائل نفسية واجتماعية وتنظيمية مازال يحملها الغرب ولا شك . . هى التى تحفظ كيانه إلى هذه اللحظة أمام هذا السيل الجارف من المدمرات . . فى الغوضى الجنسية والخلقية ، ولإلحاد ، وتفكيك روابط الأسرة والمجتمع ، الانقلاط من كل القيم وكل المعنويات .

ولكن هذه الفضائل هي التي تتضاءل يوماً بعد يوم . . كل حرب وكل أزمة تنقص منها وتزلزلها . . لأنها فقدت معيها الأول الذي يصونها ويجدها على الدوام : معين الدين . . الصلة الحقة بالله .

ومنهاة القرن العشرين . . والشباب المهذب بالضياح .. وصيحة كنيدي وخرشوف .. وبرتراند راسل .. وغير هؤلاء وهؤلاء .. كلها تشير إلى أن هذه الفضائل في طريقها إلى التضاؤل . والانهار !

« سنة الله في الذين خلوا من قبل . ولن تجد لسنة الله تبديلاً » (١)

* * *

وإذن فلن يكون الخلاص على يد الحضارة الغربية ، ولا حضارة من نوع الحضارة الغربية !

البشرية في حاجة إلى تحول جذري في مجالاتها جميعاً . في حاجة إلى بناء جديد . وهناك خطوط ستظل بلا شك دون تغيير أو حاجة إلى التغيير .. فالعلم يسير على خط صاعد وسيظل كذلك . ولاخوف عليه — حين تتغير نظم البشرية ومناهجها — أن يتوقف أو يضعف ! وتاريخ البشرية كله يرمي إلى أنه لم يتوقف قط . وإنما تتسلمه أمة من أمة لتزيد عليه وتنميه . وفي التاريخ الحديث شواهد على ذلك . فقد كانت روسيا حين بدأت ثورتها تكاد تكون أمية في دنيا العلم .. ثم إذا هي تسبق الغرب — الذي تتلمذت عليه — في أبحاث الذرة وأبحاث الفضاء ! والصين بدأت من تحت الصفر ! واستعارت من روسيا كل شيء .. العدد والأدوات والفنيين والأموال .. ثم .. إذا هي خطر مائل ، يلجئ روسيا ذاتها إلى محاولة التفاهم مع الغرب للوقوف أمام الخطر الأصفر ...

لا ارتباط إذن بين التقدم العلمي وبين الحضارة الغربية الحالية .. ولن يقف العلم أو ينهار إذا انهارت في القريب أو البعيد حضارة الرجل الأبيض ! و « التنظيم » العالمي للحياة لا يتوقف هو الآخر .. وإنما يحتاج إلى تعديل

(١) سورة الأحزاب [٦٢]

« الآلية » المسيطرة عليه ، والتي تأخذ اليوم برقاب الغرب ، وتقتل منه الروح ،
و « فردية » الإنسان (١) .

وفما عدا هذا ينبغي أن يشمل البشرية تغيير جذري يغير كل طريق البشرية !

* * *

ماصورة هذا التغيير ؟

فلننظر في انحرافات البشرية الحالية ، لنعرف كيف يكون التغيير الذي
يهدف إلى معالجة الانحراف !

هنالك نقطتان رئيسيتان تنحرف فيهما البشرية الحالية انحرافاً جذرياً خطيراً..
أو هو انحراف أصلي نشأ عنه انحراف آخر لا يقل عنه خطورة ..
الانحراف الأصلي هو البعد عن الله .. النفور من الدين .. وإقامة الحياة
كلها على أساس لا ديني (secular) .

والانحراف الذي نشأ عنه هو تشوه التصور الإنساني « للإنسان » . فهو
يقوم من ناحية على أساس التصور المادي الحيواني للإنسان ، ومن ناحية أخرى
على أساس « جزئية » الإنسان .

والعلاج — إذن — هو العودة إلى الله بادی ذی بدء . وهو تصحيح
تصور الإنسان لنفسه . على أساس « إنسانية » الإنسان من ناحية . و « شمول »
الإنسان من ناحية أخرى .

العودة إلى الله لا تعني مجرد إضافة قدر من « الروحانية » على أسس الحياة
الغريبة الحالية ! فهذا المزيج المتنافر لن يصلح الحياة البشرية في شيء ! ولن يزيد
الناس إلا تمزيقاً واضطراباً وحيرة في مواجهة الحياة !

* * *

(١) كل إنسان — كما خلقه الله — عالم فرد لا يتماثل مع غيره من الأفراد ، ولأن
مساؤه مع الجميع . ولكن الآلية التي يعكسها العلم اليوم على الغرب تفقد الفرد فرديته ، وتصب
الناس في قوالب جاهزة كالإنتاج المادي [انظر كاريل : الإنسان ذلك المجهول] .

إنما المقصود شيء آخر . . شيء يصنع تغييراً جذرياً في « التوجه » الإنسانى ذاته ! فينتجه باديةً ذى بدء إلى الله ! لا إلى أحد سواه !

إنه شيء حقيقى . شيء جاد ! لا مجرد تلهية وعبث وزخرفة !

التوجه إلى الله معناه إفراده — سبحانه — بالألوهية . معناه حاكمية الله وحده . معناه أن يكون هو — سبحانه — صاحب الأمر الحقيقى بين الناس . هو الذى يضع للناس شريعتهم ومنهج حياتهم . هو الذى يخطط لهم سياسة مجتمعهم وسياسة أموالهم . هو الذى يحدد لهم علاقة الفرد بالمجتمع . وعلاقة الناس بالدولة . وعلاقة الرجل بالمرأة . وعلاقة الأمة بالأمة . وعلاقة « الإنسان » بالإنسان .

شيء حقيقى جاد . . لا مجرد تلهية وعبث وزخرفة !

ليس مجرد صلوات لله فى المعابد ، ولا سبحات روحية مرفرفة ، ولا تزجية لأوقات الفراغ !

إنما هو إقامة الحياة كلها على أساس العبودية الحققة لله ! وعدم الاسفكاف من عبادة الله على هذا المنوال !

أما المزج بين الحياة الحالية وبين « قدر » من التدين ، فقد كان النقطة الخطرة التى بدأ عندها الانقسام الحالى ، والتمزق ، والحيرة ، والاضطراب ! إن الحياة لا تصلح بعبادة إلهين مختلفين . أو إله فى السماء وآلهة متعددة فى الأرض ! نهايتها الحتمية هى ماوصلت إليه أوروبا اليوم من تمزق وفساد .

ولا تصلح كذلك بعبادة إله غير الله . فكل إله غير الله باطل ، سريعاً ما يعطب ويُعطب عباده . وآخر هؤلاء الآلهة المزيفين هو الإنسان ذاته . . حين عبد الإنسان ذاته ! فسريراً ما عطب ذلك المعبود وأعطب نفسه التى تعبدته ! وأسرع بنفسه إلى الهلاك والبوار !

- « أإله مع الله ؟ ! بل هم قوم يعدلون ! » (١)
 « أإله مع الله ؟ ! بل أكثرهم لا يعلمون ! » (٢)
 « أإله مع الله ؟ ! قليلا ما تذكرون ! » (٣)
 « أإله مع الله ؟ ! تعالى الله عما يشركون ! » (٤)
 « أإله مع الله ؟ ! قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ! » (٥)

وعبادته الله الواحد معناها نقض الأسس الحالية كلها للسياسة والاجتماع والاقتصاد . . . وتغيير صورة الحياة بأكملها .

معناها إلغاء عبادة الدولة . وعبادة رأس المال . وعبادة المجتمع . وعبادة الفرد الإنساني . . وما يترتب على كل هذه العبوديات من انحراف .

النظم الجماعية التي تجعل الدولة — أو الزعيم — هو المعبود . . والنظم الفردية التي تجعل رأس المال هو المعبود . . والنظم التي تقدر المجتمع وتجعله محور ارتكازها الأمر الناهي المسيطر ، وتلغى بذلك كيان الفرد وتسحق وجوده ، فلا يتبقى له إلا كونه فرداً في القطيع . . والنظم التي تقدر الفرد فتفتخ في كيانه على حساب المجتمع ، فتفكك المجتمع . كلها نظم باطلة . . منشأ بطلانها هو « العبادة » المنحرفة التي تتوجه بها لغير الله !

ولن تصل هذه النظم إلى « التوازن » الذي يوازن انحرافاتهما ويعيدلهما إلا بنقض هذه العبادات المنحرفة كلها ، والعودة الحقيقية إلى عبادة الله . . أى استمداً النظم والمناهج كلها منه ، لا بمجرد التسلي بالتوجه إليه في ساعات الفراغ ! والانحرافات الاجتماعية والخلقية التي رأينا جانباً منها في شهادة القرن العشرين ،

(١) سورة النمل [٦٠]

(٢) سورة النمل [٦١]

(٣) سورة النمل [٦٢]

(٤) سورة النمل [٦٣]

(٥) سورة النمل [٦٤]

والتي تخصصت كتب « غربية » كاملة لشرحها والإفاضة فيها . . لن تتوازن كذلك إلا بنفض العبادات المنحرفة ، ومن بينها عبادة المجتمع وعبادة الإنسان لذاته . . أى لشهواته ! والعودة إلى عبادة الله ، الذى يضع الضوابط المنظمة للحياة البشرية .

* * *

أما انحراف التصور الإنسانى « للإنسان » . . وهو فرع من الانحراف الأصلى الذى بعد بأوربا عن الدين ، فانفلت قيادها التصورى كما انفلت قيادها الاجتماعى والخلقى . . أما هذا الانحراف فقد أخذ طريقين رئيسيين .
إقامة الحياة كلها على أساس حيوانية الإنسان وماديته .
وإقامتها على أساس المفهومات الجزئية للإنسان .
وكلاهما أنشأ ألوانا من الفساد الخطر فى حياة البشرية . .

حيوانية الإنسان وماديته ترتب عليها فى التصور الأوروبى إقامة مجتمع لا تسيره مفاهيم « الإنسان » ولا تصوراته ، ولا مشاعره ، ولا سلوكه . إنما تسيره فى مكان ذلك كله مفاهيم « الحيوان » ! ومفاهيم « الآلة » ! ومن ثم تضاعف مكان العقيدة فى حسه . وانفلتت ضوابطه الخلقية فى مجال الجنس ، وهبطت علاقة الجنسين عنده إلى علاقة جسدية « بيولوجية » ! هما الحصول على اللذة ، والإغراق فى اللذات . وذلك — بصفة خاصة — هو الذى يسرع بتدمير البشرية كما قالت شهادة القرن العشرين ! كما ترتب عليها تحويل الإنسان إلى « آلة » ، إنتاجية . . تنتج وتنتج وتنتج . . ولا « تحس » إلا على مستوى الحيوان (١) .

أما جزئية الإنسان فقد ترتب عليها تضخيم جوانب منه على حساب جوانب أخرى ، أو تجاهل الكيان الكلى عامة ، ومحاولة « إنشاء » إنسان جديد على أسس فاسدة تصطدم مع الفطرة وتفسد كيان الإنسان .

فالتفسير المادى للتاريخ ، والتفسير الجنسى للسلوك ، والتفسير الجمعى للحياة ،

(١) راجع « كاريل » : الإنسان ذلك المجهول ، و« ول ديورانت » : مباهج الفلسفة .

والتفسير « الرجالى » للمرأة^(١) . . والتفسير الآلى للسلوك [الذى يفسر السلوك البشرى على أنه صادر عن « الآلة » البشرية] وغيره وغيره . . كلها قائم على أخذ جزء من الإنسان والزعم بأنه هو « الإنسان » ، وتصور الحياة كلها على هذا الزعم !

وانعكاس هذا الانحراف وذلك على الحياة البشرية المعاصرة واضح شديد الوضوح . فتضخيم الجانب المادى من الحياة على حساب الجانب الروحى والعاطفى . وتضخيم الجانب الجنسى على حساب الجانب الخلقى . وتضخيم الجانب الجماعى على حساب الجانب الفردى [أو العكس] . . ومحاولة « صياغة » إنسان جديد لا يحس ولا يفكر على مستوى « الإنسان » وإنما على مستوى الآلة أو مستوى الحيوان . . ومحاولة « إنشاء » امرأة ليست أنثى . . الخ . . الخ . . كلها تهوسات نشأت من انحراف التصور الإنسانى للإنسان ، ولعلاج لها إلا العودة للتصور الشامل للإنسان !

التصور الشامل الذى يتصور الإنسان فى حقيقته الشاملة المتكاملة : قبضة من طين الأرض ، ونفخة من روح الله ، ممتزجتين مترابطتين ، يتكون منهما كيان واحد موحد الأجزاء .

الجسم والروح حقيقة واحدة .

الجانب المادى والجانب الروحى حقيقة واحدة .

الجانب الاقتصادى والاجتماعى والجانب الخلقى والمعنوى حقيقة واحدة .

كل نشاط الإنسان حقيقة . . وحقيقة مترابطة ممتزجة .

لا ينفصل النشاط الجنسى عن الأخلاق ، لأن هذا وهذه جزءان غير منفصلين من كيان « الإنسان » .

والبحث عن الطعام . . والإنتاج المادى . . وتحسين أساليب الإنتاج . .

(١) راجع شهادة الطببة المنسوبة ص ٢١٨ - ٢٢١

والتقدم العلمى .. كلها لاتنفصل عن النشاط الروحى و«القيم» الخلقية والإنسانية. لأنها جميعاً جوانب متعددة — مترابطة — من كيان واحد شامل متكامل . ومن ثم لاتنفصل فى حياة الإنسان عقيدته عن واقعه . وأخلاقه عن سلوكه. ونشاطه الجنىسى عن نشاطه الروحى . ونشاطه المادى عن نشاطه المعنوى . . لأنه لانفصال فى نفس الإنسان بين هذه وتلك . وليست نفس الإنسان « خزان » منفصلة : خزانة للعقيدة ، وخزانة للواقع . خزانة للجنس ، وخزانة للأخلاق . خزانة للنشاط المادى ، وخزانة للنشاط الروحى . وإنما يواجه الإنسان الحياة بكيانه المتكامل ونشاطه الشامل ، وإن برزت — فى لحظة — بمض جوانبه وانحسرت جوانب أخرى . . فهى لاتنفصل بحال من الأحوال ^(١) !
وبهذا التصور المبني على حقيقة الإنسان ، تتوازن الحياة البشرية وتنجو مما فيها من انحراف .

* * *

ذانك هما الانحرافان الأساسيان فى حياة القرن العشرين : البعد عن الله ، وفساد التصور « للإنسان » .
ومن هذين الانحرافين الرئيسيين نشأت كل الانحرافات الأخرى الجزئية .
ووصل الانحراف إلى درجة من السوء لايمكن أن نستمر ! لايمكن أن تستمر دون تدمير البشرية !

وهذه هى النقطة التى ينشأ منها التغيير !
فحين تحس البشرية بالخطر على كيانها ذاته .. حين تقف على حافة الهاوية . تستيقظ ! وتسعى إلى التغيير !

وستستيقظ البشرية من هوسها المجنونة لاشك ! وستسعى للتغيير !
ستعود — ولا بد — لنظام يتجنب ما وقعت فيه من انحراف .
ستعود إلى الله . وإلى التصور الصحيح للإنسان .

(١) راجع كتاب « الدراسات » .

ستمود إلى الإسلام !
فليس في أفكار البشرية كلها فكرة واحدة تصلح هذا الانحراف كله
إلا الإسلام !

فهو الذى يربط الإنسان — ربطاً جاداً — بالله ، ويستمد من الله منهج
الحياة . وهو الذى يتصور الإنسان على حقيقته الشاملة المتكاملة المتوازنة .
وليس أمام البشرية إلا طريقها المنحرف الذى تسير فيه اليوم ويوصلها إلى
الهاوية . . أو الرجوع إلى الإسلام .

ونحن نعتقد — من واقع البشرية الحالى — أنها ستفقد من غشيتها ، وتنفى
إلى الإسلام ! ما لم يكتب الله لها التدمير فى هذا الجيل أو الجيل الذى يليه فى
غد غير بعيد !

ونحن أكثر إيماناً برحمة الله من أن يدمر البشرية — فى غوايتها
فى هذا الغد القريب .. قبل أن تستجيب ! .

* * *
ولكن هذه لن تكون مسألة سهلة !

حقاً لقد بدت بوادر توحى بعودة الإنسان فى الغرب إلى الدين !
فالعلماء — أنبياء البشرية اليوم — بدأوا واحداً إثر واحد يصلون بمقوهم
العلمية البحتة إلى وجود الله من وراء الدقة المعجزة التى يدار بها السكون !
قال جيمس جينز العالم الفلكى الذى بدأ حياته ملحدًا شاكا : « إن مشكلات
العلم الكبرى لا يحلها إلا وجود إله ! »

وقال أ. كريسي موريسون رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك ، فى كتابه
« Man Does Not Stand Alone » المترجم بعنوان : « العلم يدعو للإيمان » :
« إن وجود الخالق تدل عليه تنظيمات لانهاية لها تكون الحياة بدونها مستحيلة .
وإن وجود الإنسان على ظهر الأرض ، والمظاهر الفاخرة لذكائه ، إنما هى جزء

من برنامج ينفذه بارى* الكون^(١). . . . إن الإنسان ليكسب مزيداً لا حد له من التقدم الحسابي في كل وحدة للعلم . غير أن تحطيم ذرة دالتون - التي كانت تعد أصغر قالب في بناء الكون - إلى مجموعة نجوم مكونة من جرم مذهب وإلكترونات طائفة ، قد فتح مجالاً لتبديل فكرتنا عن الكون والحقيقة بتديلاً جوهرياً . ولم يعد التناسق الميت للذرات الجامدة يربط تصورنا بما هو مادي . وإن المعارف الجديدة التي كشف عنها العلم لتدع مجالاً لوجود مدبر جبار ، وراء ظواهر الطبيعة^(٢) »

وكان أول انعكاس في نفس جاجارين رائد الفضاء الروسي حين خرج إلى الفضاء . . هو البحث عن الله ! وإن كانت « الدولة » الشيوعية قد انزعجت من تصريحه بذلك بعد عودته إلى الأرض ، وخشيت على ماجهدت في نشره من الإلحاد ، فأوحت إلى الرائد الثالث « تيتوف » أن يقول إنه بحث عن الله في السماء فلم يجده !

المهم . . أن رجال « العلم » بدأوا يلوذون بحمى الله . . في داخل معاملهم وأبحاثهم العلمية البحتة . . وذلك أول الطريق !
ثم إن صيحات الخطر تنطلق في كل مكان تنذر بسوء مصير البشرية إن هي داومت السير على ما هي فيه اليوم من انحراف . . وكلها تنادي أن العودة إلى الله هي العلاج ، والعودة إلى التفسير الشامل للإنسان !
ولكن الأمر ليس هيناً بحيث تكفي فيه صيحات متفرقة من هنا وهناك !
إن أسباباً جمة - حقيقية وخطيرة - تصد الناس في الغرب عن الله ، وعن النهج القويم للحياة .

* * *

(١) يلاحظ تأثر الكاتب برواسب الحضارة المادية حتى وهو يستعير بعقله إلى النور الإلهي . . « برنامج ينفذه بارى* الكون » . . لأنه تعبير مثقل برواسب الحضارة المادية وأساليبها العملية . . والإدارية !
(٢) العلم يدعو للإيمان . ترجمة محمود صالح الفيلسكي ص ٤٤ - ٤٥ .

إن الحماقات التي ارتكبتها الكنيسة الأوربية كانت حماقات تاريخية !
ولم تكن شيئاً عارضاً في حياتها أو حياة البشرية !

يستوى في هذه الحماقات الطفيان البشع الذي مارسه الكنيسة على الناس .
والجمالة الخرفة التي عاش فيها رجال الدين في القرون الوسطى . والمفاسد الخلقية
الشنيعة التي ارتكبوها في ذات الأمكنة المخصصة للعبادة والقداسة والترفع عن
الشهوات . ومهزلة صكوك الغفران . . ثم تقتيل العلماء وتعمذيبهم حين يكتشفون
حقائق الكون والحياة !

هذه الحماقات كلها قد حفرت آثاراً عميقة في مشاعر الغرب وأفكاره . .
لبس من الهين إزالتها . . وهي حصيلة أجيال !

حقاً إنها حصيلة غير منطقية ! فلم يكن لزاماً على الغرب حين عادى الكنيسة
أن ينفر من الله ويمعادي الدين . وكان بوسع أن يصحح مفهومه الديني بدلاً
من تحطيمه . ولكن هذا هو الأمر الذي وقع بالفعل ، وهو الذي يواجهنا بنتائج
اليوم أياً ما كان فيها من أخطاء !

والعودة إلى الدين - مهما كانت بواورها ظاهرة اليوم - ستكون - حسبما
نرى بمنطقنا البشري المحدود - بطيئة بطيئة تحتاج إلى أجيال ! [ما لم يرد الله غير
ذلك ! وما أسهل ما يريد الله . وما أسهل ما ينقلب الإنسان فرداً وجماعة من
موقف العناد مع الله ، إلى موقف التسليم ! وهي حالة لها نماذج مكرورة في البشرية ،
خاصة في أوقات الأزمات !]

وليس هذا هو السبب الوحيد . . فقد لابسته كذلك ظروف وملابسات .
إن « المنطق العلمي » الذي يسيطر اليوم على الغرب ، أو « المنطق المادي » ،
يقف عثرة في سبيل العودة إلى الدين والعودة إلى الله !

إن الإيمان « بقوانين الطبيعة » وثبوتها . . يفسد تفكير الغرب ،
ويفسد توجهه إلى الله ! « فالعلم » كله في الغرب قائم على أساس ثبوت هذه
القوانين وعدم تعرضها - ولا إمكان تعرضها - للتغيير ! وهذا حق من أحد

جوانبه . فلم يكن العلم ليتقدم خطوة واحدة لولا افتراض ثبوت السنن الكونية ،
التي تبنى عليها المشاهدات والتجارب ، وتستمد منها النتائج والقوانين ..
ولكن الغرب .. يريد أن يقيد بها قدرة الله !

ومن ناحية أخرى يتصور أن الله — مع التسليم بوجوده — قد أودع
الكون هذه القوانين ثم تركها تعمل بطريقة آلية فتؤدي إلى كل عمليات « الخلق »
وكل عمليات الكون ، دون تدخل منه سبحانه !

وقد لقيت فتى ألمانيا — مسلماً ! — اجتذبه بساطة العقيدة الإسلامية
واستقامتها وشمولها فأمن بأنها الحق ، ومع ذلك فهو يجد أزمة عنيفة في نفسه من
أجل « المعجزات » لأنها تخالف قوانين الطبيعة !

إنه لا يستطيع أن يتصور حدوث المعجزة بحال ! ولا تدخل الله المباشر في
شأن من شؤون الخلق أو شؤون الحياة ، بعدما أودعها « القوانين » التي تسير عليها !
وحين قلت له إنه يخطئ في تصور أن تدخل الله المباشر لا يحدث إلا في
« مخالفة » قوانين الطبيعة وإنما يحدث هذا التدخل المباشر في كل لحظة للمحافظة
على ثبوت هذه القوانين ، وإلا ما ثبتت على ما هي عليه . . كانت هذه مفاجأة
ضخمة لتفكيره ! هذا وهو يقرأ في القرآن : « إن الله يمسك السماوات والأرض
أن تزولا . ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده » (١)

فكيف بغير المسلمين في الغرب الذي أفسدته هذه التصورات ؟ !

أقد نما المذهب التجريبي في العالم الإسلامي في ظل العقيدة الإسلامية ، وفي
ظل الإيمان بثبوت « سنة الله » [التي يسميها الغرب جهلاً وعناداً مذه « قوانين
الطبيعة »] ومع ذلك لم يصطدم في حسهم بقدرة الله المطلقة التي تستطيع أن تغير
ماشاء حين تشاء ! فأمنوا بالعلم ، وآمنوا بالمعجزة ؛ في بساطة بلا تعارض ولا تمزق
في التفكير ! وهذا هو المنهج الصائب في تفهم الحقيقة الإلهية والحقيقة الكونية .
ولكن « العلم » في الغرب المبني على تفهم قاصر ، يصد الناس عن السبيل !

(١) سورة فاطر [٤١]

والمُتاع الزائد عن الحد . . .

إنه « الأزمة » الحقيقية في حياة الغرب . .

لقد يمكن أن يصطلح « العلم » مع الإيمان « بالغيب » في يوم قريب أو بعيد..
وخاصة بعد البحث في قلب « الذرة » الذي غير النظرة كلها إلى الكون « المادي »
وقرب ما بين المادي واللامادي في أفكار الغربيين .

ولكن المتاع الزائد عن الحد مشكلة ضخمة . .

من ذا الذي يستمع في لذه هذا المتاع إلى صوت الدين ؟ !

الشبان والفتيات الذين يقضون أوقات فراغهم أكواما من اللحم المسعور؟
كيف يفيقون ؟ كيف تصدق أعصابهم الملتذذة بهذا المتاع أنهم مدمرون ؟!
قد يرى « الحكماء » ما هم فيه من دمار محقق . . أما هم . . وهم يحترقون
بالنار المحببة . . هل يحسون — أو يبألون — أنهم يحترقون ؟ !

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر المقنطرة من
الذهب والفضة، والخليل المسومة والأنعام والحرث، ذلك متاع الحياة الدنيا.. » (١).

والمُتاع الزائد عن الحد اليوم فنون . . وفنون !

إنه ليس ساعات اللقاء الجنسي وحده .. ولكنه كل شيء في حياة الغرب !
العمل هناك — على طريقة الآلة الإنسانية — مرهق للأعصاب ، كابت
للحيوية والانطلاق . ثم .. ينطلق الناس من أعمالهم ، ليزيحوا الكبت الواقع
على كياناتهم الحى . . ولكن ينطلقون على طريقة الحيوان !

حيوانية الإنسان وآليته . . ذلك تصور القرن العشرين .

ومن أجل احتمال الآلية المملة الرتيبة ، توضع أشد المشهيات في الجانب
الآخر . . جانب الحيوان !

ولم يكن هذا ضرورة « حتمية » في حياة الناس . ولكنه « ضرورة »
في هذا التصور المنحرف الجنون .

(١) سورة آل عمران [١٤]

ثم .. تدخل اليهودية العالمية .. تنهز الفرصة المواتية للتدمير !
 الإغراء .. فى كل صورة ..
 المرأة مغرية فى الشارع .. مغرية فى السينما .. مغرية فى المسرح ..
 مغرية فى الشاطئ .. مغرية فى الغابة .. عارية فى كل مكان !
 والسينما والمسرح والنادى والملاعب .. والشارع والمكتب .. مجالات
 للإغراء !

والفن .. الموسيقى والأدب والرقص والغناء .
 وترف الحياة ونعومتها ..

من ذا الذى يفكر فى الدين .. أو فى الأخلاق .. ليحد من هذا المتاع ؟
 وكل تنظيمات الغرب القائمة على أساس لا ديني (secular) * * * * *
 الغرب بفصلها عن الدين ! كيف يعود - بسهولة - فيقيمها على أساس
 من العقيدة فى الله ؟

التنظيمات الاقتصادية . والتنظيمات السياسية . والتنظيمات الاجتماعية . و . و .
 من ذا الذى يرحب بإقامتها على أساس العقيدة فى الله ، التى تحد من مطامع
 الطامعين ، وتضبط شهوات « أصحاب المصالح » فى كل هذه الميادين ؟
 والمرأة .. المرأة التى « تحررت » من كل قيد قيدتها به الأجيال ! كيف تعود ؟
 كيف تعود إلى مهمتها الفطرية وتقصر نفسها عليها وهى ترى نفسها اليوم
 ملء « المجتمع » ، وملء المصانع والمتاجر والدواوين والشوارع .. وأهم من ذلك
 كله .. ملء مشاعر الرجل .. كل رجل ؟ !

كيف تقبل أن ينحصر سلطانها فى بيت واحد ورجل واحد ، وهى اليوم
 ترى « وجودها » واسع الآفاق ، يشمل كل رجل يقع عيناه على فتنها ، فيعجب
 بها ولو لحظة عابرة فى الطريق .. وتتجمع اللحظات لتكوّن لها « الحياة » !
 كلا ! لا يرجع الناس فى الغرب بسهولة إلى الدين * * * * * ولا ترجع البشرية كلها

التي يحكمها الغرب اليوم ، وتنتشر منه إليها المفاهيم ، وأنماط السلوك ..
لا يرجعون إلا بقارعة !
ولكن القارعة على الأبواب !
لأنهم ليسوا بخيرين !

أوهم بخيرون ! بين الدمار الشامل الرهيب .. وبين العودة إلى حضن الله ومنهج
الله مهما يكن فيه — في تصورهم المنحرف اليوم — من « القيود » !
والدمار يفتح فاه في كل لحظة .. انتهاء سيادة الرجل الأبيض رعب [له !]
والخوف على المستقبل في روسيا وأمريكا رعب [لهما] والحرب الذرية رعب
يشمل الجميع !

وكلماهم العالم أن يستريح لابتعاد خطر الحرب .. عادت الأزمة تطل من جديد .
القارعة على الأبواب .. والناس ليسوا بخيرين .. أو هم بخيرون بين العودة
إلى الله وبين الدمار الرهيب .

وستجد البشرية ذات يوم أن الله أكرم لها وأشفق عليها من أنفسها .. فتعود إليه .
ولن يكون هذا صباح الغد !

إنما تقع القارعة — أو الصحوحة — في المعتاد حين يشتد الفساد بالناس جيلا
بعد أجيال !

ونحن — حين نقول إن مستقبل البشرية هو العودة إلى الله — لا نرقب
هذا الغد القريب الذي يحوى أعمارنا وأعمار هذا الجيل !

فعمر البشرية لا يقاس بعمر فرد أو أفراد في جيل .. إنما يقاس بأجيال بعد أجيال !
ولكننا — مع ذلك — نراه بوضوح كأنه الغد !
نراه .. لأنه سنة « حتمية » . سنة الله .

ستعود البشرية غدا إلى الله . . .

ولكن .. ماذا يكون يا ترى دور المسلمين ؟ !

دور المسالمين

دور المسالمين هو أن يكونوا دائماً في الطليعة . أن يمسكوا في أيديهم
مقدم الزمام .

« هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ، ملة أبيكم إبراهيم ، هو
سماكم المسالمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا
شهداء على الناس » (١)

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول
عليكم شهيداً » (٢)
« كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر
وتؤمنون بالله » (٣)

ذلك دور المسلمين : أن يكونوا خير أمة في الأرض ، ويكونوا — بهذا —
شهداء على الناس وقادة للبشرية .
ولسكن الموقف اليوم أن المسلمين في ذيل القافلة لا في مقدم الزمام .
ذلك لأنهم ليسوا مسلمين !

ووعده الله للمسلمين وعد صادق لا يتخلف : « وعد الله الذين آمنوا منكم
وعملوا الصالحات : ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن
لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدونني
لا يشركون بي شيئاً . ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » (٤)

(٢) سورة البقرة [١٤٣]

(١) سورة الحج [٧٨]

(٤) سورة النور [٥٥]

(٣) سورة آل عمران [١١٠]

الشرط أن يكونوا مسلمين !

وحين ينحرفون عن الإسلام كما انحرفوا بالأمس وينحرفون اليوم ، فليس لهم إلا وعد الله الصادق الذى لا يتخلف : « قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون . قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم ، أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض ، انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون » (١).

ولكن لهم — حين يكونون مسلمين — دوراً لهذه البشرية المنحرفة الضالة التى تشقى اليوم بانحرافها وضلالها !

إنهم — وحدهم فى كل الأرض — الذين يملكون المنهج الصالح للحياة .. المنهج الهادى من الضلال .

هم — وحدهم — الذين يملكون المنهج الذى يرأب صدع البشرية ويداوى انحرافات المدمرة .

المنهج الذى يرأب الفصام الذى أحدثته أوربا بين الإنسان والله ! بين الدين والحياة . بين الدنيا والآخرة . بين الجسم والروح . بين الواقع والمثال . المنهج الذى يلم شتات النفس البشرية بتوحيد وجهتها وتوحيد عبادتها : تعبد إلهاً واحداً ، وتنتجيه وجهة واحدة . فى نشاطها الروحى والمادى . نشاطها الاقتصادى والاجتماعى والسياسى . نشاطها العقلى والفنى (٢) .. كل لون من ألوان النشاط . وبذلك يقف الاضطراب القلق الذى يمزق النفس البشرية اليوم وياً كل نشاطها ، ويفسد الشباب ويدمر المجتمع ، ويفزع المسئولين عن التوجيه فى الدول الكبرى والصغرى على السواء !

المنهج الذى يكفل للنفس البشرية أن تنشط كل نشاطها الطبيعى بلا قلق

(١) سورة الأنعام [٦٤ - ٦٥] (٢) انظر كتاب « منهج الفن الإسلامى » .

ولاتصادم ، كما يسير الكوكب في مداره الصحيح ، موزونا بين الشد والجذب ، متحركا حركة اتزان .

تنشط في دنيا العلم بلا تصادم مع العقيدة ولا نفرة من الدين .
وتنشط في دنيا الواقع غير مثقلة بالكوابت المعوقة ولا منفلتة من الفرامل الضابطة .

وتمارس نشاطها « الحيوى » كله ، بما في ذلك نشاط الجنس ، في نظافة تشبع الرغبات ولا تفسد الأعصاب .
وتنظم مرافق الحياة كلها في تعقل واتزان .
ذلك هو المنهج الذى يملكه المسلمون . .
وهو هو المنهج الذى تحتاج إليه البشرية لينقذها من انحرافها ، وينقذها من الدمار الرهيب .

ولكى تهتدى البشرية إلى حقيقته ، فإن يكفى أن تقرأ عنه وتفهمه . .
إنما ينبغى أن تراه فى صورة عملية واقعية . . صورة منفذة فى واقع الأرض . .
وذلك دور المسلمين للبشرية !

* * *

ولكن البشرية المعادية اليوم للدين . . والمعادية للإسلام والمسلمين على وجه الخصوص لن تتركهم ينفذونه فى واقع الأرض ! لن تترك لهم فرصة إثبات حقيقته العلوية !

ستحاربهم حرب الإفناء !
والحرب قائمة بالفعل اليوم فى العالم الإسلامى من المحيط إلى المحيط .
الحرب الصليبية الجديدة التى بدأت فى القرن الماضى وما تزال . . وتساندها الصهيونية .

حرب بجميع وسائل الحرب . بالسلاح والجيش . بالاستعمار « الاقتصادى »
والاستعمار الفكرى والروحى . . بإفساد الأخلاق . بتدمير اهتمامات الشباب

الجدادة وتحويلهم إلى فئات يتهاافت حول السينما والتلفزيون ، وأقاصيص الجنس الحموم ، ومباريات الجمال ومعارض الأزياء ، وسائر ما ابتدعته الشياطين . . يستهلك فيها طاقته الحيوية .

تتسلخون من دينكم — أيها المسلمون — نعطيك من كل الخيرات : نموّكم ونحضركم ، ونعطيك قروضا ومشروعات وأدوات وآلات وإمكانات . . وتصرون على دينكم . . فلن نسمح لكم بالحياة !

تلك هي الحرب المسعورة التي يواجهها الإسلام . حرب لاهوادة فيها ولاهدنة ولا فتور . حرب تشمل حركات البعث الإسلامي من المحيط إلى المحيط . حرب يصرح بها بعض الصرحاء أحيانا كما صرح بها « بيدو » وزير خارجية فرنسا السابق ، حين قال عن حرب الجزائر إنها حرب الهلال والصليب ويجب أن تمضي إلى غايتها . . ويخفيها آخرون .

* * *

والمسلمون في حاجة إلى فترة طويلة من الجهاد والجهد لكي يستطيعوا أن يؤدوا دورهم للبشرية .

في حاجة أولا إلى تفهم دينهم . . فإنهم لا يفهمونه !

الجهالة الطويلة التي رانت على قلوبهم منذ عصر الركود . وحرب التشويه التي شنها المبشرون والمستشرقون والمستعمرون الصليبيون ، وتلامذتهم من « أساتذة » الجيل . والفتنة بالمذاهب الغربية — ذات السيادة — المعادية للدين . والتأثر بما قاله الأوروبيون في دينهم كما صورته لهم السكتيسة ، والظن بأنه ينطبق على كل مفهوم « الدين » . ثم موقف الضعف السياسي والحربي والاقتصادي إزاء الغرب ، الذي يشككهم في كل قيمهم الذاتية ، ويسهل عليهم تصديق كل نقيصة في أنفسهم وكل فضيلة في الأقوياء المتمكنين !

هذه الأسباب كلها مجتمعة قد غشت على قلوب المسامين وأبصارهم فلم يعودوا

يعرفون حقيقة هذا الدين . فصارت المهمة الأولى لهم أن يعرفوه .

وهم في حاجة ثانياً إلى أن يعيشوه !

فالمعرفة النظرية وحدها لا تكفي ! لا تعطى الطعم الحقيقي لشيء من الأشياء !
إنما يعرف الإنسان حقيقة الفكرة حين يعيشها بالفعل ، ويتفاعل معها في
واقع الحياة .

والإسلام غريب اليوم على قلوب المسلمين وضمايرهم غريبة يوم بدأ .
أو أشد غربة !

لقد كان غريباً - حقيقة - يوم بدأ . ولكنه كان يواجه نفوساً لم تفسد
فطرتها كل الفساد أو لم تكن عميقة الغور في الفساد . فسرعان ما انجابت
القشرة الفاسدة وصفت النفوس للنور الحق .

واليوم يواجه الإسلام - فيمن يسمون « المسلمين » ذاتهم - نفوساً
توغل فيها الفساد : الفساد الذي أحدثه الجمود والانحسار والتوقف . والفساد
المجرب من الغرب . والتحلل الخلقى والاستمتاع الزائد عن الحد ، الذي يصرف
الغرب عن الرجوع إلى الدين . كما يواجه مسلمين تعودوا - بحكم الأمر الواقع
تحت توجيه الاستعمار الصليبي - أن يعيشوا بعيداً عن روح الإسلام وتشريع
الإسلام . وأن تحكم حياتهم كلها - في الأخلاق والسلوك والتفكير والتنفيذ -
مفاهيم غير إسلامية .

لذلك فالغربة اليوم عن الإسلام أشد .

والمسلمون في حاجة - بعد أن يعرفوا الإسلام - أن يعيشوه في واقع الحياة .
ثم هم في حاجة - بعد أن يعيشوه بالفعل - أن ينمّوا الفقه الإسلامى
ليواكب الحياة الحاضرة في القرن العشرين ويحكم كل جزئياتها .

وهو جهد ضخم مافى هذا شك . ولكنه ليس الجهد الأول ولا الأخطر !
إنما الجهد الأول والأخطر هو أن يعرفوا الإسلام ويعيشوه ! وبعد ذلك سيجىء

النمو تلقائياً وتدرجياً — فى ظل الحياة الإسلامية والمفهوم الإسلامى — على يد الفقهاء المجتهدين .

وفى أثناء ذلك كله هم فى حاجة إلى التعرف على علم الغرب كله وأسباب قوته المادية من تنظيمات وبحوث وخبرات . حتى يستعيدوا حاستهم العلمية الأصيلة — التى فقدوها فى الأجيال الأخيرة — ويشاركوا مشاركة حية فعالة — على طريقتهم الإسلامية النظيفة — فى تلك التنظيمات والخبرات والبحوث .

* * *

كل ذلك يحتاج إليه المسلمون أولاً حتى يؤدوا دورهم للبشرية . وهو جهد ضخم شاق . . ولكنه مع ذلك ضرورى . ضرورى للمسلمين أنفسهم لكي يعيشوا على مستوى « الإنسان » كما علمهم الله بالإسلام . الإنسان المتنور المتحضر المتوازن النظيف المتطلع إلى الإمام . وضرورى كذلك للبشرية لكي ترى النموذج الواقعى الحى للفكرة النظيفة السليمة ، فتتبعها — راضية — لتخرج بها من الظلمات إلى النور ، وتتقى الدمار الذى يندر بإفناء البشرية . ولكن العداوات المحيطة بالإسلام لن تدع المسلمين يقومون بهذا الجهد ! الحرب الدائرة المسعورة لن تهدأ . لن تفتت . لن يدع أعداء الإسلام المسلمين يفهمون دينهم أو يعيشونه . إنه لا مانع لديهم من أن يبقى الإسلام — إذا شاء — صلوات ومشايخ ومساجد للبركة !

ولا مانع لديهم من « تطوير » الدين وتعديل مفاهيمه بإدخال المفاهيم الغربية فى صلبه !

أما قيام مجتمع مسلم واع فاهم مثقف تام يفهم الإسلام ويعيشه بالفعل . . فهذا بالذات هو الأمر المرهوب الذى يرهبه أعداء الإسلام . . والذى ينبغى أن يحولوا دونه بكل سبيل !

كلا ! لن يدع الأعداء الفرصة لنماء هذا الدين !
ولقد قاموا بالفعل بقتل جميع الإمكانات بالنسبة لقيام جماعة مسلمة في
هذا الجيل !

* * *

ولكن البشر ليسوا هم المحكّمين في دين الله !
« والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (١)
ذات يوم في التاريخ توغل الصليبيون في البحر الأحمر وقلبوا سفينة للحجاج
وقتلوا من فيها ، ونزلوا في جدة ، وساروا بالفعل نحو الأرض المقدسة
بأقدامهم المدنسة .
لو أن إنساناً وقف يرصد التاريخ في تلك اللحظة ، مقطوع الصلة بالغيب
المستور ، لقال إن الإسلام قد انتهى ولن تقوم له قائمة بعد اليوم . فليس بعد
ذلك شيء ..

ولكننا نعلم من التاريخ أن هذه الحادثة بالذات هي السبب في قومة
صلاح الدين . . قاهر الصليبيين !

واليوم يخفق الصهيونيون والصليبيون الإسلام في كل الأرض . .
ثم . . ثم ينتشر الإسلام في أفريقيا بصورة تزعج أعصاب المبشرين والدول
التي تبعث المبشرين !

وينتشر الإسلام في زنجوار أمريكا المضطهدين . . في داخل السجون التي
تضطهدهم وتشردهم !

تلك إشارة إلى المستقبل !

وهي إشارة موحية للأجيال القادمة من المسلمين !

« والله غالب على أمره . ولكن أكثر الناس لا يعلمون »
صدق الله العظيم .

(١) سورة يوسف [٢١]

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
عصر التطور	١١
اليهود الثلاثة : ماركس - وفرويد - ودركايم	٣٥
شهادة التاريخ	٦١
الثابت والمتطور في كيان الإنسان	٧٥
شهادة القرن العشرين	١٤٩
الإسلام وحياة البشرية	١٧٥
الإسلام والرجعيات	٢٥١
نحن والغرب	٢٦٣
انحرافنا وانحرافهم	٢٧٩
مستقبل البشرية	٢٩١
دور المسلمين	٣٠٧

يصدر عن دار الشريعة

في شرعية قانونية كاملة

مكتبة الاستاذ سيد قطب

- | | |
|---------------------------------|----------------------------------|
| « دراسات إسلامية | « في ظلال القرآن |
| « نحو مجتمع إسلامي | « مشاهد القيامة في القرآن |
| « في التاريخ فكرة ومنهاج | « التصوير الفني في القرآن |
| « تفسير آيات الربا | « الإسلام ومشكلات الحضارة |
| « تفسير سورة الشورى | « خصائص التصور الإسلامي ومقوماته |
| « كتب وشخصيات | « النقد الأدبي أصوله ومناهجه |
| « المستقبل لهذا الدين | « مهمة الشاعر في الحياة |
| « معركتنا مع اليهود | « هذا الدين |
| « معركة الإسلام والرأسمالية | « السلام العالمي والإسلام |
| « العدالة الاجتماعية في الإسلام | « معالم في الطريق |

مكتبة الاستاذ محمد قطب

- | | |
|-----------------------------|---|
| « قبسات من الرسول | « الإنسان بين المادية والإسلام |
| « شبهات حول الإسلام | « منهج الفن الإسلامي |
| « جاهلية القرن العشرين | « منهج التربية الإسلامية (الجزء الأول) |
| « دراسات قرآنية | « منهج التربية الإسلامية (الجزء الثاني) |
| « مفاهيم ينبغي أن تصحح | « معركة التقاليد |
| « تحت الطبع | « في النفس والمجتمع |
| « كيف نكتب التاريخ الإسلامي | « التطور والثبات في حياة البشرية |
| « المستشرقون والإسلام | « دراسات في النفس الإنسانية |
| | « هل نحن مسلمون |

من كتب دار الشروق الإسلامية

- مصحف الشروق المفسر الميسر
مختصر تفسير الإمام الطبري
تحفة المصاحف وقمة التماسير
في أحجام مختلفة وطبعات منفصلة لبعض الأجزاء
- تفسير القرآن الكريم
الإمام الأكبر محمود شلتوت
الإسلام عقيدة وشرعية
الإمام الأكبر محمود شلتوت
- الفتاوى
الإمام الأكبر محمود شلتوت
- من توجيهات الإسلام
الإمام الأكبر محمود شلتوت
- إلى القرآن الكريم
الإمام الأكبر محمود شلتوت
- الوصايا العشر
الإمام الأكبر محمود شلتوت
- المسلم في عالم الاقتصاد
الأستاذ مالك بن نبي
- أنبياء الله
الأستاذ أحمد بهجت
- نبي الإنسانية
الأستاذ أحمد حسين
- ربانية لا رهبانية
أبو الحسن علي الحسيني الندوي
- الحجة في القراءات السبع
تحقيق وتقديم الدكتور عبد العال سالم مكرم
- الفكر الإسلامي بين العقل والوحي
الدكتور عبد العال سالم مكرم
- على مشارف القرن الخامس عشر الهجري
الأستاذ ابراهيم بن علي الوزير
- الرسالة الخالدة
الأستاذ عبد الرحمن عزام
- محمد رسولاً نبياً
الأستاذ عبد الرزاق نوفل
- مسلمون بلا مشاكل
الأستاذ عبد الرزاق نوفل
- الإسلام في مفترق الطرق
الدكتور أحمد عروة
- العقوبة في الفقه الإسلامي
الدكتور أحمد فتحي بهنسي
- موقف الشريعة من نظرية الدفاع الاجتماعي
الدكتور أحمد فتحي بهنسي
- الجرائم في الفقه الإسلامي
الدكتور أحمد فتحي بهنسي
- مدخل الفقه الجنائي الإسلامي
الدكتور أحمد فتحي بهنسي
- القصاص في الفقه الإسلامي
الدكتور أحمد فتحي بهنسي
- الدية في الشريعة الإسلامية
الدكتور أحمد فتحي بهنسي
- الإبراء والمعراج
فضيلة الشيخ متولي الشعراوي

مسالك الحج والعمرة في ضوء المذاهب الأربعة

الدكتور عبد العظيم المطعني

أيها الولد المحب

الإمام العراقي

الأدب في الدين

الإمام الغزالي

شرح الوصايا العشر

للإمام حسن البنا

القرآن والسلطان

الأستاذ فهمي هويدي

خفايا الإسراء والمعراج

الأستاذ مصطفى الكيك

الخطابة وإعداد الخطيب

الدكتور عبد الجليل شلبي

تأريخ القرآن

الأستاذ إبراهيم الأبياري

الإسلام والمبادئ المستوردة

الدكتور عبد المعيم المر

سلسلة أعلام الإسلام ١٦/١

سلسلة أهل البيت ٦/١

إسهام علماء المسلمين في الرياضيات

تأليف الدكتور علي عبد الله الدفّاع

تعريب وتعليق الدكتور جلال شوقي

مراجعة الدكتور عبد العزيز السيد

الخبر الواحد في السنة والتراث وأثره في الفقه

الإسلامي

الدكتورة سهر رشاد مهنا

الأديان القديمة في الشرق

دكتور رؤوف شلبي

القضاء والقادر

فضيلة الشيخ متولي الشعراوي

قضايا إسلامية

فضيلة الشيخ متولي الشعراوي

التعبير الفني في القرآن

الدكتور بكرى الشيخ أمين

أدب الحديث النبوي

الدكتور بكرى الشيخ أمين

الإسلام في مواجهة الماديين والملحدين

الأستاذ عبد الكريم الخطيب

اليهود في القرآن

الأستاذ عبد الكريم الخطيب

أيام الله

الأستاذ عبد الكريم الخطيب

مسلمون وكفى

الأستاذ عبد الكريم الخطيب

الدعوة الوهابية

الأستاذ عبد الكريم الخطيب

قال الأولون - أدب ودين

الأستاذ السيد أبو ضيف المدني

قل يا رب

الأستاذ السيد أبو ضيف المدني

الإيمان الحق

المستشار علي جريشة

العديد حول أسماء الله الحسنى

الأستاذ عبد المغني سعيد

العجائب والمنوع في الصيام

الدكتور عبد العظيم المطعني

رقم الايداع ٨٧/٥٩٨٤

مطابع الشروقة

القاهرة ١٢ شارع مواد حبي - هاتف ٧٧١٥٧٨ ٧٧١٥٧١ برقا مسروق طبعيل 9701 SHROK UN
بيروت ٨ ١٤ ٨١٧٧١٥ ٨١٧٧١٣ - برقا دائري - طبعيل SHROK 2019 L.E

